

عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

فلسطين الرواية المفقودة في مذكرات مارك توين

"أبرياء في الخارج"

محمد مصطفى عبد الله فواقه

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1435 هـ / 2014 م

عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

فلسطين الرواية المفقودة في مذكرات مارك توين

"أبرياء في الخارج"

محمد مصطفى عبد الله فواقه

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1435 هـ / 2014 م

فلسطين الرواية المفقودة في مذكرات مارك توين "أبرياء في الخارج"

اعداد:

(محمد مصطفى عبد الله فواقه)

بكالوريوس علم الحاسوب من جامعة القدس (فلسطين)

المشرف الرئيس: أ.د. محمد سليمان الدجاني

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الدراسات الأمريكية
من معهد الدراسات الإقليمية / كلية الدراسات العليا / جامعة القدس

1435 هـ / 2014 م



جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

معهد الدراسات الإقليمية / برنامج الدراسات الأمريكية

اجازة الرسالة

فلسطين الرواية المفقودة في مذكرات مارك توين "أبرياء في الخارج"

اسم الطالب: محمد مصطفى عبد الله فواقه

الرقم الجامعي: 21012368

المشرف: أ.د. محمد سليمان الدجاني

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ: 16 / 2 / 2014 من أعضاء لجنة المناقشة المدرجة

أسماءهم وتوقيعهم:

التوقيع:
التوقيع:
التوقيع:

1- أ.د. محمد سليمان الدجاني رئيساً ومشرفاً

2- د. ياسر أبو دية ممتحناً داخلياً

3- د. جلال حسني سلامة ممتحناً خارجياً

القدس - فلسطين

1435 هـ / 2014 م

الإهداء

إلى روح والدي ومعلمي الأول الغالي "مصطفى ذياب" الذي كان دائماً
معلمي وملهمي وسندي في الحياة والذي لولاه لما وصلت لما أنا فيه
من علم ولا أكملت دراستي.

وإلى نبع الحنان والعطاء أمي التي طالما تكسرت في أحضانها همومي
ومشاكلي وأنارت لي طريق حياتي.

وإلى أحبائي زوجتي وأبنائي مصدر إلهامي وسعادتي مقلتي العين
وروح الفؤاد.

وإلى أخواتي وأخي مصدر دعمي الأول والأخير

وإلى انتمائي وكرامتي وكياني إلى فلسطين رمز المحبة

إقرار:

أقر أنا معد الرسالة بأنها قدمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجة أبحاثي الخاصة، باستثناء ما تم الإشارة له حيثما ورد، وأن هذه الدراسة، أو أي جزء منها، لم يقدم لنيل درجة عليا لأي جامعة أو معهد آخر.

التوقيع:.....

الاسم: محمد مصطفى عبد الله فواقه

التاريخ: 2014 / 02 / 16.

الشكر والعرفان

أتقدم بكامل الشكر وجميل العرفان إلى الأستاذ الدكتور محمد سليمان الدجاني الذي طالما كان نبراساً للعلم وداعماً للعلم وطلاب العلم، والذي لم يدخر جهداً في توفير كل ما يمكن توفيره من مصادر وكتب علمية، والاتصال مع جهات عدة ومؤسسات علمية دولية لتوفيرها.

كما وأشكر الدكتور جلال سلامة على المساعدة التي قدمها والتي تمثلت بتنقيح رسالة الماجستير لدي وتعديل الأخطاء اللغوية والإملائية.

وإلى عائلي مصدر سعادتي وإلهامي، الذين طالما وفروا لي سبل الراحة لإنجاز عملي هذا وتحملوا انشغالي وبعدي عنهم.

الملخص:

للدراية أهمية في إظهار الصورة الحقيقية والعكسية للصورة النمطية التي تحدث بها المؤلف مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج" عن فلسطين واللغة التهكمية الجارحة التي استخدمها في وصف سكانها وأماكنها المختلفة، وسيتم استخدام المنهج التاريخي والمنهج التحليلي.

كان لدى توين نظرة غربية فوقية برزت من خلال الأوصاف الساخرة والتهكمية والتي قام توين بوصفها للأراضي المقدسة وفلسطين خلال رحلته التي قام بها في العام 1867، حيث أعطى أحكام عن فلسطين بأنها أرض جرداء قاحلة وتصورات بأن سكانها ليسوا سوى بدو رحل.

قام توين بالعديد من المقارنات ما بين المناطق التي زارها وبين بلاده الولايات المتحدة الأمريكية من حيث المساحة والخضار والبحيرات، متجاهلاً بذلك جمال التاريخ القديم والعريق للأراضي المقدسة والحضارة التي كانت تتمتع بها فلسطين في مدنها الرئيسية.

كانت فلسطين تعج بالحياة والانتعاش الاقتصادي، حيث تم وصفها من قبل رحلة آخرين جاءوا إلى فلسطين والذين وصفوها بصورتها الحقيقية والحديث عن واقعها الاقتصادي والسكاني والعمرائي والحضاري في تلك الفترة الزمنية، وليس كما جاء في أوصاف مارك توين لها.

لم تقتصر أهمية البحث في مذكرات مارك توين من أجل إثبات جمال وواقع فلسطين في تلك الفترة الزمنية، بل هناك دافع آخر للبحث في تلك المذكرات، حيث قام اليهود ومن خلال تلك الأوصاف الساخرة والتهكمية والتي ساهم بها توين بتكوين المقولة المشهورة لهم بأن فلسطين "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، والذي قصد فيها بأن الفلسطينيين ليسوا أصحاب الأرض الحقيقية وأن سكانها العرب ليسوا سوى بدو رحل لا يتمتعون بأي روح حضارية.

Palestine the lost narrative in Mark Twain's memories

"Innocent Abroad"

Prepared by: **Mohammad Mustafa Abd-Allah Fawaqa.**

Senior Supervisor: **Professor Mohammad S. Dajani Daoudi**

Abstract

The importance of the study is to show the real image and reverse the stereotype that occur by the author Mark Twain in his book "innocent abroad" for Palestine and the language sarcastic cynicism used in description and location of the various inhabitants, and historical approach and analytic approach will be used.

Twain had a Western look superstructures emerged through descriptions sarcastic and ironic that he describe the Holy Land and Palestine during his journey on 1867, in which he gave the provisions of Palestine as a barren wasteland and perceptions that its residents are just only nomads.

Twain has made many comparisons between areas he visited and between his country United States of America, in terms of area, and green areas, lakes, ignoring the beauty of ancient history and heritage of the land and holy civilization of Palestine.

Palestine was teeming with life and the economic recovery, which has been described by other explorers who came to Palestine, who described Palestine on its real image and talk about the reality of economic and population growth and urbanization and civilization on that period of time, and not as stated in the descriptions of Mark Twain.

Not only did the importance of research in the memories of Mark Twain demonstrate the beauty and the reality of Palestine in that period, but there is another motivation to look at those memories, where Jews and through those descriptions sarcastic and ironic, that contributed by Twain configures the famous saying to them that Palestine "a land without people for a people without land", which meant that the Palestinians are not the real owners of the land and its inhabitants the Arabs, are just only nomads, but also do not have any civilized spirit.

الفصل الأول

1-1 مقدمة

يعتبر الأديب والناقد صموئيل لانجهورين كليمنس Samuel Langhorne Clemens (1835-1910) والذي اشتهر باسم "مارك توين Mark Twain" وولد في قرية فلوريدا بولاية ميزوري¹ Missouri، من أشهر الأدباء الأمريكيين²، حيث تم تكريمه في جامعات أمريكية عدة أشهرها جامعة أكسفورد وجامعة ييل، حيث نال لقب "أبو الأدب الأمريكي" بعد وفاته لكثرة أعماله القصصية الروائية وكتب رحلاته.

امتازت أعمال مارك توين الأدبية بالسخرية التهكمية والتي كانت في كثير من الأحيان تخرج عن الحقيقة إلى الخيال، حيث كانت الفكاهة والسخرية هي اللغة الغالبة في مؤلفاته ومقالاته، فوصف الإنسان بطريقة ازدراعيه بقوله إن الإنسان

¹ ميزوري هي ولاية تقع في وسط الولايات المتحدة الأمريكية. عاصمتها جفرسون سيتي، وأكبر مدنها كانزاس سيتي
² فرانك بلدنزا. مارك توين حياته وأدبه. ترجمة جميل سعيد (بيروت: المكتبة العصرية: فرانكلين، 1965)، ص 11.

"متحف أمراض وبؤرة دنس، يبدأ قذارة وينتهي رائحة كريهة، ليس هناك من سبب واضح لوجوده إلا تغذية الجراثيم وإنعاشها."³

وهنا نجد طبيعة الشخصية الخاصة بالمؤلف ومدى ازدرائه وسخريته في التأليف والكتابة، حتى أن والدته في نقاش مع إحدى جاراتها التي وصفت لها ابنها بقولها "انك لا تستطيعين أن تصدقي شيئاً مما يقول الولد"، فأجابت الأم: "نعم، إنني أدرك معدل صدقه، فأطرح تسعين بالمئة وما يتبقى فهو من الذهب الخالص."⁴ هذا ما يؤكد أن المؤلف ومنذ نعومة أظفاره، كان ذو خيال خصب يمزج فيه الحقيقة بالخيال ويصف الأشياء بعيداً عن حقيقتها، ويمزجها مع خياله الواسع.

إن شخصية مارك توين لم تتمحور إلى هذا الحد من السخرية والازدراء والفكاهة من فراغ، فقد ساهمت عوامل عدة في تمحور شخصية حتى وصلت إلى ما هي عليه، فمنذ نعومة أظفاره كان يشكو من أمراض عدة كادت ان تؤدي به إلى الموت⁵، وكذلك وفاة والده وهو في الثانية عشرة من عمره إلى جانب قتل العبيد ووقوع الاعتداءات والجرائم أمام عينيه، فقد انحدر المؤلف مارك توين من عائلة جنوبية مالكة للعبيد وتدعم الرق والاستعباد، وكان اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية⁶ بين الولايات الشمالية والجنوبية عام 1861 من أهم الأحداث التي

³ لويس ليري. أعلام الأدب الأمريكي "مارك توين". ترجمة فاروق جرار (بيروت: مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، 1961)، ص 9.

⁴ البرت بيجلوبين. طفولة مارك توين. ترجمة إبراهيم الأشقر (بيروت: المترجم، 1950)، ص 11.

⁵ مارك توين. سيرة مارك توين. ترجمة لجنة من الأدباء (بيروت: شركة الكتاب اللبناني، 1963)، ص 12.

⁶ الحرب الأهلية الأمريكية: اندلعت الحرب الأهلية بين الولايات الشمالية والجنوبية عام 1861 والتي استمرت لمدة أربع سنوات، والتي كان سببها إصرار الرئيس الأمريكي في حينها أبراهام لينكولن على إلغاء العبودية مما دفع الولايات الجنوبية إلى التصدي لتلك الفكرة، بسبب حاجة الجنوب للعبيد كأيدي عاملة مجانية لاشتغاره بالزراعة.

أثرت عليه - سيتم شرح الأهمية لاحقاً - وبخاصة قبل قيامه برحلته للأراضي المقدسة عام 1867 وتأليفه كتابه "الأبرياء في الخارج" عام 1869، فقد كان توين في البداية من الموالين للجنوبيين، ولكن بعد انتهاء الحرب الأهلية وخسارة الجنوب انحاز للشمال، فانتقده البعض بأنه ليس بصاحب مبدأ لتقلبه بين الانتماءات السياسية حسب الاعتبارات والمصالح الوطنية.

ومن أهم العوامل الأخرى التي ساهمت في صقل شخصية مارك توين وميوله للسخرية والفكاهة الطبيعية الشخصية للجمهور الغربي في تلك الحقبة، فقد وجد توين في الفكاهة الساخرة القبول لدى الجمهور مما دفعه إلى تطوير مهاراته بما يتناسب معه.

1-2 موضوع الدراسة

موضوع الدراسة هي الرحلة التي قام بها الأديب الأميركي مارك توين في عام 1867 إلى الأراضي المقدسة مع مجموعة من الحجاج الأميركيين الذين مرّوا بمدن شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وكان توين يقوم بتدوين مشاهداته وملاحظاته عن الأماكن كافة التي يقوم بزيارتها. وعند عودته إلى الولايات المتحدة قام بتجميع تلك المذكرات والمشاهدات والملاحظات ونشرها عام 1869 في كتاب أطلق عليه العنوان الأبرياء في الخارج (The Innocents Abroad) (1869)، الذي أصبح من أكثر مؤلفاته رواجاً وشعبية. وانتشر هذا الكتاب بشكل واسع حتى أصبح يمثل نموذجاً لأدب الرحلات الأمريكية.

ومن الجدير ذكره أن المقصود بالأبرياء لم يكن الأشخاص الذي قابلهم مارك توين في الخارج خلال رحلته إلى أوروبا والشرق الأوسط والأراضي المقدسة،

بل العكس، فقد كان المقصود بذلك الأشخاص أو السياح الأمريكيين الذين يقومون بالسياحة الخارجية، وبخاصة السياح الذين قاموا بسياحة بعد الحرب الأهلية الأمريكية. وهنا يكون التزامن مع الرحلة التي قام بها توين إلى أوروبا والأراضي المقدسة. ويصفهم بانهم أبرياء لما يشاهدونه ويحدث لهم في أثناء زيارتهم للعالم الخارجي أو العالم القديم والتي تكمن في ثنائياتها النظرة الغربية الفوقية لما يعتبره العالم الغربي من تقدم وفوقية عن الشرق.

اشتمل كتاب توين "أبرياء في الخارج" بوصف الأماكن التي زارها بنوع من التهكم والسخرية وبخاصة فلسطين، الأمر الذي جعل من الكتاب ذا أهمية خاصة لدى المفكرين اليهود الذين كانوا قد بدأوا بالترويج لإنشاء دولة لليهود في فلسطين وذلك بتسليط الأضواء على الأوصاف التي وردت على لسان مارك توين في الصحف اليهودية⁷، حيث نجد في رواياته عبارات السخرية والاستهزاء الكبيرين من سكان مدن فلسطين وقراها، الأمر الذي ساهم بشكل كبير في إشاعة شعار الصهيونية القائل: "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب A land without people for a people without land"⁸. والتي تمثلت بالكثير من العبارات الواردة في كتاب توين، التي كان من أهمها وصفه لفلسطين بأنها أرض جرداء بلا سكان، فكتب يقول في جمع لعدة أوصاف:

في جميع البلاد مناظر ومشاهد مملئة وكئيبة، لكنني أعتقد أن فلسطين هي
أولاها.. تبقى فلسطين بلاداً حزينة كاسرة للقلوب.. تتخذ فلسطين لنفسها مكاناً
من الخيش والرماد". وفي جملة أخرى: "إن سكانها العرب هم أساساً أناس

⁷ كاتلين كرسستن، فلسطين في العقل السياسي الأمريكي، ترجمة مفيد عبدوني (دمشق: شركة قدمس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 42.

⁸ من زعماء الحركة الصهيونية الذين قاموا بالترويج لهذا الشعار "إسرائيل زانجويل" و"ثيودور هيرتزل" وكان يقصد بهذا الشعار أن هناك (أرض بلا شعب) وهي أرض فلسطين يجب أن تعطى إلى (شعب بلا أرض) وهم اليهود.

متسولون بطبيعتهم وغريزيين". وفي وصف قرية عربية "المجدل" كتب: "إنها بشعة تماماً وأناسها ضيقوا التفكير، وحقيرة، وغير مريحة، وقذرة، تماماً كنموذج المدن التي كانت تجميل البلاد منذ عهد آدم". وأيضاً كتب: "إن حدود حوافر الخيل أثارت السكان الأغبياء، مما دعاهم للخروج جميعاً مندفعين ليحتشدوا بأعداد كبيرة، فالكبار من الرجال والنساء والصبية والبنات، ومن العميان والحمقى والمسوخين، كلهم بأثواب رثة ممزقة، يعلوها الغبار، وبيضة ثياب تستر أجسادهم."⁹

كما قال في نهاية الجزء الخاص برحلته في فلسطين "فلسطين مهجورة وبغيضة، ولماذا ينبغي أن تكون خلاف ذلك؟ هل يمكن أن تقوم لعنة الخالق بتجميل الأرض؟"¹⁰

من هنا نجده يصور سكان فلسطين بأنهم ليسوا سوى شعب متخلف وبدو رحل ولا يمكن أن يكونوا من السكان ذو الحضارة. ووصلت سخريته توين من الأراضي المقدسة وسكانها حداً كبيراً إلى حد لم تسلم من سخريته لا الأماكن المقدسة ولا الكنائس ولا المساجد ولا الرهبان ولا الأرض ولا الإنسان، على الرغم من أنه قدم إليها مع مجموعة من الحجاج الأمريكيين بهدف أداء الشعائر الدينية وزيارة الأماكن المقدسة، إلا أنه كان يفتقر إلى الإحساس الديني حيث لم تسلم الأماكن المقدسة الكنائس فيه والمساجد وكذلك الرهبان وكل شيء من سخريته.

⁹ كاتلين كرستسن، ص 41.

¹⁰ Mark, Twain. The Innocent Abroad. (New York: Signet Classics, 2007) p 474.

3-1 أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى تحليل كتاب مارك توين "أبرياء في الخارج" ومحاولة التوصل إلى الأسباب التي دفعته لإعطاء هذه الصورة السلبية التهمكية لفلسطين وسكانها، وذلك بهدف إظهار الصورة الحقيقية الواقعية للمدن والسكان الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في تلك الفترة الزمنية وإبراز الصورة الحقيقية لفلسطين حضارياً واقتصادياً وتجارياً وعمرانياً.

كما تهدف الدراسة إلى تقييم الصورة التي رسمها الكاتب مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج عن فلسطين وإظهار الرواية المفقودة في مذكراته التي طالما ضللتها المستشرقون في كتبهم ورواياتهم.

4-1 أهمية الدراسة

تأتي أهمية هذه الدراسة في إظهار الصورة الحقيقية والعكسية للصورة النمطية التي تحدث بها توين في كتابه عن فلسطين واللغة التهمكية الجارحة التي استخدمها في وصف سكانها وأماكنها المختلفة، مما أعطى صورة نمطية وتصور سلبي للأراضي المقدسة والتي ما زالت تستخدم لغاية اليوم، كما تحاول الدراسة إثبات الحق الفلسطيني في الوجود وبنان فلسطين "ارض بشعب" وليست "ارض بلا شعب" وأن الشعب الفلسطيني ذو حضارة وثقافة توازي حضارات الشعوب الأخرى.

بلغت أهمية كتاب توين "أبرياء في الخارج" ذروتها بشكل جلي وواضح لدى الإسرائيليين والقيادة الإسرائيلية، عندما قام رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين

نتياهو بتسليم نسخة منه إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية باراك أوباما، خلال اللقاء الذي جمع بينهما في شهر أيار مايو من العام 2009، بمناسبة انتخابه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية¹¹، مما يعطي صورة واضحة للأهمية التي يشكها الكتاب لدى الساسة الإسرائيليين ومدى تأثيره عليهم وعلى معتقداتهم، ومساهمته بشكل كبير في اعتناق المعتقدات والمفاهيم بأن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض أو أن اليهود "الحضاريين" أحق بها من الفلسطينيين "المخلفين"، ولما في ذلك الكتاب من الفقرات التي تعطي لليهود حقوقاً ليست لهم وتلغي حق الشعب الفلسطيني.

واستغل نتياهو في تقديمه كتاب توين للرئيس الأمريكي لتحقيق أهداف متعددة منها تذكره بشهادة أشهر الأدباء الأمريكيين حول أوضاع فلسطين، وأن اليهود قد حولوها من صحراء قاحلة إلى جنة غربية تتمتع بكونها واحة من الديمقراطية في منطقة تحكمها الديكتاتوريات ويسودها قمع الحريات الفردية وغياب الحقوق الإنسانية ودولة تضمن الرفاهية لشعبها في منطقة يغلب عليها الفساد والاحتكار وتدني قيمة الحياة الإنسانية.

¹¹ الموقع الإلكتروني لصحيفة هآرتس العبرية، مقال بعنوان " Netanyahu to president Obama with Twain's Holy Land memoir " بتاريخ 18-5-2009.

5-1 مبررات الدراسة

أهم مبررات الدراسة:

1- عدم وجود أي بحث أو دراسة تعالج هذا الموضوع من وجهة النظر

الفلسطينية أو العربية.

2- النظرة الاستفزازية التهمية التي تحدث بها مؤلف الكتاب عن فلسطين

وطريقة وصفه لها.

3- الصورة النمطية السلبية لفلسطين وشعبها التي كانت نتيجة اللغة السلبية

التي تحدث بها المؤلف واستخدامها في تسجيل مشاهداته للرحلة.

4- التأثير الكبير الذي تركه الكتاب ومدى انتشاره في الغرب حيث إنه يعتبر

من اهم المؤلفات الأدبية الأمريكية مما شجع على ترجمته إلى لغات عدة.

5- الاستغلال الصهيوني للكتاب للتأثير على المجتمع الأمريكي كدليل لسلب

حقوق الشعب الفلسطيني ومصادرة أراضيه ودفعه إلى اللجوء في أنحاء

مختلفة من العالم.

6- الرسالة الكامنة في الكتاب والتي ساهمت في تعميق المعتقد الصهيوني

الذي اشتهر تحت شعار "فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

6-1 مشكلة الدراسة

تتلخص مشكلة الدراسة بالصورة النمطية السلبية والساخرة التي أعطاها

المؤلف مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج" للأراضي المقدسة وفلسطين

أرضاً وسكاناً، وتحليل الواقع الفلسطيني في منتصف القرن التاسع عشر، في

الوقت الذي قام مارك توين برحلته إلى فلسطين، للتصدي لفكرة أن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب، وأنها لم تكن أرضاً جرداء قاحلة كما وصفها في مذكراته متجاهلاً وصف المناطق الجميلة والحضارة العريقة للمدن الرئيسية والتي كانت في تلك الفترة يئُمها السياح المسلمون وغير المسلمين من مختلف أنحاء العالم بالإضافة إلى كونها مركزاً للتجارة والتبادل التجاري.

1-7 أسئلة الدراسة

ومن أهم الأسئلة التي تحاول الدراسة الإجابة عنها:

- 1- ما الأسباب التي دعت الكاتب مارك توين لرسم صورة نمطية سلبية ساخرة لفلسطين والفلسطينيين في كتابه أبرياء في الخارج؟
- 2- هل كان لدى مارك توين دوافع شخصية خاصة جعلته يكتب بتلك الطريقة الساخرة والناقدة لفلسطين والأراضي المقدسة؟
- 3- هل أثر واقع الحياة المعيشية التي جاء منها المؤلف مارك توين في إعطاء الانطباع السلبي للحياة في فلسطين؟
- 4- إلى أي مدى ساهم كتاب مارك توين أبرياء في الخارج في رسم صورة نمطية سلبية ساخرة لفلسطين والفلسطينيين لدى المجتمع الأمريكي؟
- 5- كيف استغلت الحركة الصهيونية هذا الإنتاج الأدبي لتحقيق مصالح سياسية؟
- 6- ما هي العوامل التي مرت بها فلسطين في تلك الفترة الزمنية والتي قد تكون ساهمت بإعطاء الانطباع السلبي لدى توين؟

1-8 فرضيات الدراسة

الفرضية وهي فكرة مبدئية أو احتمال أو إجابة مؤقتة أو تفسيرات مبدئية لمشكلة البحث قابلة للفحص ويمكن للباحث السياسي من الوصول بعد الاختبار إلى نتائج مؤكده لقبولها أو رفضها¹².

إن المؤلف الأمريكي مارك توين في رسمه صورته سلبية وتهكمية لمناطق نائية لفلسطين وشعبها من خلال كتابه أبرياء في الخارج، قد ساهم في ترسيخ فكرة سلبية عن هذا البلد لدى المجتمع الأمريكي مما حدا بالحركة الصهيونية والجاليات اليهودية إلى استغلالها تحقيق في أهدافها وأطماعها الخاصة بفلسطين تمهيدا لإنشاء دولة يهودية في فلسطين ولتعزيز فكرة أن فلسطين هي أرض الميعاد وأرض إسرائيل الموعودة.

كان لدى مارك توين نظرة فوقية ودوافع شخصية خاصة جعلته يكتب بتلك الطريقة الساخرة والناقدة لفلسطين والأراضي المقدسة في كتابه أبرياء في الخارج، كما اختلف كتاب توين أبرياء في الخارج اختلافا كبيرا عن الكتب التي صدرت في الوقت ذاته لرحالة آخرين سيتم ذكرهم لاحقاً في القسم الخاص بفلسطين والأراضي المقدسة في وصف الرحالة وعالجت نفس الموضوع.

¹² محمد سليمان الدجاني ومنذر الدجاني، منهجية البحث العلمي في علم السياسة (القدس : دار المشكاة للنشر والتوزيع، 1997) ص 42.

9-1 منهجية الدراسة

سيقوم الباحث بتحليل واقع حياة المؤلف الأديب مارك توين والخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية للمؤلف، والتي ساهمت بشكل كبير في إضفاء الصبغة التهامية الناقدة والساخرة على كتابه أبرياء في الخارج، ومن تحليل واقع الحياة المعيشية، السكانية، العمرانية، الجغرافية والاقتصادية لفلسطين في منتصف القرن التاسع عشر حيث قام المؤلف مارك توين بزيارة للأراضي المقدسة في حينها، وإظهار الواقع الحقيقي للأهمية الجغرافية لفلسطين والاقتصاد التجاري حيث كانت مدنها الرئيسية بوابة للتجارة، ووصف المناطق الجميلة المزدهرة فيها على عكس مقولات وسخرية المؤلف مارك توين.

سيستبع الباحث المنهج التاريخي في الدراسة حيث سيقوم بالرجوع إلى المصادر التاريخية والمؤلفات خلال القرن التاسع عشر والتي تحدثت عن فلسطين من جميع شرائح المؤلفين عرباً أم أجنبياً. كما سيستخدم المنهج التحليلي في مقارنة واقع رحلة المؤلف في منتصف القرن التاسع مع واقع رحلات أخرى لرحالة آخرين في نفس الفترة الزمنية.

10-1 أدوات الدراسة

استخدم الباحث في هذه الدراسة المصادر التاريخية من رحلات وتصورات ورسومات تصف الحياة في فلسطين، كما استخدم الصور الفوتوغرافية التي تصور الحياة في فلسطين في القرن التاسع عشر، بالإضافة لاستخدامه أدوات بحثية أخرى كالخرائط والرسومات كان يستخدمها السكان في

تلك الفترة الزمنية وكذلك السجلات العثمانية القديمة التي تتحدث عن التطور الحضاري لفلسطين.

11-1 حدود الدراسة

الحدود الزمنية: سوف نتناول في هذه الدراسة الفترة الزمنية التي قام المؤلف مارك توين بزيارته إلى فلسطين والتي كانت في منتصف القرن التاسع عشر.

الحدود المكانية: فلسطين.

12-1 صعوبات الدراسة

وتكمن صعوبات الدراسة في الآتي:

1- عدم ترجمة كتاب توين "أبرياء في الخارج" إلى اللغة العربية مما استدعي الباحث إلى ترجمته.

2- قلة الكتب باللغة العربية أو الإنجليزية لدى المكتبات الفلسطينية تتناول كتاب مارك توين "أبرياء في الخارج" بالتحليل والتقييم.

3- تشتت المصادر التي تتحدث عن مارك توين ورحلته إلى فلسطين في القرن التاسع عشر مما يشكل صعوبة لدى الباحث في جمعها.

4- صعوبة الحصول على بعض المصادر الهامة بسبب ندرتها وأهميتها البالغة عند أصحابها كالصور الفوتوغرافية.

الفصل الثاني

1-2 الإطار النظري والدراسات السابقة.

1-1-2 الإطار النظري للدراسة.

تعرف النظرية بأنها "مجموعة مقترحات يعبر عنها فرضياً بحيث تنتبأ الفرضيات بدورها بالعلاقات بين المتغيرات التي يمكن ملاحظتها أو قياسها ولكن ليس بدقة" أو هي "مبدأ عام وضع لتفسير حقيقة ما"¹³

الإطار النظري لهذه الدراسة يقوم على أساس النظرة الغربية الفوقية، حيث نجد بأن المؤلف مارك توين ومن خلال كتاباته وآرائه كان يقوم باستخدام تعابير ساخرة ناقدة والتي لم تكن تخلو من النظرة الغربية الفوقية للشرق، وكان ينظر إليه على أنه مجرد صحراء جرداء قاحلة وجمال وسيوف وبدو رحل متنقلين من مكان إلى آخر، فقد اشتهر المؤلف توين بخصوصية نصوصه الأدبية بالنقد والسخرية، ونظراً لطبيعة الاعتقاد السائد في تلك الفترة لدى الغرب حول الشرق بأنها بلاد غير

¹³ محمد الدجاني ومنذر الدجاني، ص 58.

حضارية، فإننا نجد بأن النظرة الفوقية في الكلمات التي استخدمها مارك توين في وصفه لبلاد الشرق والأراضي المقدسة تحديداً واضحة جداً، بل وتعكس النظرة الغربية للشرق من ازدراء لكونه من الغرب وأنهم أصحاب حضارة متقدمة، والتي عبر عنها الكاتب والروائي والشاعر البريطاني روديارد كبلنج¹⁴ Rudyard Kipling في قصيدته الشعرية المشهورة "الشرق والغرب The Ballad of East and West" حيث قال في بداية قصيدته: "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا،¹⁵ "OH, East is east, and West is west, and never the twain shall meet,

ونجد النظرة الغربية واضحة في تعابير توين، حيث أنه لم يقم بالتحدث أو ذكر الواقع الحقيقي للحضارة الموجودة في فلسطين والأراضي المقدسة في تلك الفترة الزمنية، فقد تحدث عن الأماكن والقرى الفقيرة دون ذكر الأماكن المتحضرة بما فيها المدن الرئيسية والتي كانت تتمتع بالحضارة ما يميزها عن باقي البلاد والتي لازالت أثارها ماثلة حتى الآن في الأسواق القديمة الموجودة في مدينة القدس والمدن الفلسطينية الرئيسية كمدينة نابلس والخليل وحيفا وعكا ومدن أخرى، وكذلك الأهمية الجغرافية للأراضي المقدسة والتي كانت تعتبر مركزاً تجارياً هاماً لامتداد ساحل البحر المتوسط عليها وربطها للطرق التجارية ما بين القارتين الآسيوية والأفريقية.

¹⁴ روديارد كبلنج: كاتب وشاعر بريطاني ولد في الهند البريطانية عام 1865 لديه العديد من المؤلفات القصصية

والروائية الشعرية وتوفي عام 1936

¹⁵ Edmund Clarence, Stedman. ed. *A Victorian Anthology, 1837–1895*. (Cambridge: Riverside Press, 1895; Bartleby.com, 2003) <http://www.bartleby.com/246/1129.html>

ومما يعزز النظرة الغربية الفوقية للمؤلف مارك توين، ما ورد في كتب رحالة آخرين غربيين مسيحيين وعرب ومسلمون قاموا بزيارة فلسطين والأراضي المقدسة ووصفها بأجمل الأوصاف مثل "ألكسندر كنگليك Alexander Kinglake ، نعمان قسطالي، محمد التميمي، محمد الكاتب، لورنس أوليفانت Laurence Oliphant" وإخراج ورسومات رائعة تعبر عن مدى جمال طبيعة الأراضي المقدسة كما رسمها الرسام الإنجليزي ديفيد روبرتس David Roberts وليس كما وصفها المؤلف مارك توين بأنها جرداء قاحلة والتي تأتي جميعها ضمن إطار النظرة الفوقية وأن الحضارة الغربية متقدمة والشرق لا يزيد عن كونه صحراء وجمال وبدو رحل.

ويستخدم الباحث فكرة المفكر الفلسطيني الأمريكي المعروف إدوارد سعيد التي طرحها في كتابه "الاستشراق Orientalism" الصادر عام 1978، والتي تحدث فيها عن النظرة التي كان ينظرها الغرب إلى الشرق، حيث قال في كتابه:

"كانت النظرة إلى الشرقيين - التي تجمع بينهم وبين سائر الشعوب التي توصف إما بالتخلف وبالانحطاط أو بعدم التحضر أو التأخر - تقدم في إطار يجمع ما بين الحتمية البيولوجية والتوبيخ الأخلاقي والسياسي معاً، وهكذا كانت الأدهان تربط ما بين الشرقي وعناصر معينة في المجتمع الغربي (كالمنحرفين، المجانين، النساء، الفقراء)"¹⁶.

هذه النظرة التي دفعت إدوارد سعيد بنشر كتابه "الاستشراق"، للرد على ما قام به الغرب من إصدار عدد كبير من الكتب والمؤلفات حول نظرياتهم عن

¹⁶ إدوارد سعيد. الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة د. محمد عناني (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006)، ص 325.

الشرق والتي قدرت بحوالي 60000 كتاب كتبت ما بين الأعوام 1800 - 1950 أي خلال 150 عام¹⁷، وهذا يدل على الحيز الكبير الذي ناله الشرق ولكن هذا الاهتمام لم يكن بالواقع الصحيح لها، بل على العكس كان يرتبط في خيال الغرب سحر الشرق، الأمر الذي أدى إلى إعطاء الصورة النمطية السلبية عن الشرق لدى الغرب والتي لا تزال بعض منها موجودة حتى وقتنا الحالي فهناك العديد من الأشخاص في الغرب ما زال يعتقد بأن الشرق هو عبارة عن صحراء وجمال وبدو.

2-1-2 الدراسات السابقة.

لقد صدرت العديد من المؤلفات والمقالات والكتب التي تحدثت عن المؤلف مارك توين وعن واقع الحياة التي عاشها ورحلاته وأعماله، كما نشر عددا من المقالات العلمية التي تتحدث عن هذا المؤلف وكتابه: "أبرياء في الخارج"، ولكن لم تتطرق تلك الأبحاث إلى حقيقة الواقع الذي وصف فيها مارك توين فلسطين والأراضي المقدسة ومدى واقعية الكتابات التي كتبها عن هذه المنطقة، وما هي الدوافع التي جعلته يكتب بتلك الطريقة الساخرة الازدرائية عن فلسطين والأراضي المقدسة على الرغم من أنه قام بالزيارة كحاج مسيحي أي زيارة ذات بعد ديني، الأمر الذي جعل عملية البحث في الأسباب والدوافع التي أدت بالمؤلف مارك توين لكتابه بتلك الطريقة الساخرة الازدرائية عن هذه البلاد ومدى واقعية الوصف للأراضي المقدسة صعبة، لعدم وجود الأبحاث والدراسات

¹⁷ إدوارد سعيد، ص 321-322.

السابقة حولها، وهنا جاءت فكرة الخوض في عملية البحث لإضافة المعلومات والبيانات الجديدة لاستبيان الدوافع وراء كتابته بتلك الطريقة، ونذكر هنا بعض الدراسات السابقة التي تحدثت عن الرحلات إلى فلسطين والأراضي المقدسة:

1-2-1-2 لماذا غادر الأبرياء إلى خارج البلاد: مارك توين والسياحة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر.¹⁸

تبحث هذه الدراسة في كتاب مارك توين "أبرياء في الخارج" - الذي كان من أكثر الكتب مبيعا في القرن التاسع عشر - تحديداً القسم المتعلق بزياراتهم ومشاهداتهم لأوروبا مع التطرق البسيط إلى الشرق الأوسط والأراضي المقدسة، وكان الباحث "جيفري شتاين برنك" Jeffrey Steinbrink يحاول في بحثه الإجابة عن سؤال طرحه مع عنوان الدراسة وهو: "لماذا غادر الأبرياء إلى خارج البلاد؟" حيث تطرق بشكل مسهب وعميق إلى أن السياحة الأمريكية ازدهرت ونشطت بشكل كبير وملحوظ بعد الحرب الأهلية الأمريكية، حيث كان للحرب دورا هاما في تعزيز السياحة الخارجية للأمريكان وذلك بعد أن استقرت أمريكا وأخذت طابع الدول المزدهرة والمتقدمة مما أزال حاجز الرهبة والخوف عن السياح للقيام بجولاتهم دون الخضوع للتبعية القديمة لأوروبا.

وتذكر الدراسة بأن للسائح الأمريكي العديد من الدوافع للقيام بجولاته للعالم القديم وهي 1- الثروات المزدهرة لرجال الأعمال خلال العصر الذهبي 2- التحسن الهائل في النقل البحري عبر المحيط 3- ظهور طبقة وسطى كبيرة لها إحساس مرهف جعلها تتجول في أوروبا والشرق.¹⁹

¹⁸ Jeffrey Steinbrink. Why the Innocents Went Abroad: Mark Twain and American Tourism in the Late Nineteenth Century. (Illinois: University of Illinois Press, 1983). pp 278-286.

¹⁹ Jeffrey Steinbrink. P 279.

وأشار الباحث إلى أن السياحة الأمريكية كانت عادة ما تأخذ الطابع الاستهزائي والنظرة الفوقية وأن الأمريكيان هم أفضل من غيرهم وحتى من الأوروبيين، ويبرهن ذلك من خلال عبارة وردت في كتاب مارك توين أبرياء في الخارج والتي وصف فيها اليونان خلال رحلته لأوروبا بأنها "صحراء قاحلة قاتمة"، مما جعل مارك توين يتردد ما بين الماضي العريق المليء بالأساطير والحضارة والتي أعطاهم مشاعر الازدراء والرهبة وبين ثقته المتزايدة بأن الولايات المتحدة الأمريكية هي أرض الحاضر والمستقبل، كما وتمادى توين في الغرور والاستهزاء حيث قال "حتى الآن فإن اجمل النساء التي رأيناها في فرنسا ولدت وتربت في أمريكا"²⁰.

وتحدثت الدراسة عن إعجاب مارك توين بجوانب الحداثة في أوروبا التي اعتقد الأبرياء وهم السياح الأمريكيان أنهم قادرون على إتقانها في بلادهم، مما يدل على التحيز الواضح والمقارنة مع الوطن في كل المشاهدات والانتقادات.

واختتم باحث الدراسة بقوله عن كتاب توين "الأبرياء في الخارج" إن إنجاز هذا الكتاب الكبير لا يقع فيما أخبرنا به عن البلاد التي زارها الأبرياء في الخارج ولكن فيما يرويه عن الأرض التي عادوا إليها.

²⁰ Jeffrey Steinbrink. P 283.

2-2-1-2 الأسلوب الواقعي والمشكلة في مضمون "أبرياء في الخارج" و

"الحياة الخشنة".²¹

يتناول الباحث فليب بيدلر Philip Beidler في هذه الدراسة أسلوب مارك توين الواقعي التي جاءت في مضمون كتابه "أبرياء في الخارج" و"الحياة الخشنة"، حيث أشار الباحث إلى أن المؤلف مارك توين قام بوضع التصور والأوصاف في كتابه من منظوره الخاص وبأسلوب سردي واقعي، حيث إن منهج توين لتعريف مفهوم الأسلوب الواقعي يتمحور بشكل أساسي حول تعريف وإعلان الحرب على جميع الأشياء التي يعتقد بأنها تخالف مفهوم الأسلوب الواقعي: كتابات الترحال التقليدية، بشكل أساسي، وأيضا المجالات، وكتيبات الإرشاد، والسجلات التاريخية، والأشكال المختلفة من طرق التعبير الشعبية، التي اعتز بها معاصروه، وحتى الجهود الأدبية لزملائه الرحالة، كما قام بسرد الوقائع بطريقة خاصة تميز فيها توين عن باقي المؤلفين والتي تميزت بإعطاء القارئ كيفية رؤيته للأشياء والتصورات من نظره الخاص للأشياء بدل من أن يراها القارئ من عيون الرحالة والأدباء الآخرين، حيث كانت تأخذ طابع النقد الساخر بأسلوبه الخاص والذي كان يشكل حالة من عدم الاستقرار في الوعي، وهذه هي المشكلة التي تحدث عنها في عنوان مقالته البحثية، وحيث أن الكتابين عبارة عن رحلات قام بها المؤلف مارك توين الأول حول رحلته إلى أوروبا والأراضي المقدسة والثاني حول عمله بالقرب من بحيرة تاهو²² Tahoe في

²¹ Philip Beidler. *Realistic and the Problem of Context in "The Innocent Abroad" and "Roughing It"*. (Duke University Press, American Literature, Vol. 52, No. 1, 1980). pp 33-49.

²² بحيرة تاهو: هي بحيرة كبيرة للماء العذب في جبال سيرا نيفادا بالولايات المتحدة. تقع على طول الحدود بين ولاية كاليفورنيا ونييفادا، غرب كارسن سيتي. يبلغ عمقها 514 متراً مما يجعلها ثاني أعمق بحيرة في الولايات المتحدة. المصدر الموقع الرسمي لبحيرة تاهو <http://www.visitinglaketahoe.com>

توريد الأخشاب، فإننا نجد أن توين قام بتصوير الأحداث من زاويته الخاصة وبأسلوبه الخاص المعروف بالسخرية والإزدرائية.

3-2-1-2-1-2-3 مارك توين السائح: شكل "أبرياء في الخارج".²³

ينتظر الباحث بروس ميشيلسون Bruce Michelson في هذه الدراسة إلى السياحة الخارجية للسياح الأمريكيين وشكل السياحة، والتي كانت تشكل دافعاً للكثير من الأمريكيين للسفر بسبب رخص الحياة خارج أمريكا، التي أخذت شكل السياحة والاستجمام والسياحة الدينية كما في رحلة مارك توين إلى الأراضي المقدسة، وتطرق الباحث إلى أسلوب مارك توين في سرد الكلام حول مشاهداته للأماكن التي كان يزورها والسخرية التي كان يبديها في مؤلفاته وأقواله، حيث يرى الباحث في دراسته مدى فاعلية توين في سرد الأحداث ومدى التأثير الواقعي لها بأن معظم رحلة توين إلى الخارج والكلام والسرد والأوصاف الذي قام بوصفها وسردها في كتابه إنما تشكل لعبة خيالية قام بها توين ليقوم برحلته على طريقته الخاصة والتي يحولها من رحلة دينية إلى رحلة تسلية ومرح وسخرية في معظم المقامات حتى في أكثر اللحظات وقاراً وتقوى، فعندما وصل توين إلى مهد السيد المسيح قال:

"ليس لدي تأملات حول هذا المكان الذي قيل فيه عبارة عيد ميلاد سعيد لأول مرة، ومنه انطلق صديق طفولتي بابا نويل في أول رحلة له ليسعد دوماً الجالسين حول المدفأة في صباح الشتاء البارد في الأراضي البعيدة. وأنا الآن

²³ Bruce Michelson. *Mark Twain the Tourist: The Form of the Innocents Abroad* (Duke University Press, American Literature, Vol. 49, No. 3, 1977). pp 385-389.

المس بأصبعي الموقر المكان الحقيقي الذي وضع فيه اليسوع الطفل، ولكني

لا أفكر بأي شيء على الإطلاق.²⁴

وهنا نجد أن حال وأوصاف الكتاب تتمحور بطبيعة مزاج توين فهو ساخرا أحيانا وناقدا في أخرى ومندفاعا وضعيفاً تارة أخرى مما يعزز بان الطريقة التي يستخدمها في أوصافه للواقع دائما تكون مدمجة بالسخرية والخيال لإعطاء الصبغة الساخرة الخيالية ليستطيع إمتاع القارئ الأمريكي، وليبين كذلك تفوق الشعب الأمريكي على غيره من الشعوب.

2-1-2 أنماط الوعي في "أبرياء في الخارج".²⁵

يتناول الباحث فورست روبنسون Forrest Robinson في بحثه شكل الأنماط المتعددة في كتاب مارك توين "أبرياء في الخارج" حيث توضح الدراسة العلمية أنماط وأشكال التناقضات من خلال باحثين عدة، كما ناقش من خلال بحثه التناقض والمعارضة في كتاب مارك توين وذلك من أوصاف عدة قام بها توين في كتابه يصف بها المناطق مرة بشكل إيجابي ومرة بشكل سلبي مع التركيز على المقارنة مع وطنه أمريكا، ولخص روبنسون أشكال التناقض والمعارضة في أشكال عدة استخدمها توين مثل استخدامه لـ

الأسلوب المتدني (العامي)

الأسلوب العالي (المتميز)

القرب من الأشياء

المسافة والبعد عن الأشياء

²⁴ Bruce Michelson. P 397.

²⁵ Forrest Robinson. Patterns of Consciousness in the Innocents Abroad. (Durham: Duke University Press, 1986). pp 46-63

ومن الأمثلة على ذلك الوصف الذي قدمه توين لمدينة البندقية والمقارنة التي عقدها لها في الليل والنهار حيث قال:

"في وهج النهار لا يوجد في مدينة البندقية الكثير من الشاعرية، لكن في الليل تصبح قصورها الملطخة ببيضاء اللون مرة أخرى وتختفي تماثيلها البالية، وتعود المدينة القديمة إلى عظمتها كما كانت قبل خمسمائة سنة، تحت ضوء الشمس الغادر تظهر مدينة البندقية وكأنها مدينة تعاني من اليأس والخراب والفقر والكساد والنسيان، ولكن تحت ضوء القمر ترفرف فوقها العظمة والأمجاد التي سادت فيها طوال أربعة عشر قرناً وتتحول مرة أخرى إلى أجمل أميرة على وجه الأرض".²⁶

وفي القسم الثاني لمقال روبنسون تناول نمطين أثنتين لباحثين آخرين، فالنمط الأول يركز على بعض الانتقادات على الاختلافات النصية والتوترات والتناقضات الناجمة عن البناء الشديد الاستقطاب حيث يعود هذا النمط للباحث هنري سميث Henry Smith في كتابه مارك توين: تطور كاتب يسلط سميث الضوء على التناقض السائد في الأبرياء في الخارج وينتقد مارك توين لفشله في تصوير البناء العام أو حتى تصوير وسيلة للتعامل مع الحوادث المنفصلة التي يمكن أن تعبر عن الخشوع والاستخفاف في آن واحد.

²⁶ Forrest Robinson. P 47.

أما النمط الثاني فهو النسيج الثنائي السرد، ومن أبرز الباحثين جيمس كوكس James Cox الذي ينتقد بشدة "النقد غير الكافي" الذي يقسم الراوي في الأبرياء في الخارج إلى عدد من المواقف المتناقضة، ويرى أنه لا عجب أن الوحدة أو السلامة تنتهي من الكتاب بمجرد بدء هذه الانتقادات²⁷.

وفي القسم الثالث يتحدث روبنسون Robinson عن مقالة فيليب بيدلر Philip Beidler بعنوان الأسلوب الواقعي والمشكلة في "أبرياء في الخارج" و"الحياة الخشنة" التي تتحدث عن إمام توين بمحدودية لغته وإحساسه ومحدودية تردد التصورات التي يصورها، والتي كانت لها المجال الأكبر في عدم الاستقرار في الوعي فتارة تجد توين يوصف الأشياء بحنان ورومانسية عالية وتارة ودون سابق إنذار تجده ينقلب ليضع الأوصاف الصاخبة والساخرة بشكل قوي. وكتاب توين الأبرياء في الخارج يتوقع هذه التطورات المتأخرة الأكثر قتامة في كل من المشكلة الواضحة في روايته وفي ميل الراوي إلى تصور الارتياح بوصفه حلا للخلافات النفسية وتحررا من الوعي، ومثال ذلك وصف توين خلال رحلته في إيطاليا حول "الكاتدرائية والجمال الحاملة الواسعة زرقاء اللون المغطاة بالثلوج على مسافة عشرين ميلا، ومع أن الأفق البعيد رائع الجمال إلا أن المشهد الأقرب يشتمل على قزم رأسه مثل رأس الوحش وامرأة لها شارب"²⁸.

في القسم الرابع تناول روبنسون Robinson كلام الباحث جوستين كابلان Justin Kaplan حيث يرى كابلان أن توين يرى رحلته إلى أوروبا والأراضي المقدسة عبارة عن "توما بلا أحلام، ذهول، وإحساس أن السفر إلى الخارج يعني الموت والهروب من الحياة"، حيث يوضح بأنه كانت لدى توين الرغبة في السفر إلى الخارج منذ بداية حياته المهنية، ولكن يشير كتاب "أبرياء في الخارج" أيضا إلى أن بزوغ الضوء لم يلبّ بالضرورة شوقه نحو الهروب، والنوم لم يكن دائما بلا أحلام،

²⁷ Forrest Robinson. P 50.

²⁸ Forrest Robinson. P 55.

والأحلام الحقيقية التي تحدث عنها مارك توين كانت فقط أحلاماً سيئة، ونوم الوعي الذي سعى للحصول عليه في أثناء الرحلات من خلال الماضي البعيد والأمن للعالم القديم لم يتحقق بسهولة في كثير من الأحيان.

ويفيد المقال في نهاية المطاف بأن مارك توين لا يعبر بصراحة عن رغبته في أن يكون ميتاً بالنسبة للعالم في "أبرياء في الخارج"، إلا أن التتميط والمحاكاة المتطرفة لوعيه، والتقلبات الدراماتيكية المفاجئة في مزاجه وحالته النفسية لها ترابطات ومتلازمات نحو الرغبة في إنهاء الوعي بالتجارب الكئيبة في الوقت الحاضر وهواجس المستقبل الضارة، والشوق إلى هدوء عظيم من النسيان والسلام.

5-2-1-2 المختارون الفاسقون في "أبرياء في الخارج"²⁹.

يتناول الباحث روبرت ريجين Robert Regan في دراسة علمية تقسيم وفصل مرافقي مارك توين في رحلته إلى نوعين من الأشخاص الجماعة الأولى كما وصفهم سماهم "الرحالة" وهم الأشخاص المتدينين الذي كانوا يتوقعون حدوث معجزات لهم من شدة تأثرهم بالأماكن المقدسة. والجماعة الثانية هي "المذنبون" أو "الفاسقون" الذين يأخذون الرحلة على أنها رحلة لعب ولهو. ولقد صنف توين من بين هذه المجموعة وهي التي كانت ترافقه في معظم مغامراته والأحداث التي حدثت معه خلال رحلته إلى أوروبا والأراضي المقدسة.

²⁹ Robert Regan. *The Reprobate Elect in the Innocents Abroad*. (Duke University Press, American Literature, Vol. 54, No. 2, 1982). pp 240-257.

وتحدث المقال عن الرسائل التي كان توين يرسلها إلى دور الصحف وعن تفاصيل فحواها والتي شكلت فيما بعد كتابه توين "أبرياء في الخارج" حيث ناقش عند ريجين Regan في مقاله التناقض الواضح في رسائل توين والذي قسم الرحالة إلى قسمين وكيف أن قرارات توين وطبيعة وعيه وتفكيره أخذته إلى خوض تلك الأحداث بتلك الطريقة السردية الناقدة والساخرة.

واختتم ريجين Regan مقاله باستنتاج التالي "ضمن عملية زيادة ومراجعة رسائل السفر الخاصة بمارك توين لإعداد رواية "أبرياء في الخارج"، فقد ضاعف مارك توين تقريباً من عدد الاعتداءات على الرحالة، كما ضاعف من حجمها الإجمالي بثلاث مرات، وتساءل كم بلغ عدد تلك الإضافات التي تعتبر من الابتكارات والإبداعات أو خروجاً عن الحقائق، من غير الممكن أن نؤكد ذلك بدقة، إلا أن الزيادة في عددها وحجمها وقوتها يثير بعض الشك بأنه كان مدركاً لموضوعه ولضرورة جعله بارزاً وملحوظاً في الكتاب، وبعد أن قام بإنهاء وتسليم مخطوطته، واجه بعض المشاكل في اختيار عنوان لها، وللأسف لم يقرأ مارك توين وجمهوره كتابات إدوارد تايلور Edward Taylor، إذ كان سيقترح هذا الشخص الرائع والكلام هنا لريجين Regan عنواناً ملائماً أكثر وهو: "قرارات مارك توين تؤثر على مختاراته"³⁰.

6-2-1-2 مارك توين يصف العرب والمسلمين في "الأبرياء في الخارج".

هذه الدراسة هي في الواقع رسالة ماجستير للطالبة نانسي باخت Nancy Bakht في قسم الآداب جامعة جنوب فلوريدا عام 2006، تبحث فيها تفاصيل وصف مارك توين للعرب والمسلمين في كتابه الأبرياء في الخارج، وقد استعرضت الدراسة رحلة توين التي قام بها عام 1867 لأوروبا

³⁰ Robert Regan. P 257.

والشرق الأوسط والأراضي المقدسة، والدوافع التي دفعت مارك توين بالسخرية بتلك الطريقة الإزدرائية والتي لخصتها الباحثة باخت في ثلاث عوامل رئيسة هي³¹:

العامل الأول: الحرب الأهلية التي حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية ومدى تأثيرها على نفسيات الناس وعقولهم، حيث قام مارك توين برحلته إلى أوروبا والأراضي المقدسة بعد الحرب الأهلية مباشرة، وكانت صور الحرب القاتمة والمؤلمة ما تزال راسخة في عقل مارك توين الأمر الذي أدى إلى التأثير على شخصه وسرده للأحداث.

العامل الثاني: العبودية، حيث كانت عائلة توين من العائلات التي تمتلك العبيد وكان مارك توين قد نشأ في أجواء العبيد وشاهد الكثير من الجرائم التي كانت تحدث من العبيد وللعبيد، مما أدى لترسيخ فكرة السيد والعبد.

العامل الثالث: وهو العامل الديني، حيث كان توين مسيحي غربي تربي على الفكرة الغربية التي تعد المسلمين والعرب بأنهم طبقة منبوذة ولا يستحقون أن يكونوا من البشر بل عبيدا، مما جعله يكره الإسلام والمسلمين.

وبالإضافة إلى وصف بعض طباع المؤلف مارك توين قامت الباحثة بعمل فصل في الدراسة تحت عنوان "الشخصية المتعددة لمارك توين"، كما أشارت الباحثة باخت من خلال رسالتها إلى رفض توين للإسلام وخصصت له فصلا كاملا.

³¹ Nancy Bakht. Mocking Mohammad: Mark Twain's Depiction of Arabs and Muslim in the Innocent Abroad. (University of South Florida, 2006). p 1.

7-2-1-2 التحولات الاقتصادية - الاجتماعية في فلسطين في القرن التاسع

عشر ومطلع القرن العشرين.

تحدث الباحث برهان الدين دلو في هذه المقالة العلمية حول واقع الاقتصاد الفلسطيني والاجتماعي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث تحدث عن التنظيمات التي قامت بها السلطات العثمانية والتي كانت تحكم البلاد في الفترة الزمنية، والقوانين التي تم إصدارها خصوصاً قانون الأراضي العثماني والذي قام بإلغاء نظام الإقطاعيات العسكرية الذي كان يعطي تبعية الأراضي والفلاحين إلى فرسان الجيش ، ومن ثم صدور نظام تسجيل الأراضي "الطابو".³²

كما ناقش الباحث كذلك بداية تشكيل النظام الرأسمالي، حين بدأ تفكك نظام الملكية الجماعي " المشاع " والانتقال إلى نظام الملكية الفردية الذي أدى إلى ظهور الإنتاج الرأسمالي في فلسطين، وكيف أدى ربط بلاد الشام بالسوق الرأسمالية وتطور العلاقات السلعية - النقدية إلى تحولات في القطاع الزراعي، تمثلت في اتساع رقعة الأراضي المستثمرة وزيادة الإنتاج، وكان هذا التطور في كمية الإنتاج ناتج عن اتساع الأراضي المزروعة وليس بسبب تطور الأدوات الحديثة.

³² برهان الدين دلو. التحولات الاقتصادية - الاجتماعية في فلسطين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (نيكوسيا: الفكر الديمقراطي، عدد 8، 1989) ص 50.

وناقش الباحث الصناعات والمشاريع الصناعية في فلسطين في القرن التاسع عشر وقام بتفصيل تلك الصناعات والمدن التي اشتهرت فيها تلك الصناعات كصناعة الصابون في مدينة نابلس.

وأخيراً ناقش الباحث التحولات في ميدان النقل والتجارة والنقل النوعية التي حدثت في هذا المجال والتي تمثلت بتعبيد الطرق وتحديث الموانئ وإنشاء خطوط السكك الحديدية، حيث أثرت هذا التطور في تطور الاقتصاد الفلسطيني وتحسنه.

8-2-1-2 الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة.

هذا المقال العلمي مشاركة للدكتور أحمد الربابعة خلال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام "فلسطين" والذي ناقش الباحث خلاله تاريخ الصناعة في فلسطين عبر التاريخ حتى العصور الحديثة، ثم قام بسرد أنواع الصناعات وتفصيلها منذ القرن التاسع عشر والتي قسمها إلى نوعين³³:

1- الصناعات التقليدية:

1-1 التقليدية العادية: مثل صناعة الأدوات الزراعية والمصنوعات

الجلدية واللباد³⁴ والبشوت³⁵ والمأكولات.

2-1 التقليدية ذات الطابع الديني: مثل التحف الشرقية والصدف، البخور

والشموع، التطريز والأشغال اليدوية.

³³ أحمد الربابعة. المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام "فلسطين" جغرافية فلسطين وحضارتها الصناعة في

فلسطين في العصور الحديثة (عمان: مطابع الجمعية العلمية الملكية، 1983). ص 162.

³⁴ اللباد: هو قماش مصنوع من الصوف الخالص أو نسبه منه، وحديثاً يمكن أن يصنع من القطن.

³⁵ البشوت: ويعرف أيضاً البشت وهي عباءة يرتديها الرجال فوق الثياب.

2- الصناعات المتطورة: مثل استخراج الزيت، صناعة الصابون، صناعة

الغزل والنسيج، وصناعة الزجاج.

كما تحدث الباحث حول عوامل النهضة الصناعية والتي تمثلت في الانفتاح على

التطور الأوروبي والاتصال مع الحضارات الغربية والتي ساهمت في الهجرة

الخارجية.

الفصل الثالث

1-3 شخصية مارك توين الساخرة وحياته.

1-1-3 نشأة مارك توين وحياة الصبى.

عاش مارك توين واسمه الحقيقي صامويل كليمنس Samuel Clemens حياة متنوعة مليئة بالأحداث جعلت منه ذلك الشخص صاحب النقد اللاذع والساخر، فقد كانت طفولته مليئة بالأحداث المتعاقبة التي صقلت شخصيته منذ نعومة أظفاره، حيث أنه وفي بداية مراحل عمره كان جسده مريضاً ضعيفاً حتى أن أهله كانوا يتوقعوا أن لا يعيش بسبب شدة المرض³⁶، وكانت عائلة مارك توين عائلة فقيرة، الأمر الذي جعل العائلة تنتقل من مكان إلى آخر أكثر من مرة طلباً للحصول على المال، فاستقرت عائلة كليمنس في بداية مراحل حياته في قرية صغيرة اسمها هانيبال في ولاية ميزوري Hannibal - Missouri على ضفاف نهر المسيسيبي، ذلك النهر الذي كان له الأثر الكبير على حياة مارك توين في المستقبل لما رسمت له من أحلام السفر وقيادة السفن التي كانت تجوب

³⁶ مارك توين، ص12.

النهر أمام ناظريه، حيث قال توين حول النهر والسفن وحلمه منذ صغره بالسفر على ظهر إحدى تلك السفن "إنكم لا تستطيعون أن تتصوروا كم هو جميل وأخاذ أن نذهب على ظهر إحدى هذه البواخر التي تختال في النهر ذهاباً وإياباً. ونحن لا نتمتع إلا بمشاهدتها من بعيد، دون أن تطأها أرجلنا".³⁷

وقد كتب توين كتاباً خاصاً بنهر المسيسيبي سمّاه "الحياة على نهر المسيسيبي"، وتعد قرية هانيبال Hannibal من القرى التي تحبذ العبيد كما هو الحال مع عائلة توين حيث إنها من العائلات التي تؤيد العبودية فكانت تملك عدداً بسيطاً من العبيد ورثتها من العائلة، الأمر الذي أثر على شخصية توين فيما بعد، حيث كان لدى العائلة عبد اسمه "العم ند" وكان هذا العبد يقوم بجمع الأولاد حول النار بعد العشاء، ويقوم بسرد القصص التي تقشع لها الأبدان، لما احتوته من حوادث دروب مقفرة ووديان عميقة وظهور الرصد والجن مما يثير في السامعين الخوف والرعدة. فقدّر لهذه الروايات أن تؤثر على تصورات وخيال الصبي سامي "مارك توين" كما يستنتج من يقرأ كتابه هكلبري فن Huckleberry Finn الذي ألفه فيما بعد.³⁸

كانت شخصية توين في صباها تعد شخصية غريبة الأطوار فمرة يكون هادئاً وحالماً ومرة أخرى طائشاً مندفعاً صاخباً، ومن كثرة غرابة أفعال توين في صباه قام مرة بتمريض نفسه بنفسه حيث بقي يحاول التقرب من صبي مريض بمرض الحصبة المعدي حتى استطاع في إحدى المرات أن ينام في سرير الصبي المريض وكانت النتيجة أن أصيب توين بالمرض، والأشد غرابة هو ما وصف توين به نفسه عندما مرض حيث قال: "لقد جرنى المرض إلى حيث لم يعد لي أي اهتمام بأي شيء، وبالعكس فقد شعرت بفقدان كلي للاهتمام، وهو

³⁷ البرت بيجلوبين، ص 18.

³⁸ المرجع نفسه، ص 6.

شعور حلو وسار، ولم استمتع بشيء في حياتي بعد ذلك أكثر من استمتاعي بالموت في ذلك الوقت"³⁹. وكان منذ نعومة أظفاره يقوم بالمبالغة وتضخيم الحقائق وهي من العوامل التي ساعدت على صقل شخصية توين الساخرة التي تنظر إلى الأشياء بطريقة سلبية ناقدة، ونستشهد هنا بمقولة والدته التي قالت فيها مخاطبة احدي جارتها "إنني ادرك معدل صدقه، فأطرح تسعين بالمئة، وما يتبقى فهو من الذهب الخالص"⁴⁰.

وقرية هانيبال Hannibal على الرغم من وداعة وجمال المكان كما وصفها توين في مؤلفاته كانت تحوي العديد من أشكال العنف والقتل والجرائم التي كان يشاهدها توين وهو طفل صغير مما أثرت في نفسيته وساهمت بتكوين الشخصية الخاصة بمارك توين، "فقد شاهد الرجال يقتلون ويتشاجرون على أرصفة الميناء والزنوج يوثقون بالسلاسل كالحيونات تمهيدا لنقلهم إلى أسواق النخاسة الأوفر ربحاً في الجنوب، وكان يمشي في أثناء نومه وتنتابه رؤى مفزعة، وظل دائماً يتذكرها ويتذكر الأساليب الفظة، والكلام المرعب، والفرع"⁴¹.

ومما أثر على مخيلة وحياة توين في صباه حادثة السكر المتشرد الذي احترق في سجن القرية، فقد ظل يحلم به لفترة طويلة بأحلام مخيفة حيث يقول توين: " كنت أرى وجهه المتضرع كما رأيته في اليقظة، يضغط على قضبان النافذة،

³⁹ مارك توين، ص 49.

⁴⁰ البرت بيجلوبين، ص 11.

⁴¹ لويس ليري، ص 20.

ونار الجحيم الحمراء تشتعل وراءه، ذلك الوجه الذي كان يبدو وكأنه يقول لي،
لو أنك لم تعطني ذلك الثقاب لما حدث هذا...، إنك مسؤول عن وفاتي»⁴².

وكانت وفاة والده من أبرز العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية توين الساخرة والناقدة وهو في سن مبكرة، حيث توفي والده وهو لم يتجاوز الثانية عشر من عمره، الأمر الذي أثر بشكل مباشر عليه، وقد ذهب احد باحثي سيرة توين إلى القول بأنه قد شاهد مصادفة تشريح جثة والده بعد موته،⁴³ وعلى وضع العائلة التي لم تكن ميسورة الحال ولا تملك من المال ما يساعدها على مواصلة حياتها بشكل رغيد مما استدعى من العائلة جميعا أن تعمل لكي تسد حاجتها من المال، وهنا بدأت رحلة توين المهنية، حيث أرسل توين للعمل في صحيفة ليتعلم فيها الطباعة التي كانت أولى خطوات توين لاكتشافه كمؤلف ناقد وساخر، ومع تقدم توين في العمل في المطبعة وإتقانه لها بدأ الطموح الذي حلم به بمراودته من جديد وهو السفر ومشاهدة أجزاء كبيرة من العالم، وكانت لحادثة التقاط ورقة قذفها الرياح إليه من أحد كتب التاريخ التي تتحدث عن جان دارك⁴⁴ Jeanne d'Arc⁴⁵ الأثر البالغ حيث قام بالمطالعة والتنقيب عن الكتاب والمواضيع التي فيه، مما سمح له بأن يكون قارئاً متشوقاً إلى الاستكشاف والمعرفة، وبقي توين يتقدم بمسيرته المهنية بمكانة وصلابة حتى قال أخاه أوريون Orion بعد أن قام بفتح مطبعة في قرية هانيبال Hannibal وتوظيف أخاه توين فيها: "

⁴² مارك توين، ص 27.

⁴³ فرانك بلدنزا، ص 13.

⁴⁴ البرت بيجلوبين، ص 33.

⁴⁵ جان دارك الملقبة بعذراء أورليان، ولدت لعائلة من الفلاحين في الوسط الشرقي من فرنسا عام 1412 وتوفيت

عام 1431، وتعدّ بطلة قومية فرنسية وقديسة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

أخطأت كثيرا لأنني لم استطع أن أميز مقدره سام "توين" في الكتابة، ولو فعلت لسحقت جميع منافسي.⁴⁶

استمرت كتابات توين بالانتشار أكثر وأكثر حتى باتت منشوراته تنشر في صحف كبرى في فيلادلفيا، ولكن الحظ لم يحالف اوريون Orion حيث باتت الصحيفة تتحدر تدريجيا من سيء إلى أسوأ حتى أغلقت بالكامل، وهنا كانت اللحظة التي طال انتظارها من قبل توين، وهي تحقيق حلمه القديم بالسفر، حيث كانت فكرة السفر تراوده منذ صغره مما دفعة إلى القول من شدة إعجابه بفكرة السفر عن أحد الصبية الذين كانوا معه في قرية هانيبال Hannibal "إننا كنا نحسده لأنه كان قد سافر." كما قال حول ركوب الصبي للسفن والسفر فيها: "كنا على استعداد لبيع أرواحنا إلى الشيطان مقابل حصولنا على هذا الامتياز، أن نقايط مركزه.⁴⁷، وعندما شارف توين على عامه الثامن عشر، ذهب وطلب السماح من والدته أن تسمح له بالذهاب لزيارة أخته في سانت لويس Saint Louis⁴⁸ وللعمل هناك إن وجد له عملاً مناسباً، فما كان من والدته إلا السماح له بالذهاب وحصلت على وعده على الكتاب المقدس أن لا يقوم بأي عمل مشين يغضب الله فقد كانت عائلة توين عائلة متدينة متمسكة بالدين.

هنا بدأت رحلة توين لاستكشاف العالم وإضفاء الشغف الذي كان دائما يجول في خاطره من تنقل بين الولايات وحتى السفر للخارج، حيث لم يكن هدف توين الاستقرار في المدينة الجديدة وإنما كان هدفه السفر إلى مدينة نيويورك، وفعلا استطاع توين السفر إلى مدينة نيويورك التي سحر بجمالها عند أول زيارة

⁴⁶ البرت بيجلوبين، ص 35.

⁴⁷ مارك توين، ص 45 .

⁴⁸ تقع مدينة سانت لويس في ولاية ميزوري الأمريكية وتعتبر من المدن الرئيسة للولايات المتحدة الأمريكية،

المصدر الموقع الرسمي لمدينة سانت لويس <https://stlouis-mo.gov>

لها. فكتب فيها كلمات وصفها بأجمل العبارات والتي لم تكن لتخرج من صبي لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره.

لقد ساهمت العوامل التي مرّ بها كافة خلال مراحل صباه في صقل شخصيته الساخرة والتي كانت محبوبة عند الكثير من الناس لما فيها من طابع فكاهي ساخر ناقد، وقد وصلت سخرية توين حتى من الإنسان نفسه، حين وصفه بأنه "متحف أمراض وبؤرة دنس، يبدأ قذارة وينتهي رائحة كريهة، وليس هناك من سبب واضح لوجوده إلا تغذية الجراثيم وإنعاشها"⁴⁹، كما كان لتجربة الحياة التي خاضها توين في مراحل صباه أثرها البالغ على مؤلفاته فيما بعد، فقد كتب العديد من القصص والروايات التي كانت تجسد مراحل طفولته وصباه مثل "توم سوير" Tom Sawyer و"هكلبري فن" Huckleberry Finn والتي هي عبارة عن مغامرات توين في صباه، وهنا جعلت أحاديثه الناعمة ومقولاته المبطنّة الهوائية ومبالغاته المثيرة للسخط منه رجل منبر محبوب ومحدثاً أثيراً لجلسات الاسترخاء بعد العشاء.⁵⁰

وعلى الرغم من أن توين أبدى العديد من المواهب في فن الكتابة والرواية والسخرية والفكاهة إلا أنه كان أيضاً شخصية مهملة لا تكثر إلى الكثير من الأشياء التي يكثر لها الأناص الأخرين. وخير مثال على ذلك الإهمال، عندما أخذته مغامراته للعمل في توريد الأخشاب قرب بحيرة تاهو Tahoe البحيرة التي وصفها توين في كتابه "أبرياء في الخارج" بمقارنة بحيرة الحولة و بحيرة طبريا حيث صرفه إهماله عن إخماد نار مخيمه، فامتدت ألسنة اللهب لتلتهم معظم المخيم، وفي حادثة

⁴⁹ لويس ليري، ص 9.

⁵⁰ المرجع نفسه، ص 15.

أخرى حيث استثمر النقود في مناجم الفضة، وأصبح من أصحاب الملايين عندما اكتشف أن المنجم وافر الثروات ولكنه فقده نتيجة إهماله⁵¹.

3-1-2 الدوافع وراء رحلة توين إلى أوروبا والأراضي المقدسة.

كان في حياة مارك توين العديد من الدوافع للقيام برحلته الطويلة إلى العالم الخارجي "أوروبا والأراضي المقدسة"، ولم تكن بعض الدوافع خاصة به بل كان هناك دوافع مشتركة مع العديد من السياح الأمريكيين الذين أدخلوا المجتمع الأمريكي في منعطف جديد غير معالم السياحة الأمريكية إلى العالم الخارجي وأهم هذه العوامل:

3-1-2-1 الحرب الأهلية ونتائجها:

أحدثت الحرب الأهلية التي وقعت بين الشمال والجنوب الأمريكي والتي انتصر فيها الشمال على الجنوب، منعطفا جديدا في تاريخ الشعب الأمريكي حيث نتج عن هذه الحرب بروز عوامل عدة رئيسة أدت فيما بعد إلى الإقبال الشديد لسفر السياح الأمريكيين إلى الخارج، وهذه العوامل هي⁵²:

1- الثروات المزدهرة لرجال الأعمال القادمون من الشمال خلال العصر الذهبي.

⁵¹ لويس ليري، ص 29.

⁵² Jeffrey Steinbrink. p. 279

2- التحسن الهائل في النقل عبر المحيط الأطلسي حيث ساهم هذا التطور في اختزال الوقت وعدد الأيام التي كانت تستغرقها الرحلة إلى أوروبا والشرق.

3- ظهور طبقة وسطى كبيرة ومزدهرة لها إحساس مرهف وشغف للسفر وقضاء المغامرات والتجوال في أرجاء أوروبا والشرق.

4- بالإضافة إلى أن ما كانت تنشره الصحف من مقالات عن سحر دول الشرق قد أثارت اهتمام القراء بالسفر.

شجعت هذه العوامل الكثير من الأشخاص في المجتمع الأمريكي على السفر والتنقل ومشاهدة العالم الخارجي بكل غموضه والأفكار السائدة حوله، ومع الازدهار الحاصل داخل المجتمع الأمريكي والذي كان من أهم العوامل لسفر الأشخاص، حيث أصبحت تكلفة السفر رخيصة مقارنة مع دخل الفرد داخل المجتمع الأمريكي.

ولم تكن تلك العوامل هي الوحيدة التي ظهرت بعد الحرب الأهلية الأمريكية بل ظهر هناك عامل آخر ساهم في تعزيز السياحة الخارجية للشعب الأمريكي وهو تأثير الموقف الأوروبي بأمريكا، حيث ساهم هذا العامل على إعطاء الدافع النفسي للأمريكيين للسفر خصوصا بعد استقرار وازدهار بلادهم، ويقول جون فورني John Forney⁵³

“كان الجهل بالولايات المتحدة أو اللامبالاة بها هو الشعور السائد في أوروبا قبل أن فاجأ نضالنا الناس إحساس قوي بوجودنا وأيقظ بينهم فضولا لفهم نظامنا في

⁵³ رجل سياسة وكاتب من فيلادلفيا، تزامنت رحلته مع رحلة مارك توين إلى أوروبا والأراضي المقدسة، له كتاب صادر عام 1867 تحت عنوان رسائل من أوروبا.

الحكم، والإحساس الدائم بالتقدير الذي نحظى به عموماً في الوقت الحاضر
يضيف طعماً نادراً إلى التجربة الأمريكية في أوروبا.⁵⁴

ومع تعاضم ثقة الشعب الأمريكي ببلاده وتعاضم تقدير المجتمع الدولي لها
بما فيه الدول الأوروبية، ظهر لدى أصحاب الطبقة الوسطى من المجتمع
الأمريكي عامل جديد دفع بهم للقيام برحلات إلى أوروبا والأراضي المقدسة
وهو الغرور والازدراء الساخر، وهذه الصفة من صفات شخصية توين، حيث
ساهم هذا العامل في تعزيز الطبيعة الساخرة لدى توين، حيث كان غروره
يتجسد في العديد من العبارات الساخرة التي استخدمها في كتابه "أبرياء في
الخارج" لإظهار عظمة أمريكا وسخريته من العالم الخارجي أو العالم القديم كما
يسميه بعض الباحثين "حتى الآن فإن أجمل النساء التي رأيناها في فرنسا ولدت
وتربت في أمريكا".⁵⁵ وأيضاً كانت عبارات توين تدل كثيراً على عظمة وتمجيد
أمريكا حيث كان كثيراً ما يقارن المناطق التي كان يزورها بأمريكا حتى لو
كانت تلك المناطق ذات طابع ديني وتاريخي إلا أنها لم تسلم من سخرية
واستهزاء مارك توين. ومن أفضل الأمثلة على مقارنة المناطق التاريخية ذات
الطابع الديني بأمريكا وجمالها هو عندما قارن بين بحيريه طبريا مع بحيرة تاهو
Tahoe الأمريكية حيث قال:

"بحيرة طبريا ليست كبيرة المساحة مثل بحيرة تاهو Tahoe حيث تصل مساحتها
إلى حوالي ثلثي مساحة بحيرة تاهو، وعند الحديث عن الجمال، لا يمكن مقارنة
جمال هذه البحيرة مع جمال بحيرة تاهو، مياهها القاتمة لا تضاهي الإشراق

⁵⁴ Jeffrey Steinbrink, p.281

⁵⁵ Mark Twain, p. 108

الشفاف لبحيرة تاهو، وهذه التلال الصفراء الجرداء المنخفضة المكونة من الصخور والرمال لا تضاهي روعة القمم الكبرى التي تحيط ببحيرة تاهو والمغطاة بأشجار الصنوبر الفخمة التي يبدو أنها تصغر كلما نمت حتى يخيل للناظر أنها مجرد حشائش وشجيرات تعانق الثلوج الأبدية، تنعم بحيرة تاهو بالصمت والعزلة، كما يعم الصمت والعزلة فوق طيرياً أيضاً، ولكن العزلة حول بحيرة تاهو لها رونق وروعة بينما العزلة حول طيرياً كنيية ومثيرة للاشمئزاز⁵⁶.

تلك المقارنة التي قدمها توين في كتابه "أبرياء في الخارج" والسخرية حتى من المناطق الدينية لم تكن الوحيدة، بل على العكس فإن الناظر في كتابه والمتمعن فيه يجد لدى توين العديد من عبارات السخرية والازدراء حول كثير من المواقف والأماكن المقدسة وغير المقدسة، والتي أتاها في الأساس كحاج، ولكن غريزته الساخرة والناقدة لم تتح له رؤية الأشياء من منظور ديني بل من منظوره الشخصي الساخر والمقارن مع بلاده أمريكا، حيث قال جيفري شتاينبرنك Jeffrey Steinbrink عن كتاب توين: "إن إنجاز هذا الكتاب الكبير لا يقع فيما أخبرنا به عن البلاد التي زارها الأبرياء في الخارج ولكن فيما يروييه عن الأرض التي عادوا إليها"⁵⁷.

وتحدث فورست روبنسون Forrest Robinson في مقاله العلمي أنماط الوعي في الأبرياء في الخارج⁵⁸ عن تلك المقارنات التي قام بها مارك توين في كتابه، حيث كان كثير المقارنة والتناقض للأماكن التي كان يزورها مع بلده أمريكا وكثيراً ما يميل إلى السخرية منها كما حدث في وصفه لمدينة البندقية فتارة يصفها بأجمل الأوصاف وتارة يسخر منها ويصفها بأوصاف قبيحة.

⁵⁶ Mark Twain, p. 388

⁵⁷ Jeffrey Steinbrink, p.284

⁵⁸ Forrest Robinson. pp. 46-49

3-1-2-2 المراسل الجوال:

لم يكن من طباع مارك توين التواجد في نفس المكان لفته طويلا، بل كان يحب التجوال منذ بداية أعماله، فقد تنقل في العديد من المدن والأماكن وهو في مرحلة صباه حيث لم يكمل مسيرته التعليمية، حين ترك المدرسة بعد وفاة والده بسبب الأوضاع المالية الصعبة التي كانت تعيشها العائلة، وبدأ مشواره العملي كمتدرب في إحدى الصحف المحلية، ولكن سرعان ما قام الفتى الشاب بالتنقل ما بين العديد من المطابع في هانيبال Hannibal ثم سانت لويس Saint Louis ونيويورك New York وفيلادلفيا Philadelphia⁵⁹ وجميعها مدن أمريكية، ولم يكن عمله في الصحافة والطباعة داخل جدران المؤسسة يكفي طموح الكاتب الشاب مارك توين، فلقد كان لديه حلم وطموح قديم مع نهر المسيسيبي، ذلك النهر الذي ترعرع على ضفافه وقضى أيام طفولته وهو يتأمل السفن البخارية والتجارية تعبر المكان، وكان كثيرا ما يتسلل للسفن للعب واللهو فيها مع أصدقاء طفولته، ومع شغف توين في التجوال وحبه للسفن والزوارق جاءتته الفرصة التي كان ينتظرها منذ زمن وهي تعلم قيادة السفن على يد الربان هوريس بكسبي Horace Bixby⁶⁰، والتي أدت عليه المال الوفير فيما بعد حيث حصل على إجازة القيادة للسفن في ربيع عام 1859 وأصبح يجوب نهر المسيسيبي⁶¹.

وعلى الرغم من أن قيادة السفن كانت تدر عليه من الأموال ما جعله من المقترنين، وبالرغم من أنها كانت من أحلام صباه، لكن توين الكاتب الساخر لم يكن ليتترك الكتابة، فقد مارس هذه الهواية بين الحين والآخر وكلمنا سنحت له

⁵⁹ فرانك بلدنزا، ص 13

⁶⁰ المرجع نفسه، ص 14

⁶¹ لويس ليري، ص 26

الفرصة بذلك، ولم تطل مدة توين في قيادة السفن، حيث نشبت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ولم تعد السفن قادرة على عبور نهر المسيسيبي.

لقد تجول مارك توين في العديد من المدن خلال الحرب الأهلية وعمل في كثير من الأعمال التي كانت تمر معه مرور الكرام ولسد حاجات العيش فقط، ولكن سرعان ما وجد توين العمل الذي يناسبه إلى أقصى حد، حيث بدأ توين في دمج شوق التجوال وشغف الكتابة الإخبارية والفكاهية في آن واحد، فقد كان يقوم بالتجوال كما يحب ويحصل على المال ونفقاته بصفته مراسل لتلك الصحف التي يرأسها، ففي العام 1866 أرسله اتحاد سكرامنتو⁶² Sacramento في رحلة قصيرة إلى جزر الهاواي التي تقع في المحيط الهادي والتي كانت تدعى "جزر ساندويش" في تلك الأيام بصفته مراسل جوال⁶³، وأيضاً في كانون الأول من عام 1866 وقع توين عقداً مع صحيفة "ديلي ألتا كاليفورنيا" Daily Alta California وهي من أبرز صحف الغرب بوصفه مراسلها المتجول الذي لا يحصره مكان أو زمان أو وجهه وليطوف أركان المعمورة باعثاً برسائله حيثما ذهب⁶⁴.

وكان من توقيع تلك العقود قيام مارك توين برحلته الشهيرة إلى أوروبا والأراضي المقدسة، تلك الرحلة التي كان متحمساً جداً للقيام بها حيث قال في رسالة بعثها إلى أمه وهو ينتظر دخول السفينة "كويكر سيتي" Quaker city والتي ترينا مدى اندفاع توين وحماسه للقيام بتلك الرحلة: "كل الذي اعرفه أو أشعره، هو أنني متحمساً بشدة إلى التحرك، التحرك، التحرك، ست مرات متتالية"⁶⁵،

⁶² اتحاد سكرامنتو: صحيفة تصدر يومياً إنشأت عام 1851 في مدينة سكرامنتو بولاية كاليفورنيا الأمريكية وهي

تعتبر أقدم صحيفة في غرب نهر المسيسيبي قبل أن تغلق أبوابها عام 1994

⁶³ فرانك بلدنزا، ص 16

⁶⁴ لويس ليري، ص 34

⁶⁵ Alan Gribben & Jeffry Melton. Mark Twain On The Move: A Travel Reader (Alabama: The University of Alabama Press, 2009) p. 2

حيث نجد مدى حماسه في تكرار كلمة التحرك ست مرات متتالية، والتي قام خلالها بمراسلة دور الصحف خلال رحلته برسائل عدة تم تنقيحها فيما بعد لتصبح كتابه الشهير "الأبرياء في الخارج"⁶⁶.

3-1-3 خط سير رحلة مارك توين في فلسطين.

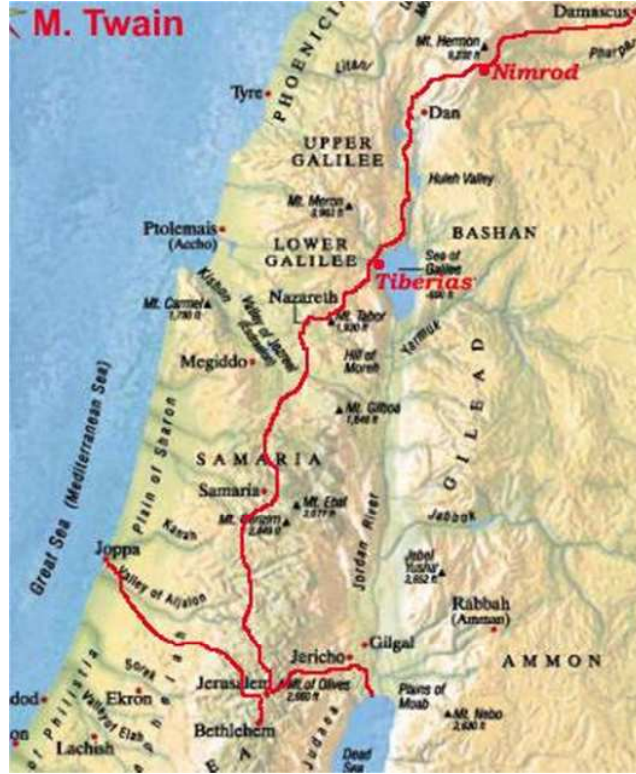
للتعرف على الأماكن التي زارها توين خلال رحلته في فلسطين فإننا سنقوم بتعداد الأماكن التي زارها ومر منها بناء على المعلومات التي قام توين بذكرها في كتابه أبرياء في الخارج.

دخل توين والحجاج فلسطين من شمالها قادمين من دمشق حيث عبروها من أحد منابع نهر الأردن "دان"، ومن ثم توجه الحجاج إلى بحيرة طبريا، وتابع الحجاج رحلتهم مروراً بالمجدل ومن ثم مدينة طبريا، وبعد استراحتهم هناك غادروا إلى الناصرة مروراً بجبل الطور، ومن ثم توجهوا إلى مرج ابن عامر وعين جالوت مروراً بجنين إلى السامرة ونابلس، وتابع الحجاج رحلته إلى القدس مروراً بالبيرة فالرام حتى وصلوا القدس.

وبعد قيام الحجاج بزيارة الأماكن المقدسة في القدس قاموا برحلة سريعة إلى أريحا ونهر الأردن والبحر الميت، ثم توجهوا إلى بيت لحم وعادوا إلى القدس.

⁶⁶ جيرى ألن. مغامرات مارك توين. ترجمة مصطفى حبيب (القاهرة: دار مصر للطباعة، 1954) ص 175-177

وفي نهاية رحلة الحج وبعد مغادرتهم القدس متجهين إلى يافا مروا من
الرملة ومن ثم وصلوا إلى يافا التي غادروها عبر ميناءها.



الفصل الرابع:

4-1 الواقع الحضاري للأراضي المقدسة خلال النصف الثاني من القرن التاسع

عشر.

القارئ لكتاب مارك توين "الأبرياء في الخارج" يدرك بشكل يقين أن توين ومن خلال زيارته لفلسطين والأراضي المقدسة قد سلك الطريق المعتمد للقادمين من دمشق إلى القدس، حيث مرّ خلال رحلته بالعديد من القرى والمدن الفلسطينية، ولكن إذا أمعنا التركيز في المناطق التي زارها وذكرها في كتابه نجد أنه لم يتطرق لوصف المدن الرئيسية لفلسطين، بل في بعض الحالات كان يكتفي بذكر بعض تلك المدن بعبارات بسيطة لا ترتقى لجمال وأهمية تلك المدن، في المقابل نجد أنه قد استرسل في وصف الأماكن التي زارها بأسوأ وصف وتصوير ممكن أن يعطى لمدينة أو قرية.

وهنا ينبغي أن نقف على حقيقة الواقع الحضاري للمناطق التي زارها توين خلال زيارته لفلسطين، كما ونقف على حقيقة الواقع الحضاري لفلسطين والمدن الرئيسية التي لم يزرها ومدى أهميتها في تلك الحقبة التاريخية، حيث كانت التقسيمات الإدارية لفلسطين تتبع ولاية دمشق حتى عام 1887 م وكانت التقسيمات على النحو التالي:⁶⁷

1- سنجق القدس: وشمل أفضية القدس ويافا وغزة والخليل وبيت لحم وبئر السبع.

2- سنجق عكا: وشمل أفضية عكا وحيفا وصفد والناصره وطبريا.

3- سنجق نابلس: وشمل أفضية نابلس وجنين وطولكرم.

4-1-1 الواقع الاقتصادي.

تبرز الأهمية الاقتصادية لفلسطين في أنها طريق تجاري تمر منه البضائع الشرق أسيوية ومنتجاته إلى الغرب الأوروبي، وهي بذلك تعتبر منفذاً للتجارة قديماً وحديثاً⁶⁸.

وشهدت فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطورا اقتصاديا ملحوظا، بالرغم من حالة الركود والتأخر التي كانت تمر بها فلسطين في أواخر عهد الدولة العثمانية، والتي كانت نتيجة عدة عوامل مختلفة هي⁶⁹:

⁶⁷ أحمد الدبش ومؤلفون. موجز تاريخ فلسطين من أقدم العصور حتى مشارف القرن الحادي والعشرين (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2010) ص 649.

⁶⁸ محمد سلامة النحال. جغرافية فلسطين دراسة طبيعية اقتصادية سياسية (بيروت: دار العلم للملايين، 1966) ص 11.

⁶⁹ أحمد الدبش ومؤلفون، ص 650.

1- تفشي الفساد في أجهزة ومؤسسات الدولة العثمانية.

2- تدهور وانهيار اقتصاد الدولة.

3- تغلغل التأثيرات الفكرية الغربية في البلاد، في كلا الجانبين، العربي

والتركي وتشجيع هذه التأثيرات لنمو الأفكار القومية.

4- انتشار المدارس التبشيرية، وارتباطها بالدولة الغربية.

5- انسام الدولة العثمانية بالصبغة المركزية.

ولكن هذه العوامل أدت إلى حركة من التنظيمات ساهمت بربط بلاد الشام بالسوق الرأسمالية العالمية، وتطور العلاقة السلعية النقدية مما جعلها تفسح المجال أما ازدهار القطاع الزراعي وتكيفه مع السوق الخارجية الإقليمية والدولية⁷⁰، وكانت الأسواق الفلسطينية تزخر بالعديد من المنتجات والصناعات والحرف التي سنأتي على ذكرها لاحقاً حسب المدينة، وامتازت الصناعة في فلسطين بالنمط الصناعي الثنائي، صناعة تقليدية والتي كانت في الغالب تصنع في البيوت وتفنقر للإنتاج الكثيف وصناعة حديثة متقدمة استخدم فيها الآلات امتازت بكثرة ووفرة إنتاجها⁷¹، وكانت فلسطين تعتبر من البلاد المصدرة للمحاصيل الزراعية، حيث كانت صادراتها تصل إلى العديد من دول العالم الأوروبية والعربية وحتى الأمريكية، وقد كان للمدن الفلسطينية طبيعتها الاقتصادية الخاصة، فكل مدينة كانت تشتهر باقتصاد تجاري خاص فيها ولكل منها ميزتها التجارية ومنتجاتها الخاصة التي تشتهر بها.

⁷⁰ برهان الدين دلو، ص 49.

⁷¹ أحمد الربابعة، ص 162-163.

وللحديث عن الصادرات التجارية في فلسطين فقد وجد فيها ثلاث موانئ بحرية يتم من خلالها تصدير واستيراد المنتجات والمحاصيل الزراعية والبضائع للعالم الخارجي، وهذه الموانئ هي ميناء حيفا و ميناء عكا والتي كان يتم تصدير منتجات فلسطين الشمالية من خلالهما والتي كانت ضمن نطاق سنجق عكا، وميناء يافا الذي كان يتم منه تصدير منتجات فلسطين الجنوبية⁷² والتي كانت ضمن نطاق سنجق نابلس وسنجق القدس، ومن أهم ما كان يتم تصديره عبر موانئ يافا وحيفا وعكا "القمح والشعير والذرة والسسم وزيت الزيتون والصابون والبرتقال والفواكه"⁷³، ومن الأمثلة على الازدهار الاقتصادي لفلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع اتساع زراعة القطن حيث تضاعفت كمية إنتاج القطن ما بين العام 1862 والعام 1864 إلى عشرة أضعاف⁷⁴، كما توسعت زراعة الحمضيات وارتبطت بشكل كامل بالسوق العالمية حيث بدأ التصدير المنتظم للبرتقال عن طريق ميناء يافا، حيث تم إنشاء 420 بيارة برتقال في المنطقة المحيطة بيافا بحلول العام 1873⁷⁵، وازدهرت أيضاً زراعة التوت في سنجق عكا في نهاية القرن التاسع عشر حيث بلغت كمية الأشجار المزروعة 120,000 شجرة توت⁷⁶.

⁷² الكزاندر شولش. تحولات جذرية في فلسطين 1856-1882 دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي

السياسي. ترجمة د. كامل جميل العسلي (عمان: دار الهدى، 1990) ص96

⁷³ المرجع نفسه، ص 97.

⁷⁴ برهان الدين دلو، ص 54.

⁷⁵ المرجع نفسه، ص 55.

⁷⁶ وجيه كوثراني. بلاد الشام السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين قراءة في الوثائق

(بيروت: معهد الإنماء العربي، 1980) ص107.

كما ازدهرت المدن الفلسطينية بالمنتجات الصناعية خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر والتي تمثلت بالصناعات التقليدية والمعاصرة.

1-1-1-4-1-1-1-4 الواقع الحضاري والاقتصادي للمدن الفلسطينية

تميزت المدن الفلسطينية بواقع حضاري واقتصاد تجاري متطور إلى حد ما، حيث كان للعديد من هذه المدن اقتصاد خاص بها تتميز به عن غيرها من المدن الأخرى، ولتبيان الواقع الاقتصادي للمدن الفلسطينية فإننا سنقوم بتوضيح كل مدينة من المدن الرئيسية، حيث سنقوم بتسلسل المدن وفق التقسيمات الإدارية لفلسطين في تلك الفترة الزمنية والتي ذكرناها سابقاً.

1-1-1-1-4-1-1-1-4 سنجق القدس:

يشمل هذا السنجق أفضية القدس ويافا وغزة وبيت لحم والخليل وبئر السبع، ولكننا سنقوم بتبيان الواقع الاقتصادي لمدينة القدس ويافا وبيت لحم والخليل لأنها شملت رحلة توبين إلى فلسطين.

1-1-1-1-1-1-1-4 مدينة القدس:

القدس مدينة السلام والديانات السماوية، وهي بذلك كانت موقع جذب لجميع الديانات للحجاج أو لزيارة الأماكن المقدسة من أصحاب الديانات كافة، وهي معروفة منذ أقدم عصور التاريخ، ولم يغفر تاريخ المدينة الذي يرجع إلى

أكثر من 4000 عام قبل الميلاد⁷⁷ وقدسيتها أماكنها المقدسة من قيام توين بازدرائها حين قال بعد دخوله لها "القدس حزينة وكئيبة ولا حياة فيها، ولا أريد العيش فيها"⁷⁸.

أخذت المدينة طابعا اقتصاديا خاصاً، حيث كان يتم تحويل العديد من المنتجات الفلسطينية إلى القدس، وذلك بهدف التجارة داخل المدينة مع السياح والسكان الأجانب والحجاج القادمون لها من شتى بقاع الأرض، وشهدت المدينة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتساعاً في البناء وال عمران حيث بدأ البناء خارج أسوار القدس والتوسع غرب المدينة وشرقها⁷⁹، ومع هذا التوسع بدأ تشكل سوق تجاري مركزي في القدس، الذي جذب إليه التجار والباعة من جميع الأنحاء.

اشتهرت المدينة بصناعة أدوات الزينة من خشب الزيتون والتي كانوا يحفرون عليها أشكالاً متنوعة بإتقان عجيب، كذلك اشتهر المقدسيون في جلد سعف النخيل وفي الصور النباتية التي تصور سهول فلسطين وجبالها ومدنها والأماكن المقدسة⁸⁰، كما اشتهرت المدينة بصناعة الشمع حيث كان يباع منه كميات كبيرة في الأعياد كما كانت تلك الشموع مرغوبة لدى الأجانب والسياح⁸¹.

⁷⁷ محمد سلامة النحال، ص 147.

⁷⁸ Mark Twain, p 433.

⁷⁹ الكزاندر شولش، ص 150.

⁸⁰ أحمد الربايعة، ص 168.

⁸¹ المرجع نفسه، ص 169.

واشتهرت القدس بصناعة الصابون في تلك الفترة حيث كانت المدينة تحوي العديد من أشجار الزيتون، ولكنها تقلصت عام 1876 بسبب اكتساح المدينة اسراب من الجراد أتت على قسم كبير من أشجار الزيتون ومن ثم أتى الأتراك على ما تبقى من تلك الأشجار حيث استعملوها وقودا للتدفئة ولتسيير القطارات⁸²، ووجد في المدينة كذلك بعض الصناعات اليدوية البسيطة ومواد الاستهلاك المحلي كالصناعات الغذائية والنسجية والجلدية والتحف⁸³.

من مظاهر تطور الواقع الاقتصادي في مدينة القدس وجود طوائف حرفية "تقابات"، حيث كان يوجد في المدينة حوالي خمسين طائفة "السقاعين، الحمالين، المزينين، الحمامين، الدالين..." ترعى شؤون بعضها البعض وتساعدهم في الأزمات لضمان استمراريتها⁸⁴.

ونظرا لأهمية المدينة المقدسة فقد ساهم ربط المدينة بخطوط اتصال مباشرة مع إسطنبول، وإنشاء مجلس بلدي عام 1864، إلى تحسين الوضع الاقتصادي فيها⁸⁵، كما ساهم إنشاء خط سكة الحديد عام 1892 والذي يصل

⁸² أحمد الربابعة، ص 172.

⁸³ محمد محاسنة. وآخرون. تاريخ مدينة القدس (عمان: دار حنين للنشر والتوزيع، 2003) ص 210.

⁸⁴ المرجع نفسه، ص 211.

⁸⁵ محمد صالحية. مدينة القدس السكان والأرض (العرب واليهود) 1858 - 1948 (بيروت: مركز الزيتونة

للدراسات والاستشارات، 2009) ص 17.

القدس بمدينة يافا بنقل البضائع والمسافرين والزوار من وإلى مدينة القدس في زيادة التبادل التجاري والاقتصادي للمدينة⁸⁶.

وقد وصف المدينة رحالة هندي بالتالي:

"المنطقة الجديدة من المدينة جميلة وفي غاية البهاء: الشوارع واسعة فسيحة، والمباني على الجانبين مع وجود القصور والبيوت الكبيرة بكثرة، والمنطقة عموماً مزينة بالحدائق الخضراء الواسعة، ولغة المدينة والأزياء العامة العربية ... ومناخها جيد معتدلاً، وقد وصلت إليها في بداية شهر أغسطس، فكان النهار معتدلاً وفي الليل برودة يمكن تحملها، والفواكه كثيرة وهي لذیذة وذات حلاوة"⁸⁷.

4-1-1-1-2 مدينة يافا:

كما أشرنا سابقاً بأن مدينة يافا هي ميناء أراضي فلسطين الجنوبية "سنجق القدس وسنجق نابلس"، وعليه فإن هذه المدينة كانت تمتاز باقتصاد متمامي وجيد، نتيجة لوجود الميناء البحري فيها والذي كان يتم استقبال السفن التجارية بشتى أنواعها داخل هذا الميناء حيث شهد هذا الميناء العديد من مراحل التطور والتوسع نتيجة لزيادة الواردات والصادرات منه، ولتلخيص مدى أهمية ميناء يافا البحري فإن الجدول التالي يوضح عدد السفن القادمة إلى ميناء يافا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحجم الواردات إليها:

⁸⁶ جوني منصور. الخط الحديدي الحجازي تاريخ وتطور قطار درعا - حيفا (القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2008) ص 66.

⁸⁷ شبلي النعماني، رحالة هندي في بلاد الشرق العربي (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003) ص 165.

جدول رقم 4.1

عدد السفن القادم إلى يافا (الأرقام بين الأقواس الحمولة بالأطنان)⁸⁸

السفن الساحلية	السفن البخارية	السفن الشراعية	السنة
(5135) 97	(33600) 72	(6110) 39	1856
(15000) 200	144	(4111) 21	1860
(23812) 1215	(149422) 168	(18574) 76	1875
(29554) 941	(211029) 249	(3386) 30	1880

وتحيط بالمدينة من جهاتها الثلاث بساتين البرتقال، ومما لا شك فيه أن يافا أشهر مدينة بتصدير البرتقال والحمضيات بكافة أنواعها، وبرتقال يافا معروف في أغلب الأسواق الأوروبية⁸⁹، فطبقاً لكلام القنصل البريطاني بأنه كان يعمل حوالي 5000 شخص في قطف وتعبئة البرتقال خلال موسم الحصاد عام 1879⁹⁰، وكان للنقل البري ما بين مدينة يافا وباقي المدن الفلسطينية خصوصاً القدس الأثر الاقتصادي الكبير، حيث مع ازدهار التبادل التجاري والاقتصاد الفلسطيني وزيادة الأعداد القادمة لفلسطين زادت العائدات والدخل السنوي من تجارة النقل.

⁸⁸ الكزاندر شولش، ص 165.

⁸⁹ محمد سلامة النحال، ص 117.

⁹⁰ الكزاندر شولش، ص 172.

واشتهرت المدينة بصناعة الطحين، حيث كان في المدينة عشرة مطاحن آلية لطحن الحبوب وتحويلها إلى طحين⁹¹، وامتازت المدينة بوجود معملين لإنتاج الأدوات والآلات المعدنية من أصل ثلاث مصانع في كل فلسطين⁹²، كما كان في المدينة عدة مصانع لصناعة الصابون كانت تصدر من موانئها إلى مصر⁹³.

وتمتاز مدينة يافا بشوارعها الطويلة المنظمة، ومبانيها الضخمة، ومحلاتها التجارية⁹⁴، وقد وصفها المستشرق أفرايم نوروف خلال رحلته إلى الشرق بالتالي:

"تنبسط بشكل جميل بين البساتين الكثيفة على هضبة في ساحل البحر. يملأ أريج أشجار البرتقال والنارنج الأجواء المحيطة، ويزحف إلى أماكن بعيدة. وفي جانبي الطريق أحراج كثيفة في ظلال الأشجار البديعة، وهي تمتاز بأشجار الغار والآس ودالية الكروم الملفوفة وهي تغوي وتغري الأنظار. والأحواض المرمرية المزينة بكتابات من القرآن ترحب بالمسافر المتعب عند أول دخوله إلى المدينة"⁹⁵.

⁹¹ برهان الدين دلو، ص 59.

⁹² المرجع نفسه، ص 62.

⁹³ أحمد الربابعة، ص 173.

⁹⁴ محمد سلامة النحال، ص 117

⁹⁵ ب. م. دانتسيغ. الرحالة الروس في الشرق الأوسط. ترجمة معروف خزنة دار (دمشق: دار المدى للثقافة

والنشر، 2008) ص 277.

4-1-1-1-3 مدينة بيت لحم:

مدينة بيت لحم شأنها شأن باقي المدن الفلسطينية عمل أهلها في مجال المحاصيل الزراعية المختلفة، ولقربها المدينة من مدينة القدس، فقد كان أغلب العاملين في مجال البناء في تلك المدينة من أهالي مدينة بيت لحم، مما ميزها عن باقي المدن بإجادة سكانها لحرفة البناء⁹⁶، كما اشتهرت بإنتاج العسل والخمور، وكونها مدينة عليها الطابع المسيحي فقد كان من أهم وسائل كسب العيش لدى سكانها العمل في مجال إنتاج وصنع الصدف والتحف الشرقية والتي تمثلت في التحف الدينية والتذكارات السياحية الخاصة بالديانة المسيحية والأماكن المقدسة في فلسطين، الذي كان كثيرا منها يباع للحجاج القادمين إلى فلسطين⁹⁷. كما كان يتم تصدير كمية أخرى إلى أوروبا، وقد ازدهرت هذه التجارة لدرجة أن بعض تجار بيت لحم شارك في معرض فيينا عام 1873 وأقاموا ركنا خاصا لهم في المعرض، وبلغت الحصيلة السنوية لصناعة التحف الدينية في القدس وبيت لحم عام 1886 بـ 600000 فرنك وفق معطيات القنصل الفرنسي⁹⁸.

اشتهرت مدينة بيت لحم بالأماكن المقدسة فيها حيث كان من أهم الأماكن الدينية فيها كنيسة المهدي "التي يعتقد بأن السيد المسيح ولد فيها" وبرك سليمان والتي تتكون من ثلاث برك واسعة في مكان منبسط ضيق بين جبلين⁹⁹.

⁹⁶ برهان الدين دلو، ص 62.

⁹⁷ أحمد الربايعة، ص 167.

⁹⁸ الكزاندر شولش، ص 177.

⁹⁹ محمد سلامة النحال، ص 156-157.

4-1-1-1-1-4 مدينة الخليل:

اشتهرت مدينة الخليل بالصناعات الزجاجية وفي تزيين الأواني وأدوات الزينة والتي كانت تباع في شتى أنحاء قرى ومدن فلسطين، واعتمد سكان الخليل في أعمالهم وكسب عيشهم على زراعة العنب وتربية الأغنام والتي ساهمت بشكل كبير في انتعاش الاقتصاد المحلي للمدينة، حيث بلغت مساحة الأرض المزروعة بالعنب في أراضيها حوالي 800¹⁰⁰ هكتار¹⁰¹.

ومن أهم مظاهر التطور الاقتصادي الحضاري لفلسطين ومدنها، تطور البريد الفلسطيني، حيث تم إقامة تسع مكاتب بريدية في مدنها ما بين الأعوام 1863-1870 مزودة بالطوابع البريدية، وهذه المدن هي القدس ويافا وحيفا وعكا وبيت لحم وغزة والخليل ونابلس وطبريا¹⁰²، وتطور البريد الفلسطيني أكثر فأكثر مع إنشاء خطوط السكك الحديدية، حيث أصبح البريد يصل بسرعة أعلى، كما وشهد البريد الفلسطيني نظاماً موحداً مع اشتراك تركيا في اتحاد البريد العالمي الذي أنشئ في العام 1874¹⁰³.

وفي وصف المدينة قام المؤرخ نعمان قسطلي بوصف مدينة الخليل مدينة النبي إبراهيم عليه السلام بقوله: "منظر هذه المدينة من الخارج جميل،

¹⁰⁰ هكتار: وحدة مساحة مترية تساوي عشرة آلاف متر مربع.

¹⁰¹ الكزاندر شولش، ص 197.

¹⁰² ميشال إسطفان. فلسطين طوابع وأختام 1860-1990 (دمشق: الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار) ص 18.

¹⁰³ المرجع نفسه، ص 18.

حيث أنها من حجر أبيض متين ولكل بيت قبة أو أكثر في أعاليه... ويوجد معاصر كثيرة للزيت، لأنه يوجد حولها بساتين كثيرة من الزيتون".¹⁰⁴

4-1-1-1-2 سنجق عكا:

يشمل هذا السنجق أفضية عكا وحيفا وصفد والناصرية وطبريا، وسنقوم بتبيان الواقع الاقتصادي لجميع هذه الأفضية لأنها شملت في رحلة توين إلى فلسطين.

4-1-1-1-2 مدينة عكا:

تقع مدينة عكا في أقصى شمال فلسطين، وتحتل قلب سهل خصيب، تكثر فيه زراعة الحبوب والحمضيات والفواكه والخضار بأنواعه، كما تتمتع بمركز طبيعي ممتاز وأهمية استراتيجية كبيرة.¹⁰⁵

ويعتبر ميناء فلسطين وهنا نشير إلى مينائها الأكثر أماناً وقوة عدا عن أن المدينة كانت مركز الإدارة واللواء الرئيس للمنطقة¹⁰⁶، لحصانتها وقدرتها في صد الهجمات والغزوات الخارجية، مما جعل مينائها من الموانئ الرئيسة للاستيراد والتصدير، خصوصا قبل تطوير ميناء حيفا، حيث كان ميناء عكا شأنه شأن باقي موانئ فلسطين يتم من خلاله تصدير واستيراد المواد والسلع الرئيسة

¹⁰⁴ تيسير خلف. موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين. الجزء الخامس (دمشق: دار كنعان للدراسات

والنشر والخدمات الإعلامية، 2010) ص 111-112.

¹⁰⁵ محمد سلامة النحال، ص 135.

¹⁰⁶ الكزاندر شولش، ص 186.

لشمال فلسطين، وبلغت قيمة صادرات القمح عبر ميناء عكا عام 1863 ما مجموعه "4,626,410" قرش والتي وزعت إلى إنكلترا وفرنسا واليونان وإيطاليا والدولة العثمانية¹⁰⁷.

والطبيعة الجغرافية للمدينة جميلة حيث يوجد جنوب المدينة كثبان رملية بيضاء تنتشر فوقها أشجار النخيل، أما شرقها فسهول فسيحة من الأراضي الخصبة التي تنتج أجود أنواع الخضار والفواكه، ويوجد شمالها بساتين وحدائق غناء، وغربها البحر بأمواجه وهديره.¹⁰⁸

إن مدينة عكا عبارة عن قلعة محصنة بأسوارها الباسلة، وداخل المدينة لم يكن بذلك الجمال، بسبب توالي الحروب والمعارك عليها من قبل الطامعين فيها، ولكن سهول المدينة وخليجها كان من الجمال والدهشة ما حدا بالرحالة إلى وصفها بأوصاف جميلة:

"أخذت تتجلى أمامنا بلدة أصبحت بمآذنها وبعلوها حاكمة على البحر وهذه هي عكا. ولما تقربنا منها أخذتنا الحيرة والدهشة. لأن مخيلتنا رسمت عكا بصورة أحط مما وجدنا تماماً. ولما زدنا قريباً من البلدة مررنا على مصب ماء. ورأينا هناك عدة أشجار من النخيل.... مررنا أيضاً على عدة قهوات

¹⁰⁷ زهير غنايم عبد اللطيف. لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية 1864 - 1918 (بيروت: مؤسسة الدراسات

الفلسطينية، 1999) ص 452.

¹⁰⁸ محمد سلامة النحال، ص 135.

لصيادة السمك على الساحل وقد شاهدنا ثمة عدة بيوت مبنية على الطراز
الجديد¹⁰⁹.

وقال الرحالة أوليفانت عن سهل وخليج عكا "في طريق عودتنا، تمتعنا بمنظر
أخاذ لسهل وخليج عكا، ومن خلفها سلسلة جبال الجليل، واندفعنا مندفعين نحوه
(الخليج) باحثين عن طريق يوصلنا إلى بغيتنا"¹¹⁰.

4-1-1-1-2 مدينة حيفا:

تقع مدينة حيفا على سفح جبل الكرمل الشامخ في تحد وكبرياء، وحيث
تغطي قمته الأشجار، التي تساهم في تلطيف المناخ¹¹¹، وعندما نذكر حيفا فإن
أول ما يخطر ببالنا هو مينائها الذي زاد من شهرتها بعد أن أخذ يتعاضم يوماً بعد
يوم، وكان لهذا الميناء الأثر الاقتصادي الكبير على المدينة، حيث أخذت
بالاتساع شيئاً فشيئاً، وذلك بسبب الصادرات والواردات التجارية التي كانت تمر
عبر ميناء حيفا فقد بلغت كمية المكوس "الضرائب" خلال عام واحد في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر 600000 قرشاً أي ما يعادل 6000 جنيه

¹⁰⁹ محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك. ولاية بيروت القسم الجنوبي (بيروت: دار لحد خاطر للطباعة والنشر،
1987) الجزء الأول، الطبعة الثالثة. ص 271.

¹¹⁰ لورنس أوليفانت. أرض جلعاد ورحلات في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين 1880م. ترجمة أحمد العبادي
(عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2004) ص 330.

¹¹¹ محمد سلامة النحال، ص 139.

إسترليني¹¹². وكان ميناء حيفا الميناء الأفضل للسفن حيث استقبل ميناء حيفا في

عام 1850 حوالي 162 سفينة بخارية وشراعية دون ذكر السفن الساحلية.¹¹³

وقد عدّ محصول القمح أهم المواد الغذائية التي يتم تصديرها عبر ميناء حيفا، حيث بلغت قيمة الصادرات من هذا المحصول عام 1863 ما مجموعه "1,068,745" قرش موزعة إلى دول عدة هي إنكلترا والنمسا وفرنسا واليونان وإيطاليا والدولة العثمانية. ويأتي القمح محصول السمس حيث بلغ مجموع قيمة صادراته حوالي "708,123" قرش موزعة على فرنسا والدولة العثمانية¹¹⁴.

ومما أسهم في تقوية اقتصاد المدينة، إقامة عدد كبير من الناس في المدينة، فقد كان تطور المدينة وزيادة الصادرات والواردات من مينائها الأثر البالغ في زيادة أعداد السكان حتى وصلت إلى أكثر من 130 ألف نسمة قبل العام 1948¹¹⁵.

ووصفت حيفا بأوصاف جميلة من قبل الرحالة حيث قالوا عنها.

"حين الدخول إليها تظهر على الناظر دور كثيرة متفرقة عن بعضها تتلألأ بأجرها الأحمر في سفح جبل الكرمل، ويزيد في منظر هذه الدور الجميلة أشجار زمرديه ناهضة نحو السماء في أنحاء مختلفة، وأخذنا نسير على طريق معبدة منتظمة

¹¹² الكس كرمل. تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين. ترجمة تيسير الياس (حيفا: شركة الدراسات العلمية العملية، 1979) ص 136.

¹¹³ الكزاندر شولش، ص 182.

¹¹⁴ زهير غنايم عبد اللطيف، ص 453.

¹¹⁵ محمد سلامة النحال، ص 139.

فتستلقت نظرنا بنايات ذات طبقات وشرفات عالية وعريضة ونوافذ ظريفة
وملونة¹¹⁶.

كما وصف خليجها "خليج هادئ ولطيف قد امتد إلى بعيد. وأشجار خفضت
رؤوسها وهي واقفة على ساحل البحر، وساحلها نظيف قد امتد على طول الخليج
برماله البيضاء".¹¹⁷

4-1-1-1-2-3 مدينة صفد:

تقع مدينة صفد على سفح جبل كنعان، وقد سمي هذا الجبل باسم كنعان
نسبة إلى كنعان بن نوح، الذي أراد أن يعتصم بمكان عال عند حدوث الطوفان
المشهور.¹¹⁸

اشتهرت المدينة بصناعة اللباد، حيث كانت تعتبر موطن اللباد، كما
واشتهرت بصناعة البشوت وسجادة الصلاة، حيث كان المدينة تحوي حوالي
ثلاث آلاف مصنع لها.¹¹⁹

مدينة صفد القلعة الشامخة فوق تلة، حيث قال عنها كنگليك "وأخيرا
اقتربت من مدينة صفد الواقعة على قمة علو صخري كأنها قلعة مهمة، تزينها
أشجارها الباسقة، وأبهة مآذنها الشاهقة"¹²⁰. وقال عنها الرحالة التميمي

¹¹⁶ محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك، ص 226 - 227.

¹¹⁷ المرجع نفسه، ص 227.

¹¹⁸ محمد سلامة النحال، ص 174.

¹¹⁹ أحمد الربابعة، ص 164.

¹²⁰ ألكسندر كنگليك. رحلة كنگليك إلى المشرق ترجمة محمود العابدي (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية،

1971) ص 117.

"تلة صدف هي إحدى سفوح جبل كنعان تشبه بكرومها وبأشجارها وبخضرتها
الزمردي وبأبنيتها الجديدة الظريفة الألوان قبة من الصدف، وخصوصا قسم صدف
القائم فوق جبل كنعان المتدرج طبقة طبقة من أسفل الوادي إلى فوق فإنه يشبه
مدرجا غنيا وذا حياة.... فحينما ترسل شمس الصباح أشعتها على تلك القبة
الصدفية تمثل للناظر نقوشا مختلفة من الألوان والأشكال ثم تنزلق عند سطوح
الدور فتلبس القصبة المشعة بالأنوار حلة حريرية بدیعة. ولا تذهل عن الخيوط
الذهبية التي ترسلها الشمس حين غروبها من سفوح جبل كنعان فإنها تسطع
على المحلات البلورية من البيوت فتصبح البلدة بمجموعها شعلة من نور تمثل
ثريا الكواكب ببهجتها وحسنها"¹²¹.

ومما ورد في وصفة لها:

"صدف في جميع أحوالها عرش البدائع السحار. وكما أن نسيم ربيعها يشبه
مروحة تنفس الأرواح. فإن صفير أهوية الشتائية الشديدة وتردادها بين الجبال
بعظمة وأبهة تروق في النفوس فصيف صدف وشتاؤها جميلان وربيعها
وخريفها بدیعان ومنیران".¹²²

4-2-1-1-1-4 مدينة الناصرة:

اكتسبت مدينة الناصرة قيمة اقتصادية عالية ليس عن طريق الإنتاج
الزراعي فحسب، بل عن طريق سوقها التجاري المركزي، فقد كانت هذه المدينة

¹²¹ محمد رفیق بك ومحمد بهجت بك، ص 348.

¹²² المرجع نفسه، ص 348.

ولغاية عام 1880 تعتبر أهم سوق تجاري في فلسطين وذلك بسبب توسط المدينة بين الشرق والساحل، ومركزا لاستقطاب الحجاج المسيحيين¹²³.

حيث تقع الناصرة بين عكا وحيفا وجنين وطبريا على مرتفع من الأرض يبلغ 1100 قدم، وتحيط بها قمم وشعاب من كل جانب والواقف على إحداها يؤخذ بروعة المنظر إذ يرى أمام ناظره البحر الأبيض المتوسط وجبل الشيخ ونهر الأردن ومرج ابن عامر.¹²⁴

اشتهرت المدينة بصناعة التطريز والأشغال اليدوية الدقيقة الصنع، والتي كانت تقوم بها الأنسات على وجه الخصوص، فهذه الحرفة كانت حرفة النساء بشكل خاص.¹²⁵

وقال فيها الرحالة

"... إذا خرجت على إحدى هذه التلال وألقيت نظرك على الناصرة يمكنك من هناك رؤية الهيئة المجموعة لدورها وأبنيتها المبتسمة، ويمكن الإحاطة من مثل هذه المواقع المرتفعة بجميع الدور وطبقاتها وسطوحها المستور أكثرها بالأجر الأحمر "القرميد" وبأشجار زيتونها وبخضارتها وترى من داخل القسبة منظر الأتحاء البيضاء الضاحكة"¹²⁶.

¹²³ الكزاندر شولش، ص 179.

¹²⁴ محمد سلامة النحال، ص 167.

¹²⁵ أحمد الربابعة، ص 169.

¹²⁶ محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك، ص 376.

4-1-1-1-2-5 مدينة طبريا:

تقع مدينة طبريا على الشاطئ الغربي من بحيرة طبريا، حيث تقوم المدينة على سهل منبسط يمتد إلى المرتفعات في الجهتين الشمالية والغربية، وتمتاز المدينة بدفء فصل الشتاء فيها، حيث تعتبر مشتى ومنطقة سياحية، وتمتاز أراضيها بزراعة الحبوب والخضروات، كما تمتاز بحيرتها بكثرة الأسماك مما جعلها مصدر رزق لكثير من أهل المدينة.¹²⁷

بحيرة طبريا التي يعتبرها المسيحيون مقدسة بسبب مسير المسيح فوق مياهها، والتي لم يمدحها مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج" بل على العكس قام بعملية مقارنة لها مع بحيرة تاهو Tahoe في الولايات المتحدة الأمريكية ولم يراع قدسيتها التي قدم إليها أصلا كحاج، فقد قيل عن بحيرة طبريا من قبل الرحالة كنغليك والذي قارنها أيضا مع بحيرات في إنجلترا ولكن لم يهمل جمالها بأنها:

"كانت تمتاز بكل مزايا البحيرات الإنجليزية، وكأنها أخذت من السماء الباسمة شعاعا لا ينضب له معين وجمالا يبهز الأبصار، ومع هذا النور الذي كان يشع من سطحها فإنها ثبتت، بحذاء الجبل القائم بجانبها كما لو كانت تداعبه بتأملاتها العذبة وتدغدغه بأفكارها المشرقة"¹²⁸.

¹²⁷ محمد سلامة النحال، ص 171.

¹²⁸ ألكسندر كنغليك، ص 56.

4-1-1-1-3 سنجق نابلس:

يشمل هذا السنجق أفضية نابلس وجنين وطولكرم، ولكننا سنقوم بتبيان الواقع الاقتصادي لمدينة نابلس لأنها شملت رحلة توين إلى فلسطين.

4-1-1-1-3 مدينة نابلس:

مدينة نابلس لا ينافسها أي مدينة في فلسطين من حيث الجمال والترف¹²⁹، بهذه الكلمات وصف الأوروبيون هذه المدينة، حيث كانت نابلس مركزاً تجارياً إقليمياً اشتهرت نابلس بإنتاج القطن الذي كان يعتبر أفضل وأجود أنواع القطن في المنطقة.

وأكثر الصناعات شهرة في نابلس كان إنتاج وصناعة الصابون حيث بلغت كمية إنتاج الصابون عام 1860 حوالي 4500 قنطار¹³⁰ سنوياً¹³¹، واحتلت المدينة مركز الصدارة في صناعة الصابون حتى أصبحت مركزاً رئيساً لصناعته في منطقة الشرق الأوسط عموماً¹³²، كما تشتهر بعمل الحلويات الشهيرة باسم الكنافة النابلسية¹³³، وقد ساهم الانتعاش الاقتصادي لمدينة نابلس في تحسين الأوضاع المعيشية للسكان ورقي المدينة.

¹²⁹ الكزاندر شولش، ص 192.

¹³⁰ القنطار: وزن يبلغ 100 كيلو غرام.

¹³¹ الكزاندر شولش، ص 194.

¹³² أحمد الربايعة، ص 171

¹³³ المرجع نفسه، ص 166.

تعتبر مدينة نابلس من اهم المدن الفلسطينية، تمتاز بشوارعها الواسعة ومبانيها العالية وفيلاتها الجميلة، وتحيط بها البساتين والأشجار من زيتون وتين وغيرهما¹³⁴.

مدينة نابلس التي أجمع الكثير من الرحالة الغربيين والعرب على أنها من أجمل المدن الفلسطينية، وقد ذكرها العديد من الرحالة، ولكننا سنأخذ بعض الأوصاف لها، فقد قال عنها الرحالة ألكسندر كنغليك خلال زيارته إلى فلسطين في القرن التاسع عشر "نابلس مدينة جميلة تقع في بقعة تكثر فيها أشجار الزيتون"¹³⁵، كما قال عنها المؤرخ نعمان قسطلي خلال عمله مع مجموعة من المساحين التابعين لصندوق استكشاف فلسطين عام 1874

"مدينة نابلس ذات موقع حسن جداً، وموقعها في واد جميل بين الجبلين، وبها بساتين جميلة تسقى بمياه عذبه وجيدة تنحدر من أسافل الجبلين، وهذه المدينة ذات أثمار كثيرة والصابار يوجد فيها بكثرة فائقة، حتى أنك تجد فيها بساتين كثيرة من الصبار فقط..... ومنظر هذه المدينة من الخارج جميل جداً، لأن كل أبنيتها من الحجارة، وهي ذات طبقات"¹³⁶.

ووصف الرحالة لورنس أوليفانت خلال زيارته لفلسطين عام 1880 خلال ذهابه من القدس إلى نابلس وبالتحديد في قرية جفنا شمال رام الله والقرى المحيطة بها، بعد انحراف رحلته حيث قال. "سعدنا حقاً بهذه البقعة التي عثرنا عليها بالصدفة، لقد كانت متميزة بخصوبة تربتها وزراعتها، وكانت سفوح

¹³⁴ محمد سلامة النحال، 146.

¹³⁵ ألكسندر كنغليك، ص 109

¹³⁶ تيسير خلف، ص 213.

التلال مصطبة بعناية، ومزروعة بكثافة بالعنب والزيتون، أما بطن الوادي فكان جنة غناء من الحدائق والزرور النظرة¹³⁷.

4-1-2 الواقع السكاني والعمراني

شهدت فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر العديد من التغيرات والهجرات المحلية والخارجية، والتي ساهمت بشكل كبير في التأثير على التعداد السكاني والبناء العمراني لسكان فلسطين وعلى الواقع الحضاري لها.

4-1-2-1 الواقع السكاني

شهدت فلسطين والمدن الفلسطينية العديد من حركات الهجرة والنزوح إلى خارجها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث ساهم ازدهار الأعمال في المدن الفلسطينية وطلب الحصول على أعمال جديدة وازدهار النشاط العمراني والاقتصادي في عملية الهجرة الخارجية، ومن أهم أسباب الهجرة اتصال الفلسطينيين بالحضارات المختلفة، حيث شهد نهاية القرن التاسع عشر حركة نشطة في الهجرة الخارجية كما أدى افتتاح المدارس الأجنبية مثل الألمانية إلى الاندماج والتفاعل مع عملية الهجرة.¹³⁸

وحيث أن فلسطين مهد الديانات والحضارة، فإنه من الطبيعي أن يتواجد فيها سكان من أصحاب الديانات السماوية الإسلام والمسيحية واليهود، حيث شهدت

¹³⁷ لورنس أوليفانت، ص 315.

¹³⁸ أحمد الربابعة، ص 179.

تلك الفترة حركة هجرة نشطة من قبل الدول الأوروبية، حيث تواجد فيها العديد من القناصل والشخصيات الاعتبارية الأجنبية¹³⁹، الذين حاولوا إنشاء تعدادات تقديرية من قبلهم حول أعداد السكان في المدن الفلسطينية، ولكن لم تكن تلك التعدادات تتسم بالمصداقية العالية وذلك بسبب المطامع التي بدأت بالظهور حول استيطان اليهود للمدن الفلسطينية، حيث وضعت بعض الشخصيات أرقام عالية لليهود كسكان في المدن الفلسطينية، وساهم وجود موانئ عدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط في عملية الهجرة حيث تحولت هذه الموانئ إلى مراكز صناعية كبرى نتيجة إلى الأعمال والازدهار التي شهدتها تلك الموانئ.¹⁴⁰

وتشير الإحصائيات الرسمية والتي كانت تابعة للدولة العثمانية في فترتها حيث يوجد إحصائية لسكان فلسطين تسمى بالنامة ولاية سوريا عام 1871¹⁴¹ إلى الأرقام التالية:

¹³⁹ أحمد الربايعة، 179.

¹⁴⁰ المرجع نفسه، 179-180.

¹⁴¹ الكزاندر شولش، ص35.

جدول 4.2

سالنامه¹⁴² ولاية سوريا عام 1871

عدد الخانات *				عدد المدن والقرى	اسم القضاء
المجموع	يهود	مسيحيين **	مسلمون		
9713	630	1940	7143	117	القدس
5820	200	---	5620	53	الخليل
9172	---	65	9107	56	غزة
6402	---	723	5679	64	يافا
14702	14	310	14378	177	نابلس
2809	---	33	2776	40	جنين
3552	6	1231	2315	35	عكا
2631	8	388	2235	42	حيفا
3498	---	1617	1881	39	الناصره
1132	400	66	666	8	طبريا
4228	1197	619	2412	39	صفد
63659	2455	6992	54212	670	المجموع

من خلال هذا الجدول نجد أن عدد سكان فلسطين عام 1871 يساوي

حوالي 350,000 نسمة دون تعداد البدو، وهذا الرقم يبرهن لنا بشكل لا يمكن

الجدال فيه تزييف واقع فلسطين السكاني لدى مارك توين حين وصفها بأنها

¹⁴² سالنامه: "التقرير السنوي" استخدمت في الدولة العثمانية تصدر سنوياً تشمل إحصاء ووصف كل ما يتعلق بالولاية بشرياً ومالياً واقتصادياً وعسكرياً.

* خانات جمع خانة وهي تعني أسرة والأسرة تراوح معدلها في تلك الحقبة التاريخية ما بين 5 الى 6 أشخاص.

** في نابلس المسيحيين والسامريون.

مهجورة وبغيضة¹⁴³، فكيف يمكن أن تكون بلاد لديها سكان يمثل هذا العدد بمساحة صغيرة لا تتجاوز الـ 90 ميل مهجورة وبغيضة، كما وصفها توين وقارنها مع ولاية ميزوري حيث قال "يمكن تقسيم ولاية ميزوري إلى ثلاثة أقسام تساوي كل منها مساحة فلسطين، وقد يكون هناك ما يكفي من المساحة المتبقية لقسم آخر يساوي مساحة فلسطين أيضا"¹⁴⁴.

ويلاحظ من الجدول السابق بأن القدس والمدن الفلسطينية الأخرى كانت عامرة بالسكان العرب من مسلمين ومسيحيين وأنهم شكلوا العنصر الأغلب فيها.¹⁴⁵

4-1-2-2 الواقع العمراني

تأثر الواقع العمراني في فلسطين بطبيعة الواقع الاقتصادي والسكاني فيها، وكما ناقشنا سابقا الواقع الاقتصادي والسكاني لفلسطين وسكانها، فإننا نجد بأن الواقع كان جيدا ومنتعشا اقتصاديا، وعليه فإن الواقع العمراني وطبيعة البناء والتوسع العمراني ستتأثر إيجابا مع الازدهار الاقتصادي والسكاني، حيث تميزت بيوت الأعيان والشخصيات في فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بطراز القصر، وتميزها بالزخارف الحجرية والجصية والهندسية، وانتشرت في

¹⁴³ Mark Twain, P 474.

¹⁴⁴ Mark Twain, P 366.

¹⁴⁵ وليد مصطفى. القدس سكان وعمران من 1850 إلى 1996. (القدس: مركز القدس للأعلام والاتصال، 1997) ص. 35.

فلسطين طرازات عدة من البيوت كان أشهرها بيت الليوان وبيت الرواق وبيت الفراغ المركزي¹⁴⁶.

لم يكن هذا الطراز من البيوت موجوداً قبل القرن التاسع عشر في فلسطين ولكنها وجدت مع تزامن دخول الأوروبيين لفلسطين وإنشائهم للمؤسسات الخاصة بهم، حيث قاموا بإحضار بنائين من الدول الأوروبية والذين بدورهم قاموا بتعليم أبناء البلد على الأسلوب الجديد للبناء¹⁴⁷، ومن أهم من قاموا ببناء البيوت ذات الطابع الأوروبي هم الألمان والذين قدموا إلى مدينة حيفا، وقاموا بإنشاء مستوطنة نموذجية في المدينة¹⁴⁸ وفي مدينة القدس حيث أنشأوا الكولونية الألمانية.

وتكونت دور الأغنياء والأعيان في فلسطين من طبقتين أو أكثر في بعض الأحيان ومن عدد كبير من الأقسام كالغرف والمنافع الأخرى التي نستخدمها في حياتنا الحالية، وكان يوجد في بعض الدور العديد من الغرف يزيد على العشرة، ومساحات شاسعة داخلها والتي تشبه القصور¹⁴⁹.

ولم يكن التنظيم العمراني في البيوت هو الطابع الوحيد على مدى قوة التنظيم، فقد كانت المدن الفلسطينية تمتاز بالتنظيم الداخلي لمدينتها، بحيث كان يوجد في كل مدينة عدد من الحارات (الأحياء) ويتفرع عن كل حارة عدد من

¹⁴⁶ شريف شريف. رسومات بيوت أعيان فلسطين في أواخر الفترة العثمانية 1856-1917 (رام الله: رواق -

مركز المعمار الشعبي، 2008) ص 39.

¹⁴⁷ المرجع نفسه، ص 40.

¹⁴⁸ الكس كرمل، ص 171.

¹⁴⁹ زهير غنايم عبد اللطيف، ص 197.

الخطوط والأزقة التي كان يطلق عليها عادة أسماء العائلات التي يسكنوها أو أسماء الأسواق¹⁵⁰.

وقد امتازت مدينة القدس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتطورات عمرانية عدة، حيث تم ترميم قبة الصخرة وإعادة زخرفتها، كما تم ترميم المسجد العمري، ورصف شوارع المدينة وأسواقها بالبلاط، وإنشاء الطريق التي تربط بين القدس ويافا والقدس ونابلس¹⁵¹. ولم تكن الزخارف والرسومات حكرا على المباني الدينية، فقد تميزت بيوت الأغنياء والأعيان في فلسطين بوجود رسومات وزخرفات هندسية جميلة وضعت على الأسقف والجدران والأفاريز*، حيث تم استخدام تقنيات ومواد جديدة في عملية الزخرفة كاستخدام القرميد والعمدان الخشبية والجص¹⁵².

2-4 فلسطين والأراضي المقدسة في وصف الرحالة.

مر على فلسطين والأراضي المقدسة العديد من الرحالة الأجانب والعرب والمسلمين، حيث كان لكلا منهم أسبابه الخاصة في القيام بزيارته، وقد قام العديد منهم بكتابة أوصاف عامة للأماكن التي زارها والتي أخذت طابع النظرة الغربية للشرق في العديد من مؤلفات المؤلفين الغربيين، ويعود ذلك إلى الصراع القائم

¹⁵⁰ زهير غنايم عبد اللطيف، ص 213.

¹⁵¹ محمد محاسنة، ص 233.

¹⁵² شريف شريف، ص 51.

* الأفاريز هو الجزء الذي يفصل بين السقف والحائط. وهو ذلك الفراغ الذي نتج عن طريقة بناء البيت المغطى بالقرميد والمحمول على عوارض خشبية مثبتة بالحائط. حيث تم إغلاق هذا الفراغ من الداخل والخارج منعا لدخول الطيور بين القرميد.

ما بين الشرق والغرب، من حيث أن الغرب نظر إلى الشرق على أنه أدنى منه منزلة وان الشرق عبارة عن صحراء وجمال وبدو وهي الصورة التي ما زالت موجودة في أذهان الغربيين إلى وقتنا الحاضر.

ولم يكن هذا الصراع ما بين الشرق والغرب موجوداً قبل القرن التاسع عشر، حيث كانت زيارة الرحالة إلى فلسطين والأراضي المقدسة خلال العصور الوسطى عبارة عن زيارة حجاج وحجيج فقط، وليس لها أي مقاصد أخرى، فعندما نقرأ عن رحلات بعض الرحالة الذين زاروا فلسطين والأراضي المقدسة في القرن الحادي عشر والقرن الثاني والتي جمعها المؤرخ د. جلال سلامة في كتابه وصف الأرض المقدسة لمجموعة من الرحالة المجهولين نجد أن جميع المشاهدات والمذكرات لأولئك الرحالة كانت دينية بحتة، حيث لم يقم هؤلاء الرحالة بوصف الأماكن العامة والمدن الأخرى، بل كانوا فقط يقومون بوصف الأماكن المقدسة بأحداثها الدينية والتي كان لها ارتباط مع حدث ديني للسيد المسيح عليه السلام، فنجد على سبيل المثال في رحلة الحاج المجهول الأولى أن جميع مشاهداته تحدثت بشكل مباشر عن المواقع الدينية بالرغم من تواجدها في مدن فلسطينية¹⁵³، وكذلك نجد الحال نفسه في رحلة الحاجان المجهولان الثانيان حيث كانت مشاهداتهم مرتبطة بوصف الأعمال والأماكن التي حدثت مع السيد المسيح¹⁵⁴، وهذا ما يؤكد على أنه قد حدث تغير في القرن التاسع عشر لفكر

¹⁵³ جلال سلامة، وصف الأرض المقدسة لمجموعة من الرحالة المجهولين (رام الله: دار الشيماء للنشر والتوزيع،

2013) ص 15-21.

¹⁵⁴ المرجع نفسه، ص 25.

الرحالة الغربيين إلى الشرق والأراضي المقدسة والتي تمثل فيما بعد بالأطماع السياسية والمصالح اليهودية في فلسطين.

كما ساهمت الروايات والتصورات المتحيزة والغير شمولية والتي كانت تعطي من الرحالة في إعطاء الصورة النمطية للشرق والتي تبلورت بأنه عبارة عن صحراء جرداء وجمال وبدو، على الرغم من أن الغرب وتحديداً الغرب الأمريكي كان وما زال مشهوراً بالصحراء والجياد ورعاة الأبقار.

3-4 لوحات فنية للمدن الفلسطينية.

مدينة القدس





مدينة يافا



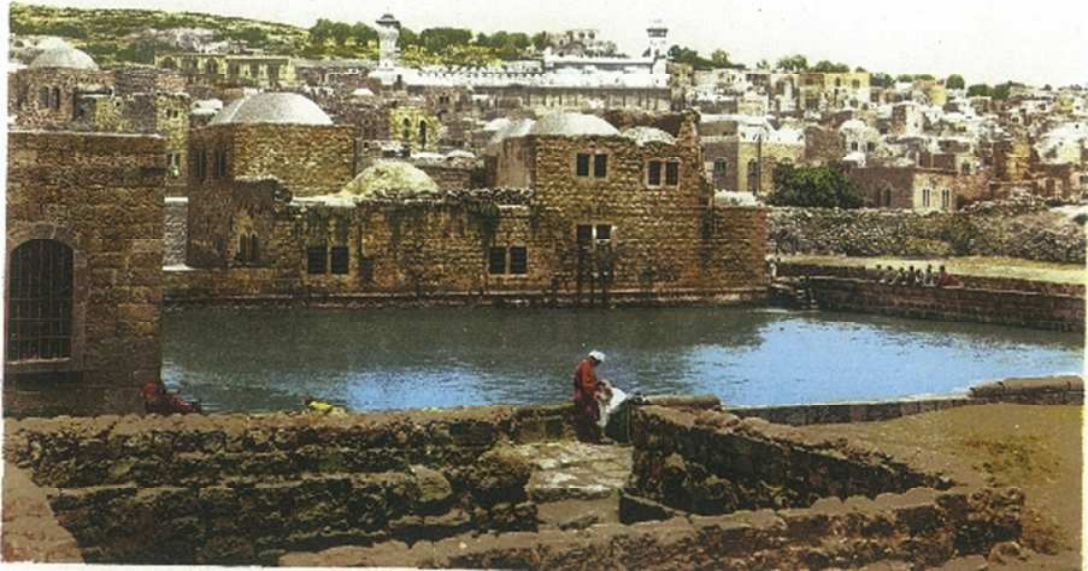
بيت لحم



مدينة الخليل



Hebron by David Roberts



مدينة عكا



مدينة حيفا



مدينة صفد



مدينة الناصرة



بحيرة طبريا



مدينة نابلس



مدينة الرملة



الفصل الخامس

1-5 الخلاصة:

لقد أسهم كتاب مارك توين أبرياء في الخارج إلى حد كبير في التأثير سلباً على فلسطين من حيث الواقع الحضاري والسياسي، حيث ساهم الكتاب في تشكيل فكرة نمطية سلبية لدى الغرب عن واقع طبيعة الحياة في فلسطين، عندما وصفها توين بالعديد من الأوصاف الإزدرائية والساخرة حيث وصفها بأنها أرض جرداء قاحلة وكأنها صحراء نائية لا يوجد فيها سوى الرمال والجمال وبعض الأبنية هنا وهناك، ولم يعط اهتمامه الكبير بالمقدسات الدينية على الرغم من قدومه إليها كحاج، متجاهلاً بذلك المدن الفلسطينية المزدهرة في وقتها والتي كان لها واقع اقتصادي وعمراني مزدهر، بل كانت فلسطين والمدن الفلسطينية من الدول المصدرة للعديد من المنتجات الزراعية والصناعية، كما كانت أيضاً مستورداً للعديد من الأصناف التي تدل على رقي وحضارة شعبها، ولكن طبيعة توين

الناقدة والساخرة للحياة ساهمت بإبراز الأوصاف الساخرة والإزدرائية وأن سكانها مجرد بدو رحل كما حاول أن يصفهم بها، بل على العكس، فقد كانت أعداد سكان المدن والقرى الفلسطينية كبيرة ولم تكن مجرد بضع مئات متناثرة هنا وهناك، حيث كان السكان يتفنونون ويتفخرون في بناء البيوت الفخمة والتي ترقى لمستوى القصور والتي كانت تحتوى العديد من الزخارف الجميلة والأعمال الفنية ما يعتبر جميلاً حتى وقتنا الحالي.

واستخدم توين أسلوب المقارنة في العديد من التصورات والأوصاف التي كان يصفها، حيث كان يقارن المشاهدات ببلاده الولايات المتحدة الأمريكية وهنا ظهرت النظرة الفوقية الغربية للمؤلف توين، والتي كان الغرب ينظر بها إلى الشرق على أنه أقل منه قدراً وشأناً، لأن بلاده تملك من الحضارة والرقى والجمال ما يمنع مقارنتها مع فلسطين، ولم يراعي الكاتب أن لكل بلد جماله الخاص بها، فإن لم تكن البلاد جميله كالولايات المتحدة لا يعني ذلك بأن فلسطين ليست جميلة، وعلى الرغم من أن توين قارن فلسطين مع بعض المناطق الجميلة في الولايات المتحدة إلا أنه تجاهل وجود العديد من الصحارى والمناطق الجرداء القاحلة في بلاده ما يزيد على الصحارى والمناطق الموجودة في فلسطين كما هو الحال في الجنوب والغرب الأمريكي والتي وصلتها الحضارة متأخرة مقارنة مع الشمال الأمريكي التي كانت مهد الحضارة والصناعة والتطور الأمريكي.

واستطاع المؤلف مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج" إبراز النظرة الفوقية الغربية حول الشرق والتي كانت واضحة من خلال كتاباته الإزدرائية والساخرة

لفلسطين والأراضي المقدسة، والتي ربط خلالها المناطق والسكان الفلسطينيين بالطبقات الدنيا، والفقيرة والمشردة الموجودة في الولايات المتحدة والغرب بشكل عام، حيث كانت كل أوصافه تتحدث عن استحقاق الناس والمواطنين الذين ذكرهم في كتابه، مع أنه يوجد تحفظ كبير على طبيعة الناس التي ذكرها فهو لم يذكر سوى سكان المناطق النائية ولم يأت على ذكر سكان المدن، التي مرّ بها، فكيف تكون مدينة مزدهرة كمدينة نابلس - على سبيل المثال - فيها عشرات الألف السكان ولا يتم ذكرها في كتابه سوى بعض الكلمات، بالمقابل يقوم بذكر سكان المناطق الصحراوية والنائية فهو بذلك يتعمد إلى إخفاء الحقيقة والواقع وذكر ما يريد ذكره بما يتناسب مع ما يريد المواطنون في الغرب الأوروبي والأمريكي.

إن عملية المقارنة التي كان توين يقوم بها في العديد من المناطق والمواضع ما بين فلسطين والأراضي المقدسة وما بين بلاد الكاتب الولايات المتحدة الأمريكية ساهمت بتشكيل التصورات الساخرة لدى الكاتب، حيث لا يمكن مقارنة بلاد كـفلسطين صغيرة المساحة ببلاد كالولايات المتحدة والتي تمتلك موارد ضخمة ومساحات شاسعة من الأراضي والجبال والبحيرات والهضاب، في الوقت الذي كان يحدث في فلسطين الحرب تلو الأخرى للسيطرة عليها واستغلال مواردها، كما أدى انشغال الدولة العثمانية حيث كانت فلسطين في وقتها تحت حكم الدولة العثمانية في حروبهم وقلت الإصلاحات الإدارية إلى إهمال فلسطين فترات زمنية طويلة.

لقد كان القرن التاسع عشر يعتبر قرن الاستشراق وقرن الرحلات الغربية إلى الشرق وسحره، فكما ذكرنا سابقا من كتاب الاستشراق للكاتب إدوارد سعيد فقد تم إنجاز حوالي 60000 كتاب عن الشرق خلال القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، ولكن كثيرا من تلك الكتب لم تعالج موضوع الاستشراق والرحلات إلى الشرق بالطريقة التي عالجها مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج" فهو لم يعط أي طابع أو تصور جميل إيجابي للشرق خاصة فلسطين والأراضي المقدسة، كما لم يترك كتاب توين سوى الأثر السلبي الكبير على فلسطين وسكانها وشعبها إلى وقتنا الحاضر، حيث أسهم في تحويل أنظار الصهيونية العالمية إلى فلسطين والسعي لاستيطانها بمساعدة الغرب.

وفي النهاية يمكن القول كان توين شخصية ذو طبيعة ساخرة ناقده بشكل ازدرائي منذ نعومة أظفاره فقد كان يوصف بالفكاهي الساخر في بداية شبابه، حيث وجد في الفكاهة الساخرة قبولا لدى مواطني الولايات المتحدة الأمريكية، مما جعله يصقل شخصيته بهذا الاتجاه فدفعت فلسطين الثمن.

قائمة مصادر الدراسة.

1. أحمد الدبش ومؤلفون. موجز تاريخ فلسطين من أقدم العصور حتى مشارف القرن الحادي والعشرين (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2010).
2. إدوارد سعيد. الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة د. محمد عناني (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006).
3. ألكسندر كنغليك. رحلة كنغليك إلى المشرق ترجمة محمود العابدي (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1971).
4. ب. م. دانتسيغ. الرحالة الروس في الشرق الأوسط. ترجمة معروف خزنة دار (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2008).
5. البرت بيجلوبين. طفولة مارك توين، ترجمة إبراهيم عبود الأشقر (بيروت، 1950).
6. تيسير خلف. موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين. الجزء الخامس (دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، 2010).
7. جلال سلامة. وصف الأرض المقدسة لمجموعة من الرحالة المجهولين. (رام الله: دار الشيماء، 2013)
8. جوني منصور. الخط الحديدي الحجازي تاريخ وتطور قطار درعا - حيفا (القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2008).
9. جيري الن. مغامرات مارك توين، ترجمة مصطفى حبيب (القاهرة: مكتبة مصر، 1954).

10. زهير غنايم عبد اللطيف. لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية 1864-
1918 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1999).
11. شبلي النعماني، رحالة هندي في بلاد الشرق العربي (القاهرة: المجلس
الأعلى للثقافة، 2003).
12. شريف شريف. رسومات بيوت أعيان فلسطين في أواخر الفترة العثمانية
1856-1917 (رام الله: رواق - مركز المعمار الشعبي، 2008).
13. فرانك بلدنزا. مارك توين حياته وأدبه. ترجمة جميل سعيد (بيروت: المكتبة
العصرية: فرانكلين، 1965).
14. كاتلين كرستسن. فلسطين في العقل السياسي الأمريكي، ترجمة مفيد عبدوني
(دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003).
15. الكزاندر شولش. تحولات جذرية في فلسطين 1856-1882 دراسات حول
التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. (عمان: الجامعة
الأردنية، 1993).
16. الكس كرم. تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين. ترجمة تيسير الياس
(حيفا: شركة الدراسات العلمية العملية، 1979).
17. لورنس أوليفانت. أرض جلعاد ورحلات في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين
1880م. ترجمة أحمد العبادي (عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،
2004).
18. لويس ليري. أعلام الأدب الأمريكي : مارك توين، ترجمة فاروق أنيس جرار
(بيروت: لمكتبة الأهلية: فرانكلين، 1961).

19. مارك توين. **سيرة مارك توين** (بيروت: شركة الكتاب اللبناني، 1963).
20. محمد الدجاني ومنذر الدجاني. **منهجية البحث العلمي في علم السياسة** (القدس: دار المشكاة للنشر والتوزيع، 1997).
21. محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك. **ولاية بيروت القسم الجنوبي** (بيروت: دار لحد خاطر للطباعة والنشر، 1987) الجزء الأول، الطبعة الثالثة.
22. محمد سلامة النحال، **جغرافية فلسطين دراسة طبيعية اقتصادية سياسية** (بيروت: دار العلم للملايين، 1966).
23. محمد عيسى صالحية. **مدينة القدس السكان والارض العرب واليهود 1858-1948م** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009).
24. محمد محاسنة وآخرون. **تاريخ مدينة القدس** (عمان: دار حنين للنشر والتوزيع، 2003).
25. ميشال اسطفان. **فلسطين طوابع وأختام 1860-1990** (دمشق: الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار).
26. وجيه كوثراني. **بلاد الشام السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين قراءة في الوثائق** (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1980).
27. وليد مصطفى. **القدس سكان وعمران من 1850-1996**. (القدس: مركز القدس للإعلام والاتصال، 1997).

1. أحمد الربابعة. المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام "فلسطين" جغرافية فلسطين وحضارتها الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة (عمان: مطابع الجمعية العلمية الملكية، 1983).
2. برهان الدين دلو. التحولات الاقتصادية - الاجتماعية في فلسطين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (نيكوسيا: الفكر الديموقراطي، عدد 8، 1989)

Books

1. Alan Gribben & Jeffry Melton. Mark Twain on the Move: A Travel Reader (Alabama: The University of Alabama Press, 2009).
2. Mark Twain. The Innocent Abroad. (New York: Signet Classics, 2007).

E- Books

1. Edmund Clarence, Stedman. ed. A *Victorian Anthology*, 1837-1895. (Cambridge: Riverside Press, 1895; Bartleby.com, 2003)
<http://www.bartleby.com/246/1129.html>

Thesis

1. Bakht, Nancy. Mocking Mohammad: Mark Twain's Depiction of Arabs and Muslims in the *Innocents Abroad*. (University of South Florida, 2006).

Articles

1. Philip Beidler. *Realistic and the Problem of Context in "The Innocent Abroad" and "Roughing It"*. (Duke University Press, *American Literature*, Vol. 52, No. 1, 1980).
2. Bruce Michelson. *Mark Twain the Tourist: The Form of the Innocents Abroad* (Duke University Press, *American Literature*, Vol. 49, No. 3, 1977).
3. Robert Regan. *The Reprobate Elect in the Innocents Abroad*. (Duke University Press, *American Literature*, Vol. 54, No. 2, 1982).
4. Forrest Robinson. "Patterns of Consciousness in the Innocents Abroad." *American Literature*, (Duke University Press, Vol. 58, No. 1, 1986).
5. Jeffrey Steinbrink. "Why the Innocents Went Abroad: Mark Twain and American Tourism in the Late Nineteenth Century." *American Literary Realism*, (University Of Illinois Press, Vol. 16, No. 2, 1983).

ملحق 1

ترجمة كتاب "الأبرياء في الخارج" من الفصل 46 لغاية الفصل 56

الخاصة برحلة فلسطين

الفصل 46

ركبنا لمدة ساعة بعدها وصلنا إلى دان، كانت الطريق صخرية وعرة نصفها مغمور بالماء تمر في غابة باشان المليئة بالبلوط والسنديان.

ومن تلة صغير في هذه السهول يجري نهر واسع مائه صافي، يكون بحيرة كبيرة من المياه الضحلة، ثم يندفع بقوة نحو الأمام حيث يكبر حجمه. وتعتبر هذه البحيرة مصدرا هاما لنهر الأردن. تزين نباتات الدفلى المزهرة ضفافه وشفاف الغدير أيضا، ومع ذلك فان جمال هذا المكان الذي لا يوصف لا يدفع رجلا عاقلا إلى التشنج كما تفترض كتب السفر السورية.

من هذا المكان الذي اتحدت عنه ربما تندفع قنبلة مدفعية إلى ما وراء حدود الأرض المقدسة وتسقط بالصدفة في الأرض النجسة على بعد ثلاثة أميال. كنا على بعد أقل من ساعة سفر داخل حدود الأرض المقدسة، ولكننا حتى الآن لم نبدأ بالإحساس باننا نقف في أرض مختلفة عن تلك التي وقفنا عليها دائما، وبالكاد بدأت الأسماء التاريخية مثل دان وباشان وبحيرة الحولة ومنابع نهر الأردن وبحيرة طبريا تتجمع في أذهاننا. كانت جميعها تلوح في الأفق ولكن بحيرة طبريا لم تكن بعيدة عنا. في الكتاب المقدس كانت قرية باشان الصغيرة مملكة ذات مرة واشتهرت بالثيران والسنديان، وكانت بحيرة الحولة "مياه مريم"، وكان نهر دان الحد الشمالي لفلسطين وبئر السبع حدها الجنوبي. ومن هنا جاءت عبارة "من نهر دان إلى بئر السبع" وهي تعادل العبارات لدينا "من مين إلى تكساس" و "من بالتيمور إلى سان فرانسيسكو". التعبيرات لدينا والتعبيرات التي قالها الإسرائيليون لها نفس المغزى

وهي تدل على المسافات البعيدة. كان الإسرائيليون يركبون الجمال والحمير البطيئة، وكانت الرحلة تستغرق سبعة أيام من نهر دان إلى بئر السبع وكانت أطول مسافة في بلدهم، وكانوا يقومون بها بعد استعدادات كبيرة وإقامة الحفلات. فعندما يسافر الرجل المبذر إلى "مكان بعيد" فإنه من غير المحتمل أنه يكون قد سافر إلى ابعده من مسافة ثمانين أو تسعين ميلا. عرض فلسطين لا يزيد عن أربعين إلى ستين ميلا. ويمكن تقسيم ولاية ميزوري إلى ثلاثة أقسام تساوي كل منها مساحة فلسطين، وقد يكون هناك ما يكفي من المساحة المتبقية لقسم آخر يساوي مساحة فلسطين أيضا. هناك عدة آلاف من الأميال من بالتيمور إلى سان فرانسيسكو، ولكن الرحلة بينهما استغرقت سبعة أيام بالسيارة عندما كان عمري سنتين أو ثلاث سنوات. طالما أنا حي أرزق فاني سأظل أحيانا اركب السيارات لأنتقل عبر القارة، ولكن مما لا شك فيه أن رحلة واحدة فقط من نهر دان إلى بئر السبع ستكون كافية وستكون الأصعب. ولذلك، بما أنني الآن اعلم أن المسافة من نهر دان إلى بئر السبع كانت امتدادا شاسعا على طول البلاد بالنسبة للإسرائيليين، دعونا نكون واقعيين وان نعترف بان هذه المسافة كانت الأصعب بالنسبة لهم لأنه لم يمكن بالإمكان اجتيازها بالسكك الحديدية.

الثلة الصغيرة التي ذكرتها قبل قليل كانت ذات مرة تحت حكم مدينة (ليش) الفينيقية. استولت مجموعة من قراصنة الزور واشكول على هذا المكان، وعاشوا هناك بطريقة سهلة ومجانية، عبدوا آلهة من صنع أيديهم وسرقوا أصناما من جيرانهم كلما اهترأت أصنامهم. وهنا بنى يربعام أيضا عجلا ذهبيا لفتنة قومه ولمنعهم من القيام برحلات دينية خطيرة إلى القدس، الأمر الذي قد يؤدي إلى عودتهم إلى ولائهم الشرعي. ومع كل الاحترام لأولئك الإسرائيليين القدماء، إلا أنني لا أستطيع أن أتغاضى عن حقيقة أن أيمانهم لم قويا بما فيه الكفاية للصدود أمام فتنة العجل الذهبي. والطبيعة البشرية لم تتغير كثيرا منذ ذلك الحين.

منذ حوالي أربعين قرنا من الزمان تعرضت مدينة سدوم للسلب والنهب على أيدي الأمراء العرب الذين جاءوا من بلاد ما بين النهرين، وكان بين السجناء البطيريك لوط الذي جلبوه إلى نهر دان في طريق عودتهم إلى ممتلكاتهم. كان الأب إبراهيم يلاحقهم، تسلل بهدوء وخفة في عتمة الليل بين نباتات الدفلى وتحت ظلال أشجار السنديان، وهجم على المنتصرين النائمين الذين فاقوا من أحلامهم تحت قعقة السيوف. ثم استعاد لوط والأشياء الأخرى المسلوية منهم.

ثم تقدمنا. كنا في وادي أخضر، عرضه خمسة أو ستة أميال وطوله يصل إلى خمسة عشر ميلا. تمر منه منابع نهر الأردن إلى بحيرة الحولة، وهي بحيرة ضحلة قطرها ثلاثة أميال، ومن أقصى جنوبها يتدفق نهر الأردن، كما يحيط بها أهوار واسعة مليئة بالقصب. وبين الأهوار والجبال التي تشكل جدارا للوادي يوجد مساحة واسعة من الأراضي الخصبة، وفي نهاية هذا الوادي، باتجاه نهر الدان، نصف مساحة الأرض صلبة وخصبة، تسقيها مياه نهر الأردن، نصفها صالح للزراعة، يوجد بها ما يكفي لتبرير حماس جواسيس الرعاع الذين استولوا على نهر دان. قالوا: "لقد رأينا الأرض، لا يوجد أي مكان على وجه الأرض أفضل منها". وما يبهر حماسهم هذا على الأقل هو أنهم لم يروا بلادا أفضل منها، فيها من الخيرات ما يكفي لحوالي ستة مائة رجل منهم وعائلاتهم.

عندما وصلنا إلى مستوى مزارع نهر دان، وصلنا إلى الأماكن التي يمكن فيها للخيل أن تعدو. لقد كان وضعا جديرا بالملاحظة. فقد قضينا وقتنا طويلا ونحن نسير على التلال والصخور المهلكة حتى وصلنا فجأة إلى هذه البقعة المذهلة من السهول الخالية من الصخور. عندها وخز كل رجل منا حصانه وانطلق يعدو بسرعة حتى يحصل على أقصى درجة ممكنة من المتعة الأمر الذي لا يمكن تصوره في سوريا.

وهنا كانت مشاهد دالة على وجود الزراعة في هذه المنطقة، وهو مشهد نادر في هذا البلد، دونم أو دونمان من التربة الخصبة المرصعة بسيقان الذرة الجافة من الموسم الماضي البعيدة عن بعضها البعض. ولكنه كان مشهدا خلابا في مثل هذه البلاد. وعلى مقربة منه كان هناك نهر صغير وعلى ضفافه قطيع من الماعز والأغنام السورية الغربية المظهر التي تستمتع بأكل الحصى. هذه ليست حقيقة مخيفة، فالمفروض أن هذه الأغنام تأكل الحصى لأنه ليس هناك شيء آخر تأكله. ومنظر الرعاة مع الأغنام يشبه منظر النبي يوسف وإخوته بدون أدنى شك. كان هؤلاء البدو طوال القامة مفتولي العضلات ذو بشرة داكنة ولهم لحي شديدة السواد، شفاهم صلبة وعيونهم جارحة، ولهم مظهر يبدو عليه عظمة الملوك، يرتدون نصف قلنسوة نصفها ملون، لها أهداب تغطي أكتافهم، ورداء ينساب عليهم بشكل كامل ذات خطوط سوداء عريضة، وهو رداء يرتديه جميع أبناء الصحراء ذو البشرة السمراء. اضن أن هؤلاء الرعاة مستعدون لبيع إخوتهم الأصغر سنا منهم لو اتاحت لهم الفرصة، أخلاقهم وعاداتهم وملابسهم وحرفتهم ومبادئهم الفضفاضة تشبه الأوراق المالية القديمة. (هاجموا مخيمنا الليلة الماضية، ويبدو في عيونهم الشر). كان معهم الحمير القصيرة المنتشرة في سوريا التي تذكرنا بقصة "رحلة إلى مصر" عندما كانت مريم وطفلها الصغير يركبان الحمار ويوسف يسير إلى جانبهما، وطوله يرتفع فوق أكتاف ذلك الحمار الصغير.

في الحقيقة هنا يركب الرجل ويحمل الطفل معه كأمر طبيعي بينما تمشي المرأة على رجليها. لم تتغير تلك العادات والتقاليد منذ زمن النبي يوسف. نحن لا نستطيع أن نعلق في بيوتنا صورة مريم تمشي بينما يوسف راكبا لان ذلك يعتبر تدنيسا، ولكن السوري المسيحي يرى خلاف ذلك. لكني أدرك أن الصورة الأولى تبدو غريبة بالنسبة لي.

لم نستطع بطبيعة الحال التوقف للاستراحة بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من مغادرة مخيمنا رغم ان النهر الصغير كان إلى جانبنا. لذلك مشينا ساعة أخرى ثم رأينا الماء، ولكن لم يكن هناك مكان للظل بين جميع النفايات وكنا نموت من شدة الحر. وكما يقول الكتاب المقدس "مثل ظل صخرة عظيمة في أرض متعبة" لا شيء أكثر جمالا من هذا الوصف، وبالتأكيد لا يوجد أي مكان ذهبنا اليه ينطبق عليه هذا الوصف البليغ مثل هذه الأرض العنيفة والعارية والخالية من الأشجار.

هنا لا يمكنك التوقف عندما تشاء، ولكنك تتوقف عندما يمكنك ذلك. وجدنا الماء ولكن لم نجد الظل. واصلنا السفر حتى وجدنا شجرة ولكن لم نجد الماء، جلسنا عندها وتناولنا الغداء، ثم واصلنا السير حتى وصلنا إلى مكان يسمى عين الملاحه. كان علينا السفر لأقل من مدة يوم ولكن المترجم رفض أن يذهب أبعد من ذلك، واخترع كذبة معقولة حول البلاد تقول بان العرب اشد شراسة بعد هذه النقطة، الأمر الذي من شأنه أن يجعل النوم في وسطهم تسلية خطيرة. هذا صحيح، ينبغي أن يكونوا شديدي الخطر. فهم يحملون بنادق قديمة صدئة مهترئة ومحشوة بمادة الصوان، ومعهم برميل أطول منهم، هذه البنادق لا تحمل أي أشكال أو صور، ولا تحمل فيها أكثر من كسرة آجر، ولا تعمل بشكل مؤكد. الحزام الكبير الذي يرتدونه عادة حول خصورهم مع أشياء أخرى يضم مسدسين أو ثلاثة مسدسات سخيفة قديمة مهترئة من قلة الاستعمال، وهذه الأسلحة تعلق إطلاق النار لمدة تكفي للشخص للابتعاد عن مجالها ثم تنفجر وتحطم رأس صاحبها. فأبناء هذه الصحراء خطيرون للغاية.

شعرت بالخوف الشديد عندما قرأت روايات غرايمس حول الهروب من البدو بمعجزة، ولكن أعتقد انه يمكنني أن أقرأها الآن دون خوف. لم يذكر غرايمس أن البدو هاجموه أو عاملوه بشكل همجي، ولكنه في كل فصل من فصول الروايات تقريبا كان يكتشف انهم يقتربون منه، وكان لديه طريقة مرعبة في تصوير قرب وقوع الخطر، وفي تصوير شعور أقرباءه عندما يدركون أن ابنهم المسكين

المتجول ذا القدمين المتعبين والعيون الخافتة في خطر محقق، وفي تصوير المرة الأخيرة التي رأى فيها العزبة والكنيسة القديمة والبقرة وغيرها من الأمور، وفي وصف اعتلاءه الأخير لصهوة جواده شامخا وممسكا بمسدسه الأمين مسرعا نحو "محمد" منقضا على عدوه الشرس مصمما على التضحية بحياته العزيزة قدر الإمكان. ولكن البدو لم يفعلوا أي شيء له عندما وصل إليهم، ولم يكن لهم أية نية للقيام بأي شيء ضده في المقام الأول، لذا أتساءل عن سبب قيامه باختراع كل تلك التخيلات والأوهام، ومع ذلك لا يمكنني أن أتخلى عن فكرة أن ذلك الرجل نجا من خطر مرعب من خلال شجاعته المتهورة، ولا يمكنني بعد الآن أن اقرأ عن بدو غرايمس وأنام بشكل مريح. ولكن أعتقد الآن أن البدو غدارين. لقد رأيت الوحش وأستطيع أن اهزمه. لن أخاف ابداً من جرأته على الوقوف خلف بندقيته وتفريغها.

قبل حوالي ألف وخمسمائة سنة من ميلاد المسيح كانت أرض هذا المخيم بالقرب من "مياه ميروم" مسرحاً لإحدى معارك الإبادة التي قام بها يشوع. يابين، ملك حاصور، دعا جميع الشيوخ ومضيفيهم للاستعداد لصد القائد الإسرائيلي الرهيب الذي كان يقترب من المنطقة.

ولكن يشوع هزمهم وقضا عليهم عن بكرة أبيهم حسب سياسته المعتادة في الحروب. لم يترك أي فرصة للنقاشات الإعلامية حول الفائز في المعركة. فقد حول هذا الوادي الهادئ إلى مذبحه تفوح منها رائحة كريهة.

بعد ذلك بمائة عام خاضت إسرائيل معركة دموية أخرى في مكان ما من هذه البلاد. طلبت النبيه دبورة من باراق أن يأخذ عشرة آلاف رجل ويحارب الملك يابين ملك حاصور الذي كان ينوي القيام بشيء ما. نزل باراق من جبل الطور، على بعد عشرين أو خمسة وعشرين ميلاً من هنا، وحارب جيش يابين، الذين كان يقوده سيسرا. فاز باراق في المعركة، وبينما كان يتوج انتصاره بإبادة بقايا

المهزومين كعادته، هرب سيسرا على الأقدام، وعندما أوشك على الموت من شدة التعب والعطش، دعتة ياعيل إلى خيمتها للراحة. كان سيسرا منهكا ووضعته ياعيل على السرير للنوم. قال لها انه شديد العطش وطلب من هذه الحافظة السخية كوبا من الماء. جلبت له بعض اللبن، شرب منه وشكرها، وخذ الى النوم وغرق في الأحلام لينسى معركته الخاسرة وكبريائه المتواضع. وعندما كان نائماً مشت إليه بهدوء مع الوند وضربته على دماغه فسحقته.

"لقي حتفه لأنه سرعان ما خلد إلى النوم بسبب التعب الشديد". هذه هي لغة الكتاب المقدس المؤثرة. وتتشي "أغنية دبوره وباراق" على ياعيل على الخدمة الجليلة التي أدتها وتقول:

"تبارك على النساء ياعيل امرأة حابر القيني على النساء في الخيام تبارك".

"طلب ماء فأعطته لبنا في قصعة العظام قدمت زبدة".

"مدت يدها إلى الوند وبمينها إلى مضراب العملة وضربت سيسرا وسحقت راسه شدخت وخرقت صدغه".

"بين رجليها انطرح سقط اضطجع بين رجليها انطرح سقط حيث انطرح فهناك سقط مقتولا".

لم تعد تحدث أي مشاهد مثيرة من هذا النوع في هذا الوادي. ولا توجد أي قرية نائية في جميع أنحاء على بعد ثلاثين ميلا في كلا الاتجاهين. هناك مجموعتان أو ثلاثة مجموعات صغيرة من خيام البدو ولكن لا يوجد أي منزل دائم. قد يمشي المرء عشرة أميال ولا يرى عشرة أشخاص.

تتطبق احدى النبوءات على هذه المنطقة:

"سوف اجلب الخراب إلى هذه الأرض، وأعدائك الذي يسكنون فيها سوف يندهبون منها. سوف

أبعثركم بين الأوثان، وسأحمل سيفي بعدكم، وتكون أرضكم جرداء ومدنكم مهجورة." "

لن يقف أي رجل بمحاذاة عين الملاحه المهجورة ويدعي أن النبوءة لم تتحقق.

الآية التي اقتبستها من الكتاب المقدس أعلاه تحتوي على عبارة "كل هؤلاء الملوك". هذه العبارة عادت إلى ذهني في هذا الوقت بالذات إذ أنها تحمل في طياتها مغزى كبير يختلف عن مغزاها في بلادي. أستطيع أن أرى بسهولة أنني إذا أردت كسب هذه الرحلة وفهم المسائل الهامة المرتبطة بها بشكل صحيح ينبغي علي أن أتناسى بكل جد وإخلاص أشياء كثيرة عظيمة تعلمتها عن فلسطين. يجب أن ابدأ العمل بنظام التقليل. ومثل العنب الذي ينقله الجواسيس إلى خارج أرض الميعاد، حصلت على كل شيء في فلسطين على نطاق كبير. كانت بعض أفكارى متوحشة إلى حد كبير. كانت كلمة فلسطين تثير دائماً إلى ذهني تصورا غامضا حول بلد كبير مثل الولايات المتحدة. وأنا لا أعرف سبب هذا التصور، ولكن هذا ما حدث. واعتقد أن السبب هو أنني لم أفكر في بلد صغير له تاريخ عريق جدا. أعتقد أنني لم استغرب كثيرا عندما أدركت أن "السلطان التركي" العظيم كان رجلاً له حجم عادي. ينبغي علي أن أسعى إلى تغيير أفكارى حول فلسطين حتى تكون أكثر واقعية. أحيانا يتعلم المرء انطباعات كبيرة في صغره عليه أن يكافح طوال حياته لتغييرها. وعندما كنت أقرأ عبارة "كل من هؤلاء الملوك" في مجلة "مدرسة الأحد" كنت أتخيل ملوك بلاد مثل إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا وروسيا وغيرهم من الملوك الذين يصطفون في أثواب رائعة مرصعة بالجواهر، يسيرون في مواكب عظيمة، يحملون الصولجان الذهبي في أيديهم، ويضعون التيجان اللامعة على رؤوسهم. ولكن هنا في عين الملاحه، بعد مجيئنا من سوريا، بعد أن تمعننت في عادات وتقاليد هذه البلاد، أصبحت عبارة "جميع هؤلاء الملوك" لا معنى لها تشير إلى حفنة من الزعماء البسيطين، أناس متوحشين يرتدون ملابس سيئة وأوضاعهم سيئة يشبهون إلى حد كبير الهنود الحمر عندنا، عاشوا في مرأى من بعضهم البعض، كانت ممالكهم كبيرة عندما كانت مساحتها خمسة أميال مربعة وعدد سكانها ألفين نسمة. الممالك المتحدة المكونة من ثلاثين "ملكا" التي دمرها يشوع في إحدى حملاته

الشهيرة لا تزيد مساحتها عن مجموع مساحة أربعة مقاطعات أمريكية من الحجم العادي تقريبا. الشيخ العجوز المسكين الذي شاهدناه في جينسارت مع مئة من اتباعه يمكن أن يسمى "ملكا" في ذلك الزمان.

الساعة السابعة صباحا، في هذه البلاد، في هذا الوقت يتلألأ العشب بالندى، ويفوح العطر من الزهور، وتغني الطيور على الأشجار. ولكن للأسف لا يوجد ندى ولا زهور ولا طيور ولا أشجار. يوجد مرج وبحيرة بلا ظلال، خلفهما جبال جرداء. الخيام تنهوى، العرب يتشاجرون كالعادة مثل الكلاب والقطط، تتناثر الحزم والرزم على ارض المخيم، يقوم الناس بتحميلها على ظهور البغال بهمة ونشاط، الخيول أصبحت مسرحية والمظلات مفتوحة. في غضون عشر دقائق سنركب وسوف يتحرك الموكب مرة أخرى، وسوف تختفي عين الملاحه البيضاء مرة أخرى، بعد أن عادت اليها الحياة من القرون الميتة، ولن تترك أي علامة بعدها.

الفصل 47

قطعنا بعض الأميال إلى بلاد مهجورة ذات تربة غنية، تغطيها الأعشاب والحشاش، بقعة صامتة حزينة، لم نشاهد فيها سوى ثلاثة عرب لا يلبسون سوى قميص خشن طويل يشبه القمصان "الكتانية" التي كانت تشكل اللباس الصيفي الوحيد للأولاد الصغار من الزوج في المزارع الجنوبية. كانوا رعاة يسحرون قطعانهم بمزمار الراعي التقليدي، وهو أداة مصنوعة من القصب تصدر موسيقى رائعة مثل روعة الموسيقى العربية.

لم يبقى في مزاميرهم أي صدى للموسيقى الرائعة التي سمعها الرعاة القداماء في سهول بيت لحم حينما غنت الملائكة أغنية "السلام على الأرض، النوايا الحسنة للرجال".

وصلنا إلى أرض لم تكن أرضا على الإطلاق، كانت قطعة من الصخور، بيضاء مثل القشدة، سطحها أملس، خالية تقريبا من الحواف أو الزوايا، مقورة الشكل، تشبه مشط العسل، مليئة بالثقوب مثل العيون، لذلك يوجد فيها جميع الأشكال الغريبة، ومن بينها تقليد الجماجم غير العادي. وعلى هذا الجزء من الطريق كان هناك بعض بقايا طريق رومانية قديمة مثل مسار طريق أبيا المرصوف بالحجارة المتمسكة بأماكنها على الطريقة الرومانية.

السحالي والحرادين الرمادية التي تترث ذلك الخراب والدمار تدخل وتخرج من الشقوق أو تقف ساكنة تحت أشعة الشمس. هذا الحرزون يجعل من هذا المكان منزله، يسخر من الغرور البشري حيث ساد الرخاء وسقط، حيث قد علا المجد واندثر، حيث سكن الجمال وتلاشى، حيث كان الفرح والحزن، حيث كانت الحياة في أوجها، حيث ولد الصمت والموت في الأماكن المرتفعة. جلد الحرزون لونه لون الرماد، والرماد هو رمز الآمال الهالكة، رمز التطلعات الفاشلة، رمز المحبة المدفونة. لو كان هذا الحرزون قادرا على الكلام لقال لنا "ابنوا المعابد لكي اعبد في خرائبهم، ابنوا قصور لكي اسكن فيها، ابنوا الإمبراطوريات كي ارثها، ادفنوا أجمل ما عندكم كي أشاهد الديدان وهي تعمل، وأنتم يا من تقفون هنا تعظون فوق راسي سوف ازحف فوق جثثكم في آخر المشوار".

يعيش القليل من النمل في هذا المكان الصحراوي، ولكن فقط لقضاء فصل الصيف. وقد جلب النمل طعامه معه من عين الملاحه على بعد أحد عشر ميلا.

اليوم الصبي جاك ليس على ما يرام، ومن السهل إدراك ذلك، ولكنه صبي وليس رجلا قادرا على البوح بذلك. لقد تعرض للشمس كثير يوم أمس، وكان لديه رغبة جادة بالتعلم، والاستفادة من الرحلة قدر الإمكان، ذلك لم يسعى أحد إلى تثبيط عزيمته من خلال البحث عن الأسباب. غاب ساعة عن المخيم، ثم وجدناه بعيدا بعض الشيء، جالسا على حافة الجدول، وليس معه مظلة تقيه حرارة

الشمس. بالطبع سيكون الأمر عاديا لو انه اعتاد على المشي دون مظلة. وجدناه عندما كان على وشك أن يرمي حجر على سلحفاة تجلس فوق خشبة في الجدول. قلنا له:

"لا تفعل ذلك يا جاك. لما تريد أن تؤذيها؟ ماذا فعلت؟"

"حسنا، لن اقتلها، ولكن ينبغي أن اقتلها لأنها غدارة."

عندما سألناه عن السبب، قال انه غير مهم. سألناه مرارا وتكرارا عندما كنا عائدتين إلى المخيم لكنه ظل مصرا أن المسألة غير مهمة. في وقت متأخر من الليل عندما كان جالسا بهدوء على السرير سألناه مرة أخرى فقال:

"حسنا، الأمر لا يهمني ولا اهتم به الآن. كما تعلمون، لقد كرهت ما حصل اليوم لأنه لا يمكنني أن أقول أي شيء سوى الحقيقة، ولا أعتقد أن العقيد ينبغي أن يفعل ذلك أيضا. لكنه فعلها، ففي الليلة الماضية تحدثت لنا أثناء الصلاة في خيمة الحجاج، ويبدو كما لو انه كان يقتبس شيئا من الكتاب المقدس حول هذا البلد الذي يتدفق منه الحليب والعسل ونسمع فيه صوت السلحفاة. اعتقد أنه كان يبالغ في وصف السلحفاة، وانا سألت الكاهن عن ذلك، وانا اصدق ما يقوله. ولكني جلست اليوم هناك، وشاهدت السلحفاة لمدة ساعة تقريبا تحت أشعة الشمس الحارقة ولكن لم أسمعها تغني. وأعتقد أنه سال مني عرق كثير لأن العرق دخل في عيوني وكان يسيل فوق أنفي طوال الوقت. ثم أصبحت عيوني مبللة من شدة العرق ثم جفت مرة أخرى وبدأت تهزول الدموع لكنني لم أسمع السلحفاة تغني. وأخيراً قلت هذا نصب واحتيال، ولو كان عندي ذرة عقل لكنك قد عرفت أن السلحفاة الملعونة لا تغني. ثم فكرت، لا ارجب أن أكون قاسيا على هذه السلحفاة، سوف أعطيها عشر دقائق فقط لتبدأ، عشر دقائق، إن لم تبدأ سوف انهال عليها بالحجارة. لكنها لم تبدأ. وقفت هناك طوال الوقت، فكرت أنه ربما تبدأ قريبا جداً لأنها ظلت ترفع رأسها وتخفضه، ظلت تغلق جلودها على عينيها لمدة دقيقة ثم

تفتحهما مرة أخرى كما لو كانت تحاول أن تفكر في شيء ما تغنيه، ولكن بعد أن مرت الدقائق العشر وشعرت بالهزيمة والشدة وضعت رأسها على عقدة ونامت بسرعة".

"كان الأمر صعبا بعض الشيء بعد انتظرت وقتا طويلا."

"قلت، اعتقد ذلك، حسنا، على أية حال إذا لم تغني، فلن تنام، لو سمحتم لي أيها الزملاء بالبقاء لوحدي لكنك قد جعلتها تقفز من الجليل أسرع من أي سلحفاة أخرى، لكن المسألة ليست مهمة الآن، دعونا ننسى الأمر، الجلد هو الجزء الخلفي من رقبتني."

عند الساعة العاشرة صباحا وقفنا بالقرب من بئر يوسف، وهو عبارة عن خان مدمر من العصور الوسطى، البئر له جدران قوية ومقوسة وفيه ماء، تقول الرواية الشعبية أن أخوة يوسف القوه فيه. وثمة رواية شعبية أخرى أكثر واقعية، تؤيدها الطبيعة الجغرافية للبلاد، تقول أن البئر موجود في منطقة دوثنان وهي على بعد مسيرة يومين من هنا. ولكن هذا البئر تبقى له أهمية لأن هناك العديد من الناس لا زالوا يعتقدون انه البئر الحقيقي.

من الصعب تحديد أجمل مقطع في كتاب غرايمس بالجواهر الجميلة كالكتاب المقدس، ولكن من المؤكد أن لا شيء يضاهي روعة قصة يوسف بين جوانبه. من الذي علم هؤلاء الكتاب القدماء بساطة اللغة، وبلاغة التعبير، والشفقة، وفوق كل شيء، القدرة على الابتعاد تماما عن أنظار القارئ وجعل السرد القصصي يبدو كأنه يتحدث مع نفسه؟ شكسبير يكون حاضرا دائما عندما يقرأ المرء أحد كتبه، وماكولي موجود أيضا عندما نتابع مسيرة الجمل الفخمة التي كتبها، ولكن كتاب العهد القديم متخفين دائما عن الأنظار.

إذا كان البئر المذكور سابقا هو البئر الحقيقي فإن مشهدنا حدث هنا قبل ألف السنين يبدو حاضرا في جميع الصور حولنا. كان أبناء يعقوب يرعون الأغنام بالقرب من هذه المراعي، عندما طال

انتظارهم أرسل ابنه المفضل يوسف ليتحقق من الأمر، سافر لمدة ستة أو سبعة أيام، كان غلاما في السابعة عشرة من عمره، تكبد عناء السفر لمسافة طويلة مرورا بأكثر البلدان غبارا وصخورا وحجارة، لابسا قميصه الجميل ذو الألوان الزاهية. كان يفضل يوسف على بقية أولاده مما سبب ليوسف الحسد والبغضاء في قلوب أخوته. فسر يوسف أحلامه التي تنبئت برفعته وسموه فوق أخوته في المستقبل، كان شابا يافعا لم يخفي هذا السر عن أخوته الذين بدأوا يكيّدون له الشر عندما تسنح لهم الفرصة. عندما شاهدوه قادمًا من ناحية بحيرة طبريا عرفوه وشعروا بالفرحة وقالوا فيما بينهم "ها هو الحالم، هيا بنا نقضي عليه". دافع روبن عن حياته لذلك تركوه، امسكوا بيوسف وخلعوا قميصه عن ظهره ثم ألّفوه في البئر بقصد القضاء عليه، أراد روبن أن ينقذه بالسر، لكن عندما كان روبن بعيدا عنهم قاموا ببيع يوسف لتجار من الإسماعيلية متجهين نحو مصر. هذه هي حكاية البئر الذي لا يزال في مكانه حتى اليوم، وسوف يبقى هناك حتى تصل فرقة من الأشخاص الذي يحطمون الصور ويدنسون القبور من رحالة الكويكرز وسوف يحفروه وينقلوه معهم، فهم لا يقدرّون الآثار القديمة المقدسة ويتركون الدمار والخراب أينما حلوا.

يقول الإنجيل أن يوسف صار حاكما غنيا قويا مميّزا "على جميع أنحاء مصر"، كان الملك الحقيقي والسلطة والعقل المدبر للمملكة مع أن فرعون حمل اسم الملك. كان من أعظم الرجال في العهد القديم، وأكثر الرجال نبلا وإقداما ما عدا عيسو. لماذا لا نقول كلمة حق عن عيسو، الأمير البدوي؟ الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هو انه كان سيء الحظ. لماذا ينبغي علينا أن ننثني بإفراط على شهامة يوسف نحو أخوته وتسامحه معهم بينما لا ننثني على عيسو على سخائه العظيم مع أخيه الذي سبب له المشاكل؟ استغل يعقوب جوع عيسو ليسلبه حقوقه والشرف العظيم والاعتبارات المرتبطة بمكانته، سلب منه بركة الأب زورا وبهتانا، جعل منه شخصا غريبا نأثها في بيته. ومع ذلك، بعد عشرين عاماً التقى عيسو مع يعقوب وجثا عند قدميه يرتعد من الخوف يستجدي الرثفة والعفو من العقاب

الذي يستحقه؟ ماذا فعل هذا الهمجي الرائع؟ وضع يديه حول عنق يعقوب واحتضنه! يعقوب الذي كان عاجزاً عن فهم سمو الشخصية وكان في شك ورهبة، أصر على "إيجاد النعمة مع ربي" من خلال عرض رشوة تتمثل في هدية من الماشية، فماذا قال ابن الصحراء الرائع؟

"كلا يا أخي، لدي ما يكفي، ابق ما لديك لنفسك!"

رأى عيسو أن يعقوب رجل ثري، تحبه زوجاته وأولاده، يسافر في الدولة مع الخدم وقطعان الماشية وقوافل الإبل، ولكنه كان منبوذاً وغير محبوب بسبب أخيه. بعد ثلاثة عشر عاماً من هذه المحبة الغامضة، جاء الأخوة الذين ظلموا يوسف، غرباء في أرض غريبة، جائعون أذلاء، ينوون شراء "بعض الطعام"، دعاهم الملك إلى قصره بسبب جريمتهم، وهناك شاهدوا الأخ الذي ظلموه، كانوا متسولين يرتعدون من شدة خوفهم من مولاهم سيد الإمبراطورية! ما هي نوع الحياة التي عاشها يوسف التي أضاعت فرصة "التباهي"؟ من يقف أولاً: عيسو المنبوذ الذي يطلب السماح من يعقوب وقت الرخاء أم يوسف الجالس على العرش الملك الذي يصفح عن الأندال الذي تسببوا في وصوله إلى هنا؟

وقبل وصولنا إلى بئر يوسف، صعدنا على صفح تلة، وهناك، على بعد أميال أمامنا، حيث لا يوجد شجرة ولا شجيرة، رأينا مشهداً يدفع ملايين المصلين في البلاد البعيدة نصف ممتلكاتهم لرؤيته، ألا وهو بحيرة طبرية المقدسة!

ولذلك بقينا هناك لبعض الوقت، استرحنا واستراحت الخيول، استمتعنا بظل المباني القديمة المباركة لبضع دقائق. نفذ منا الماء، ولكن اثنين أو ثلاثة من العرب العابسين الذين كانوا يتجولون في المكان قالوا أنه لا يوجد ماء في المنطقة القريبة. كانوا يعلمون أنه يوجد القليل من الماء الأسن في البئر، ولكنهم وجدوا أن المكان المقدس الذي سجن فيه سلفهم أكثر عظمة وتبجيلاً من أن يشرب منه

المسيحيون الكلاب. ولكن شخص اسمه فيرجسون ربط بعض الخرق والمناديل حتى عمل حبلا طويلا يكفي لوصول الدلو إلى أسفل البئر، شربنا ثم واصلنا السفر، وبعد وقت قصير نزلنا عن خيولنا على تلك الشواطئ التي جعلتها أقدام المخلص الأرض المقدسة.

عند الظهرية سبحنا في بحيرة طبرية، متعة مباركة في هذا المناخ الحار، تناولنا الغداء تحت شجرة تين قديمة مهملة بالقرب من عين ماء تسمى "عين التين"، على بعد مائة متر من كفر ناحوم المدمرة. ويطلق الناس هنا كلمة "عين" على كل نبع ماء يخرج من بين الصخور والرمال، والناس الذين يعرفون هديسون ومنطقة البحيرات الكبرى وشلال المسيسيبي سوف يسافرون إلى هنا من شدة أعجابهم ويستنفذون طاقاتهم في كتابة المدائح والوصف. ولو جمعنا جميع الشعر والهراء الذي قيل حول العيون والمشاهد الرائعة في هذه المنطقة في كتاب، لكان من أكثر الكتب التي تستحق الحرق.

خلال مأدبة الغداء، عشاق الحج من جماعتنا، الذي كانوا مرتاحين وسعداء للغاية منذ أن لمست أقدامهم الأرض المقدسة، لم يأكلوا سوى القليل ولم يفعلوا شيئاً يذكر سوى تمتمة بعض التعابير الحماسية غير المتماسكة، كانوا يتطلعون "لركوب البحر" والإبحار فوق المياه التي حملت سفن الأنبياء والرسول. ازداد توترهم وحماسهم مع مرور الوقت، حتى ثارت مخاوفي وبدأت أتخيل انهم، في وضعهم الحالي، ربما يتحررون من جميع الاعتبارات ويشترون أسطولا كاملا من السفن بدلاً من استئجار قارب واحد لمدة ساعة. بدأت ارتعد من التفكير في الخسارة المالية التي قد تنتج عن التصرفات في هذا اليوم. لم أتمكن من التوقف عن التفكير في الحماس المفرط الذي يدفع الرجال في متوسط العمر إلى إقحام أنفسهم في حماقة مغرية ذاقوا طعمها للمرة الأولى. ولكن شعرت انه ليس لي الحق في استغراب الأمور التي تسبب القلق. منذ سن الرضاعة تعود هؤلاء الرجال على تقديس وعبادة الأماكن المقدسة التي يروها الآن. وعلى مدى السنوات ظلت هذه الصورة في أفكارهم

وأحلامهم. الوقوف هنا، رؤيتها كما هي الآن، الإبحار في البحيرة المقدسة، تقبيل التربة المقدسة التي تحيط بها: هذه التطلعات التي اعتزوا بها منذ قديم الزمان. ولكي يمكنهم إلقاء نظرة على هذه الصورة والإبحار في هذه البحيرة تخلوا عن بيوتهم وأثاثهم وقطعوا آلاف الأميال وتحملوا المشقات والشدائد. اتركوهم يبددون الملايين من الأموال! من الذي يتحدث عن الأموال في مثل هذا وقت؟

تابعت خطوات الحجاج المتلهفة، وقفت على شاطئ البحيرة، رفعت قبعتي وصوتي لأزيد من الهتاف المحموم الذي رددوه "للسفينة" التي مرت بنا. حقق ذلك الهتاف نجاحا. ركض الكادحون من البحر إلى الشاطئ وارسو قواربهم. وامت الفرحة على وجوه الحاضرين.

"كم السعر؟ أسأله يا فرجسون عن السعر؟ كم يكلف نقلنا جميعا بسرعة (ثمانية أشخاص وأنت) إلى بيت صيدا وإلى مصب الأردن، وإلى المكان الذي ركض منه الخنازير إلى البحر؟ نود أن نبحر على الساحل في كل مكان، في كل مكان! طوال اليوم! أستطيع أن أبحر سنة كاملة في هذه المياه! قل له أننا نريد أن نتوقف في المجدل وننتهي عند طبريا! أسأله كم السعر؟ أي سعر، مهما كان الثمن! قل له أنه لا تهمننا التكاليف!" (قلت لنفسي، هذا ما توقعته).

فيرجسون (بترجم) "يقول 2 نابليون، ثمانية دولارات".

وقع شخص أو شخصين على الأرض وساد الهدوء.

"هذا كثير، سنعطيه واحد فقط."

لا أدرك أبدأ كيف جرت الأمور. ارتجف عندما أفكر كيف حصل هذا المكان على المعجزات، ولكن في لحظة من اللحظات وكما توقعت كانت السفينة على بعد عشرين خطوة من الشاطئ، تبحر بسرعة بعيداً! وقف ثمانية أشخاص مكتئبين على الشاطئ، يا للعجب! هذا، هذا، بعد كل هذه النشوة الغامرة!

آه، نهاية مخجلة ومخزية بعد كل هذا التفاخر غير اللائق! أصبح الأمر وكأنه "هيا! دعوني انقض عليه!" ثم يتبعها حكمة" أنتما اقبضا عليه، وشخص آخر يمسك بي!"

سرعان ما كان هناك عويل وصراخ في المخيم. عرضوا عليهم المزيد من المال، صرخ الحاجج والمترجم وتذرعوا لأصحاب المراكب بالعودة. ولكنهم أبحروا بعيداً بكل طمأنينة ولم يباليوا بالحجاج الذين كان يحلموا طوال حياتهم بقضاء يوم فوق مياه طبريا المقدسة والاستماع إلى قصتها المقدسة وسط همس موجاتها، وقطعوا السهول والبحار للوصول، ثم أدركوا أن التكاليف باهظة جداً. هذه وقاحة العرب المسلمين الذين يعاملون اتباع دين آخرين بهذه الطريقة.

حسناً، لم يكن هناك شيء آخر يمكن القيام به سوى التخلي عن متعة القيام بالرحلة في طبريا، بعد أن قطعنا نصف مساحة العالم لنتذوق هذه المتعة. في قديم الزمان، عندما كان المنفذ يعلم هنا، كان هنا مئات القوارب على الساحل بين الصيادين، لكن لم يعد هنا قوارب ولا صيادين. منذ ثمانية عشر قرناً كان لجوزيفوس أسطولاً حربيًا في هذه المياه ضم مائة وثلاثين سفينة حربية مقاتلة، ولكن جميعاً اكل عليها الدهر وشرب ولم يعد هناك معارك في عرض البحر. يصل الآن عدد السفن البحرية التجارية في طبريا إلى سفينتين صغيرتين فقط على نمط القوارب الصغيرة التي عرفها التلاميذ. ضاع أحد هذه القوارب والقارب الآخر كان بعيداً عن مدى الهتافات. لذلك ركبنا الخيول متجهين نحو المجدل، تعدو خيولنا على طول ضفاف الماء في مسعى للمرور فوقه.

أساء الحجاج إلى بعضهم البعض، وكانوا يتهمون بعضهم بعضاً، وكل منهم ينفى ذلك. المذنبون لم ينبسوا ببنت شفة، لأن التهكم الخفيف ربما كان خطراً في هذا الوقت. المذنبون العرب الذين تعرضوا للذم وعانوا من المواعظ المتكررة بشأن اتباع الأخلاق الحسنة والسفر بشكل بطيء وجدي وانتهاج السلوكيات والتصرفات السليمة دائماً وابدأ لن يتخلفوا خلف الحجاج في وقت كهذا ولن يتغامزوا أو

بيتهجوا أو يرتكبوا أي جرائم أخرى لأنهم لن يجرؤوا على القيام بذلك. ومع هذا فعلوا ذلك، وطاب لهم الاستماع إلى الحجاج يشتمون بعضهم بعضا. شعرنا بارتياح لا يليق عندما رأيناهم يتشاجرون بين الفينة والأخرى لأن ذلك دل على أنهم مجرد بشر مساكين مثلنا مثلهم.

لذلك ركبنا وسرنا نحو المجدل بينما يسود الغضب والحزن وجوه الجميع وتملا صيحاتهم أرجاء الجليل.

حتى لا يعتقد أحد بأنني سيء النية عندما أتحدث عن حاجتنا، أود أن أقول بكل إخلاص بأنني لست كذلك. أنا لا استمع إلى مواعظ من أناس لا أحبهم ولا احترامهم، ولا يمكن لاحد من الحجاج أن يقول بأنني قلت من قيمة مواعظهم، أو كنت منزعا من كثرة المآزق، أو عجزت عن الاستفادة مما قالوه لي. هؤلاء الرجال أفضل مني، واعترف بذلك بكل صدق، وهم أصدقاء جيّدون لي. إضافة لذلك، اذا كانوا لا يرغبون في إثارة الصحف عليهم أحيانا، فلماذا قرروا أن يسافروا معي أصلا؟ لقد عرفوني وعرفوا طريقي الليبرالية في الحياة، أنا أحب أن أعطي وان اخذ، أنا أعطي والآخرين يأخذون مني. عندما هددني ادهم بتركي في دمشق عندما أصبت بالكوليرا لم يكن لديه نية حقيقية للقيام بذلك، فأنا اعرف طابعه العاطفي ودوافعه الجيدة. الم اسمع حاجا آخر، اسمه (الكنيسة)، يقول أنه لا يهتم من يذهب أو من يبقى، وأنه سيقف إلى جانبي حتى أغادر دمشق مشيا أو محمولا في تابوت حتى لو بعد سنة؟ ألا انكر (الكنيسة) في كل مرة اعتدي فيها على الحجاج، وهل يمكن أن أتكلم عنه بسوء نية؟ أود فقط أن أثيرهم واجعلهم أكثر صدقا، وهذا كل شيء.

تركنا ورائنا كفر ناحوم، خرابا بلا شكل، لا تشبه أي مدينة، ليس فيها ما يدل أنها كانت مدينة في الماضي، كانت أرضا مفقرة خالية من الناس، لكنها كانت أرضا لامعة ومعروفة نبتت فيها تلك الشجرة المسيحية التي القت أغصانها الواسعة الظلال على العديد من الأراضي البعيدة. بعد أن اغرى

الشیطان عیسی المسيح وجاء به إلى الصحراء، قدم إلى هذه الأرض وبدأ تعالیمه، وبعد ثلاث أو أربع سنوات أصبح هذا المكان منزله تماما. بدأ بشفاء المرضى، وسرعان ما انتشرت شهرته على نطاق واسع حتى جاء المرضى الیه من سوريا والأردن والقدس ومناطق بعيدة طلبا للشفاء. شفى خادم القائد الروماني وأم زوجة بطرس وأعداد كبيرة من المصابین بالعرج والعمی والمس، كما أحيا ابنة جايروس. ركب السفينة مع الحواریین، وعندما أيقظوه من النوم في خضم العاصفة صاح بصوته فهذا الريح وسكن البحر الهائج. وصل إلى الجانب الآخر، على بعد بضعة أميال، وشفى رجلین أصابهما المس من الشیطان. بعد عودته دعا (متى) من جلب الضرائب، وشفى بعض المرضى، لكنه سبب فضيحة لأنه تناول الطعام مع المذنبین وجابي الضرائب. تابع علاج الناس وألقاء المواعظ في الجليل وصور وصيدا. اختار تلاميذه الحواریین الاثني عشر، وأرسلهم للتبشير بالإنجيل الجديد. صنع المعجزات في قرية بيت صيدا وقرية كورزين، على بعد ثلاثة أميال من كفر ناحوم. يقال أن معجزة السمك وقعت بالقرب من إحدى هذه القریتین، وبالقرب من القرية الأخرى أطمع الآلاف من خلال معجزات الأرغفة والأسماك. لعن المسيح كلا من هاتین القریتین، ولعن كفر ناحوم أيضا لان أصحابها لم يتوبوا بعد كل الأعمال العظيمة التي قام بها من أجلها وتتبا بخرابها. وهي الآن مدمرة بالكامل وهذا ما يتلج صدر الحجاج لأنهم يطابقون كلام الآلهة على الأشياء الزائلة على هذه الأرض. ومن الممكن أن المسيح أشار إلى الناس، وليس إلى قراهم الرثة، وقال انهم سيندمون "يوم القيامة"، ماذا ستفعل هذه الأكواخ الطينية يوم القيامة؟ إنها لن تؤثر على النبوءة حيث إنها لن تثبت صحتها أو تدحضها حتى لو كانت هذه القرى الآن مزدهرة بدلا من الانقراض التي اختفت تقريبا. زار المسيح المجدل بالقرب من كفر ناحوم، وزار أيضا قيصرية فيليبس (بانياس). ذهب إلى بيته القديم في الناصرة وزار أخوته يوسي ويهوذا ويعقوب وسمعان الذين يتوقع المرء أن يسمع أسمائهم في مكان ما كونهم أخوة المسيح، ولكن من رأى أسمائهم في صحيفة أو سمع عنها من

على المنابر؟ لا أحد يسأل عن أخلاقهم أو سلوكهم أو هل ناموا عند المسيح أو لعبوا معه أو تسابقوا معه في الجري أو تشاجروا معه في اللعب أو ضربوه وقت الغضب لانهم لم يعرفوا من هو؟ من الذي يتساءل ما الذي فكروا فيه عندما عاد إلى الناصرة بعد أن ذاعت شهرته وهل نظروا إلى وجهه غير المؤلف ليتأكدوا منه "أأنت السيد المسيح؟" من الذي يتساءل ما الذي دار في عقولهم عندما رأوا هذا الأخ (الذي كان مجرد أخ لهم، الذي كان بالنسبة للآخرين الشخص الغريب الغامض الذي وقف وجهها لوجه أمام الله فوق الغيوم) يصنع المعجزات أمام حشود الناس المندهبين؟ من الذي يتساءل ما إذا كان إخوة يسوع المسيح طلبوا منه العودة إلى البيت معهم وقالوا له إن والدته وشقيقاته يحزن على فراقه الطويل وحلت الفرحة على وجوههن لرؤية وجهه مرة أخرى؟ من الذي يذكر أو حتى يفكر في أخواته؟ كان له أخوات ولا بد أنهن خطرن في باله عندما أساء الغرباء معاملته وعندما كان بلا مأوى حيث لم يجد مكانا يرتاح فيه وعندما تخلى عنه الجميع حتى بطرس، ووقف وحيدا بين أعدائه.

صنع عيسى المسيح بعض المعجزات في الناصرة لكنه بقي هناك لفترة قصيرة، قال الناس "هذا، ابن الله! لماذا، أبوه لم يكن سوى نجار، نحن نعرف العائلة، نراهم كل يوم، اليس أسماء أخوته كذا وكذا وأسماء أخواته كذا وكذا وامه المرأة التي يسمونها مريم؟ هذا امر عجيب." لم يلعن المسيح قومه ولكن نفخ الغبار عن حدائه وولى بعيدا.

تقع قرية كفر ناحوم بالقرب من شاطئ بحيرة طبريا في سهل صغير يبلغ طوله خمسة أميال وعرضه ميل أو ميلين تزيينه نباتات الدفلى وتبدو جميعا أفضل وأجمل من التلال الجرداء والصحاري الجافة التي تحيط بها، ولكنها ليست شديدة الجمال كما تصفها الكتب. إذا كان المرء هادئا وحازما فانه يستطيع أن ينظر إلى جمالها ويعيش.

من اغرب الأمور التي لاحظتها هو صغر مساحة الأرض التي انطلقت منها الديانة المسيحية المزدهرة اليوم. أطول رحلة قام بها المنقذ كانت من هنا إلى مدينة القدس، حوالي مائة إلى مائة وعشرين ميلاً، الرحلة الطويلة الأخرى كانت من هنا إلى مدينة صيدا، على بعد ستين أو سبعين ميلاً تقريباً. بدلاً من الأراضي الواسعة المترامية الأطراف، الأماكن التي تواجد فيها المسيح كلها هنا تقريباً على مرأى ومسمع منا، قريبة من كفر ناحوم. بغض النظر عن رحلتين أو ثلاثة رحلات قام بها المنقذ، فقد أمضى حياته كلها وبشر بالإنجيل وصنع المعجزات في أرض لا تزيد مساحتها عن مساحة مقاطعة عادية في الولايات المتحدة الأمريكية. ولا بد أن المرء يتعب من قراءة مائة صفحة من التاريخ كل اثنين أو ثلاثة أميال، فالقرى في فلسطين قريبة جداً من بعضها البعض. كم هو متعب، كم هو محير رؤية هذه القرى منتشرة من حولك!

في ذلك الوقت كنا قد وصلنا إلى المجدل.

الفصل 48

المجدل ليست مكاناً جميلاً، إنها أرض سورية بكاملها، قبيحة، ضيقة، بأئسة، غير مريحة، قذرة، مثلها مثل المدن الموجودة منذ زمن آدم كما حاول الأدياء جاهدين إثبات ذلك، ونجحوا فعلاً. شوارعها قذرة، يتراوح عرضها بين ثلاثة إلى ستة أقدام، وارتفاع المنازل فيها من خمسة إلى سبعة أقدام، جميعها مبنية حسب خطط اعتباطية، جدرانها مطلية بالجص الأبيض السلس، تملؤها أقراص من روث الإبل وضعت لتجف. هذا الشكل يضفي على البيوت مظهراً رومانسياً إذ إنها مزخرفة بكرات المدفع، كما أنه يضفي عليها شيئاً من خصائص الحرب. عندما يرتب الفنان المواد مع مراعاة النسب العادلة (الرقائق الصغيرة والكبيرة مرتبة في صفوف متعاقبة ومفصولة بفواصل دقيقة) فلا شيء يبهجني أكثر من النظر إلى لوحة جصية سورية حية. السقف الجصي المسطح مزخرف برزم

خلاية من المواد الجصية التي وضعت هناك في وضع ملائم للغاية بعد أن جفت، وهي تستخدم كمصدر للوقود، فلا يوجد أخشاب من أي نوع في فلسطين يمكن إهداره في إشعال النار ولا يوجد فحم أيضا. وإذا كان هذا الوصف واضح، فسوف يدرك المرء الآن أن كوخا مربع الشكل وسقفه مسطح جدرانه مزخرفة بعناية قمم جدرانه محصنة بشجاعة تعلوها أبراج من روث الإبل المجفف يعطي هذا المشهد الطبيعي بهجة وجمال، ولا سيما إذا حرص المرء على وضع قطة في مكان ما. والكوخ السوري ليس له نوافذ أو مداخن. عندما قرأت أنهم ادخلوا رجلا طريح الفراش إلى الأسفل من خلال السقف في كفر ناحوم لإيصاله إلى المنقذ ظننت أن هناك ثلاثة طوابق من الطوب، واستغربت أن رقبتة لم تنكسر من خلال هذه التجربة الغربية. ولكني أدرك الآن أنهم ربما امسكوه من رجليه ورموه على سطح المنزل دون التسبب في إيذائه. لم تتغير فلسطين منذ تلك الأيام سواء في العادات أو التقاليد أو العمارة أو الناس.

عندما ركبنا إلى المجدل لم نر أي مخلوق. لكن صوت حوافر الخيول أثار السكان الأغبياء الذين خرجوا واحتشدوا في الشوارع مثل الجراد، كبار السن والفتيان والفتيات والمكفوفين والمجانين والمتسولين والمعاقين خرجوا جميعا بملابسهم الخشنة المتسخة الرثة، خرج جميع المتسولين بطبيعتهم وغريزتهم وثقافتهم. يا للعجب، كيف احتشد هؤلاء المتشردين الذين أكلهم الدود! كيف أظهروا الجروح والقروح وأشاروا إلى أطرافهم المشوهة والملتوية وتوسلوا بعيونهم المستعطفة! لقد أشعلنا نارا لم نتمكن إخمادها. تعلقوا بأذنان خيولنا، وتشبثوا بأعناقها، ومن حناجرهم الكافرة انفجرت جوقة جهنمية مؤلمة بصوت واحد: " بغشيش يا خواجه! خواجه بغشيش! خواجه بغشيش! بغشيش! بغشيش! " لم أر في حياتي عاصفة مثل هذه.

وبينما كنا ندفع البغشيش للأولاد ذوي العيون الملتهبة والفتيات ذوات البشرة السمراء والصدور الممتلئة اللواتي تملأ الاوشام شفاهن وذقونهن، مررنا عبر طرق القرية بين بيوت الجص الرائعة حتى وصلنا إلى ارض مسيجة مليئة بنباتات العليق وخرائب رومانية كانت المسكن الحقيقي للقديسة مريم المجدلية التي كانت أحد أصدقاء واتباع المسيح. الحارس صدق الرواية وكذلك أنا. لم أستطع أن افعل غير ذلك أيضا وانا أرى البيت أمام عيني في وضوح النهار. قطع الحجاج أجزاء من الجدار الأمامي كعينات كما هي العادة ثم غادرنا المكان.

أقمنا الآن معسكرا في هذا المكان داخل أسوار مدينة طبريا. ذهبنا إلى مدينة طبريا قبل حلول الظلام ونظرنا إلى سكانها، لم نعر منازلهم أي اهتمام. أفضل طريقة لمعرفة سكانها هي رؤيتهم عن قرب. سكانها من اليهود والعرب والزنوج قبيحو المنظر، وتشتهر بالقذارة والفقر. ترتدي النساء مهورهن المرتبة على سلك قوي ينحني إلى الأسفل من اعلى الرأس حتى الفك، وهي قطع فضية عثمانية جمعتها الصبايا أو وراثتها. لم تكن معظم هذه النساء من الثريات، ولكن كان البعض منهن يملكن ثروة من الإرث. رأيت احدى الوريثات الثريات، ويمكنني القول أن ثروتها تساوي قدر تسعة دولارات ونصف، ولكنها هذه حالات نادرة. عندما تمر عن احدى هؤلاء النسوة، بطبيعة الحال لا تعيرك أي اهتمام، ولا تطلب منك بغشيش، ولا تسمح لك بالاختلاط غير المبرر. تمشي الهويينا بعز وكرامة، وتمر في هدوء وسكينة تحمل مشطا له أسنان جميلة تحكي أبياتا من الشعر كما لو أنك غير موجود أمامها على الإطلاق. فبعض الناس لا يطيقون العز والرخاء.

يقولون أن سارقوا الجثث والقبور ذوي الأنوف الطويلة النحفاء الذين يبدو عليهم الكآبة ويلبسون قبعات لا وصف لها وأمام كل إذن تتدلى جديدة شعر طويلة هم المنافقين القدماء المعروفين بتقوى النفس الذين قرانا عنهم في الكتاب المقدس. في الحقيقة، هؤلاء السكان هم المنافقين أنفسهم. إذا حكمنا

عليهم فقط من خلال أسلوبهم العام ودون الحصول على أدلة أخرى فمن السهل على الإنسان أن يدرك بأن التبريرية كانت من اختصاصهم.

جمعت معلومات حول طبريا من مختلف الهيئات. بناها هيرود أنتيباس حاكم الجليل وهو من كان مسئولا عن إعدام يوحنا المعمدان وأيضا شارك في محاكمة يسوع قاتل يوحنا المعمدان، وسميت نسبة إلى الإمبراطور تيبيريوس. يعتقد أنها تقع فوق مدينة تمتعت بالملاح المعمارية الهامة التي تتضح من خلال الأعمدة الرخامية الجميلة التي تنتشر فيها وأسفل شاطئ البحيرة جنوبا. كانت هذه الأعمدة محددة ولكن تقريبا اختفت هذه الأخاديد منها بالرغم من صلابة الصخور. وكانت هذه الأعمدة صغيرة الحجم، ولكنها بلا شك زينت الأماكن التي تميزت بأناقته أكثر من عظمتها. هذه المدينة الحديثة طبريا ذكرت في العهد الجديد فقط ولم يرد ذكرها في العهد القديم.

التقى السانهيدريم (المحكمة العليا لليهود القدماء أثناء فترة المعبد الثانية) هنا الماضي، كانت طبريا عاصمة لليهود في فلسطين لمدة ثلاث مائة سنة، وهي إحدى المدن المقدسة الأربعة لدى بني إسرائيل، كما هو حال مكة المكرمة عند المسلمين والقدس عند المسيحيين. كانت مسقط رأس العديد من حاخامات اليهود من المتقنين والأدباء. وهم مدفونون هنا، وبالقرب منهم يوجد قبور خمسة وعشرين ألفا من اتباعهم الذين سافروا إلى هنا ليكونوا بالقرب منهم حينما عاشوا وعندما ماتوا. أمضى حاخام إسرائيل الأكبر (بن) ثلاث سنوات من حياته هنا في أوائل القرن الثالث.

بحيرة طبريا ليست كبيرة المساحة مثل بحيرة تاهو حيث تصل مساحتها إلى حوالي ثلثي مساحة بحيرة تاهو. عند الحديث عن الجمال، لا يمكن مقارنة جمال هذه البحيرة مع جمال بحيرة تاهو. مياهها القاتمة لا تضاهي الإشراق الشفاف لبحيرة تاهو، وهذه التلال الصفراء الجرداء المنخفضة المكونة من الصخور والرمال لا تضاهي روعة القمم الكبرى التي تحيط ببحيرة تاهو والمغطاة

بأشجار الصنوبر الفخمة التي يبدو أنها تصغر كلما نمت حتى يخيل للناظر أنها مجرد حشائش وشجيرات تعانق الثلوج الأبدية. تتم بحيرة تاهو بالصمت والعزلة، كما يعم الصمت والعزلة فوق طبريا أيضا. ولكن العزلة حول بحيرة تاهو لها رونق وروعة بينما العزلة حول طبريا كثيبة ومثيرة للاشمئزاز.

في الصباح الباكر يشاهد المرء معركة صامتة بين الفجر والظلام حول مياه بحيرة تاهو. عندما تبتعد الظلال بائسة وتبدأ الجوانب الجميلة الخفية للشاطئ بالظهور واحدة تلو الأخرى في زهوة الظهيرة، عندما يلف حول سطحها الساكن طوق من الخطوط العريضة بالألوان الأزرق والأخضر والأبيض، في الصيف في الفترة الكسولة بعد الظهر، عندما يجلس في قارب بعيدا عن بداية زرقة المياه العميقة يدخل غليون السلام ينظر بكسل إلى شقوق وبقع الثلج البعيدة من أسفل حافة قبعته، عندما ينحرف القارب نحو المياه البيضاء، عندما ينحني فوق حافة القارب العليا ينظر كل ساعة إلى أعماق الماء الكريستاليه يلاحظ ألوان الحصى يستعرض جيوش السمك تسبح في مواكب في عمق الماء، عندما يشاهد القمر والنجوم في الليل وعلى قمم الجبال تنتشر أشجار الصنوبر مثل الريش لها رؤوس بيضاء اللون وجروف بارزة وامتدادات كبيرة من المشاهد الوعرة تعلوها القمم الجرداء البراقة، تبدو جميعها في صورة بصورة رائعة في مرآة البحيرة المصقولة ذات التفاصيل الغنية الناعمة، تتعمق الرغبة الهادئة التي ولدت مع الصباح حتى يتوج أخيرا في سحر لا يقاوم.

الطيور والسناجب على الشاطئ والأسماك في المياه هي المخلوقات القريبة التي يمكن ان تغير العزلة عند البحيرة، ولكنها ليست العزلة التي تصيب المرء بالاكنتاب. لذلك تعالوا أيها الناس إلى الجليل. هذه الصحارى الخالية من السكان وهذه التلال القاحلة لن تزيل الوهج من خطوطها القاسية ولن تتلاشى وتتحول الى مشهد غامض، هذا الخراب المحزن في كفر ناحوم، قرية طبريا الغبية تغفو

تحت الأعمدة الحزينة الستة من النخيل، الانحدار المهجور الذي ركضت فيه خنازير المعجزة نحو البحر لأنها ظنت انه من الأفضل لها ابتلاع شيطان أو شيطانين والانغماس في المقايضة بدلا من العيش في هذا المكان، هذه السماء الصافية القاسية، هذه البحيرة المهيبة بلا الوان بلا قوارب بلا اشعره عادت إلى مكانها ضمن حافة من التلال الصفراء المنخفضة والصفاف الحادة، تبدو بلا تعابير أو أشعار مثلها مثل أي مدينة في العالم المسيحي، إذا كانت هذه الأمور ليست طعاما يدفعني إلى النوم فعلى ما أعتقد لا يوجد إذن لي أم على الإطلاق.

ولكن لا ينبغي تقديم أدلة المرافعة فحسب دون الاستماع إلى موقف الدفاع. يشهد ويليام غرايمز مقسما على ما التالي:

"ركبنا سفينة للذهاب إلى الجانب الآخر. لم يزد عرض البحر عن ستة أميال. مع ذلك، بالنسبة لجمال هذا المكان يعجز لساني عن القول بما يليق به، لا أستطيع أن أتخيل أين وقعت عيون أولئك المسافرين الذين وصفوا منظر البحيرة بأنه ممل أو الياف. ومن أهم ما يميزها الحوض العميق الذي تقع فيه، عمقه من ثلاثة مائة إلى أربع مائة أقدام من جميع الجهات ما عدا النهاية السفلى، ضفافه شديدة الانحدار مليئة بالأعشاب الخضراء تعج بالممرات المائية والوديان التي تشق طريقها إلى أسفل عبر جوانب الحوض وتشكل صدوعا مظلمة أو وديانا خفيفة الشمس. بالقرب من طبريا، هذه الضفاف صخرية فيها قبور قديمة تتجه أبوابها نحو الماء. كما فعل المصريون القدامى اختاروا مواقع كبيرة لأماكن الدفن، يبدو لو أنها صممت بحيث انه عندما يصل صوت الله إلى النائمين يسير الموتى للأمام ويفتحون عيونهم على مشاهد من الجمال البهي. إلى الشرق، تتناقض الجبال البرية المقفرة مع البحيرة العميقة زرقاء اللون، وإلى الشمال ينظر جبل الشيخ الشامخ والمهيبة إلى الأسفل نحو البحر رافعا تاجه الأبيض نحو السماء مفتخرا بتلك التلة التي شهدت على خطى المغادرين منذ مئات

السنين. على الشاطئ الشمالي الشرقي من البحيرة كان هناك شجرة وهي الشجرة الوحيدة التي يمكن رؤيتها من مياه البحيرة باستثناء بعض أشجار النخيل في مدينة طبريا، ونظرا لموقعها الفريد تجذب اهتمام الناس اكثر من غابة بأكملها. المنظر الكامل للمشهد هو بالضبط ما كنا نتوقعه ونرغب في رؤيته في منظر بحيرة طبريا: جمال عظيم ولكن هدوء تام. الجبال هادئة للغاية".

هذا وصف بديع مكتوب بشكل بارع للخداع. ولكن إذا أزلنا الطلاء والشرائط والزهور عنه سنجد تحته هيكلًا عظيمًا.

بعد هذا التجريد، لا يزال هناك بحيرة عرضها ستة أميال ذات ألوان محايدة وشفاف خضراء شديدة الانحدار تغطيها الشجيرات، في احدى أطرافها يوجد صخور جرداء بشعة فيها ثقب لا تتناسق مع شكل الصورة، في الشرق يوجد "جبال برية مقفرة"، في الشمال يوجد جبل الشيخ الذي تغطيه الثلوج، ومن خصائص هذا المشهد "الهدوء" ومن سماته البارزة شجرة واحدة.

ليس هناك أبداع يستطيع خلق مثل هذه صورة جميلة، حسب رؤية الفرد الفعلية.

احتفظ بحقي في تصحيح الأخطاء، ولهذا صححت لون الماء في الخلاصة أعلاه. مياه بحيرة طبريا تتميز بلونها الأزرق الفاتح حتى من ارتفاع عالي وعلى مسافة خمسة أميال. وعن قرب (الشاهد كان يبحر في البحيرة) ليس من المناسب وصف هذه المياه بانها زرقاء اللون بل لونها ازرق "غامق". أود أن أقول أيضا، ليس تصحيحا ولكن كرأي شخصي، أن جبل الشيخ هو ليس جبلا مدهشا أو رائع الجمال بكل الأحوال لان ارتفاعه يقرب من ارتفاع الجبال الأخرى حوله. هذا كل شيء. أنا لا اعترض على قيام الشاهد بالصعود على الجبل مسافة خمسة وأربعين كيلومترا لإلقاء نظرة على المشهد، لأنه هذا هو الفعل الصحيح، إضافة إلى إن الصورة تحتاج إلى ذلك.

يقول مؤلف كتاب "الحياة في الأرض المقدسة" شاهدا على ما يلي:

"تقع بحيرة جميلة بارزة بين تلال الجليل، وسط تلك الأرض التي امتلكها زبولون ونفتالي وآشر ودان في قديم الزمان. السماء الصافية تخترق أعماق البحيرة، المياه عذبة وباردة. في الغرب، تمتد السهول الخصبة الواسعة، في الشمال ترتفع الشواطئ الصخرية خطوة خطوة حتى تصل إلى الثلوج على مرتفعات جبل الشيخ، وفي الشرق يمكن رؤية سهول بيريا المرتفعة من خلال الضباب تمتد بعيداً في الجبال الوعرة المؤدية إلى العقل من خلال الطرق المتنوعة المتجهة نحو القدس المقدسة. تتفتح الزهور على جنة الأرض الجميلة والمخضرة حولها الأشجار المائجة، الطيور المغردة تطرب الأذان، طير الحمام يهدى النفوس بصوته الناعم، عصفور القبرة يرسل أغنيته نحو السماء، طائر اللقلق الوقور والفخم يلهم العقول يدفعها إلى التأمل والسكون. كانت الحياة هنا مثالية وفاتنة، لم يكن هنا لا أغنياء ولا فقراء لا طبقات عالية ولا طبقات دنيا، كان عالم السهولة والبساطة والجمال، أصبح الآن مشهداً من الخراب والبؤس."

هذا ليس مشهداً بارعاً، انه أسوأ مشهد رأيته في حياتي، يصف التفاصيل الدقيقة لما يسمى "جنة الأرض"، وينتهي بمعلومة مذهلة بأن هذه الجنة هي الآن "مشهد من الخراب والبؤس."

قدمت نموذجين يتسمان بالعدل والتوسط حول طابع الشهادة التي يقدمها غالبية الكتاب الذين يزورون هذه المنطقة. الأول يقول: "لا أستطيع أن أقول ما يكفي حول جمال المشهد"، ثم يتابع إلى التستر من خلال نسيج من الجمل المتألفة على الشيء الذي يبرهن على أنه مجرد حوض غير بارز من الماء، وبعض الجبال المنعزلة، وشجرة واحدة. وبعد جهد واعي لبناء جنة الأرض من نفس المواد مع إضافة "طائر اللقلق الوقور والفخم" يفسدها الثاني بالكامل من خلال التخبط في الحقيقة المروعة في النهاية.

لا تشير جميع الكتب إلى منظر الجليل وبحيرته بأنه مشهد جميل بشكل واضح. أحيانا يشير الكاتب إلى أنه جميل، ولكن في نفس الوقت يحرص على عدم الإشارة إلى ذلك بلغة صريحة. يبين التحليل الدقيق لهذه الأوصاف بأن المواد التي تشكلت منها هذه الأوصاف ليست جميلة بمفردها وانه لا يمكن تحويلها إلى مجموعات جميلة. التبجيل والمودة التي أحس بها بعض هؤلاء الكتاب نحو المشاهد التي تحدثوا عنها أثرت على مخيلاتهم وأحكامهم، إلا أن الكذب والتزييف المبهج الذي كتبه كان مليئا بالإخلاص الصادق. وتبع الآخرون خطاهم وكتبوا نفس الشيء لأنهم كانوا يخشون من عدم اشتهاج كتاباتهم إذا خالفوا الآخرين المنافقين الذي أرادوا خداع الناس. وإذا سألت أحدهم فسوف يقول انه كان دائما على حق والأفضل قول الحقيقة دائما. هم سيقولون ذلك في كل الأحوال لأنهم لا يدركون خفايا السؤال.

ولكن لماذا لا نبوح بحقائق هذه المنطقة؟ هل قول الحقيقة يسبب الضرر؟ هل كان هناك حاجة لإخفائها أكثر من أي وقت مضى؟ خلق الله بحيرة طبريا والمناطق المحيطة بها كما هي، فهل وظيفة غرايمز هي تحسين هذا الخلق؟

من فحوى الكتب التي قرأتها أنا متأكد من أن الكثيرين الذين زاروا الأرض على مر السنين كانوا أعضاء في الكنيسة المشيخية من الطائفة المسيحية الذين جاؤوا للبحث عن ادله لتأييد أفكارهم، فقد عثروا على العقيدة المشيخية المسيحية في فلسطين وقرروا أن لا يبحثوا في مكان آخر على الرغم من انهم لم يدركوا ذلك لان حماسهم عما هم عن الحقيقة. الآخرون كانوا من الطائفة المعمدانية الذين بحثوا عن الأدلة المعمدانية وفلسطيني المعدادن. آخرون كانوا من طائفة الكاثوليك، الطائفة الميثودية، الطائفة الأسقفية الذين كانوا بحثوا عن الأدلة التي تدعم العقائد الخاصة بطوائفهم. ومع أن نوايا هؤلاء الرجال بدت صادقة، إلا أنها كانت مليئة بالتحيزات والأفكار المسبقة حيث انهم دخلوا هذه البلاد مع

أحكام جاهزة بالفعل لذا لم يمكنهم الكتابة بنزاهة وحيادية. جلب الحجاج أحكامهم معهم إلى هنا، وتجلّى ذلك في حديثهم منذ أن غادرنا بيروت. أستطيع أن اعبر تقريبا عما سيقولونه عندما يرون الطور والناصره وأريحا والقدس لأن لدي كتب "يلطخون" أفكارهم منها. هؤلاء الكتاب الفوا صورا وملاحم شعريه، وتبعهم الآخرون ونظروا إلى الأمور بعيون المؤلف بدلا من عيونهم، وتحدثوا بلسانه. أقوال الرجال في طبريا أثارت الدهول لدي، وهذا ما وجدته في روبنسون. وما قالوه عندما وقعت عيونهم على طبريا بسحرها وجمالها وجدته في كتاب "الأرض والكتاب" للمؤلف تومبسون. تحدثوا في كثير من الأحيان عن رغبتهم في وضع رؤوسهم على حجر في بيت إيل كما فعل يعقوب وإغلاق عيونهم القاتمة وتخيل نزول الملائكة من السماء على سلم. كان هذا امر جميل للغاية. لكنني في النهاية ادركت الراس المتعب والعيون القاتمة. لقد افترضوا الأفكار والكلمات والبناء وعلامات الترقيم من الأديب غرايمز. وعندما يعودون إلى بلادهم سيتحدث الحجاج القادمين عن فلسطين ليس كما راوها ولكن كما بدت لطومسون وروبينسون وغرايمز مع الأصباغ المعدلة التي تناسب مع عقيدة كل حاج منهم.

المعسكر هادئ والحجاج والمذنبون والعرب جميعا نائمون الآن. العمل في الوحدة امر مزعج، بعد أن كتبت بعض الملاحظات جلست خارج خيمة لمدة نصف ساعة حيث أن الليل هو الوقت المناسب لرؤية الجليل. تتألق طبريا تحت هذه النجوم اللامعة تحت انعكاسات كواكب النجوم لذا اشعر بالاسى لأنني رأيت ضوء النهار الفظ يسطع عليها. تاريخها وما يرتبط به هو السحر الذي يميزها في أذهان كل الناس، هذا السحر الذي تنسجه أفضل بكثير من ضوء الشمس. نحن لا نشعر بالكبت، إذ أن أفكارنا تبحث باستمرار عن الاهتمامات العملية في الحياة وترفض أن تسكن في أشياء تبدو غامضة وغير واقعية. عندما يخيم الليل يستسلم كل إنسان (حتى عديم الإحساس) لهذه التأثيرات الحاملة للنجوم الهادئة. فالتقاليد العريقة لهذا المكان تسرق منه ذاكرته وتورقه من أحلامه، وتملا أوهامه

بالأضواء والأصوات الخارقة. في الأمواج المرتطمة على الشاطئ يسمع الإنسان غطس المجاذيف الشبحية، وفي ضوضاء الليل السرية يسمع أصوات الأرواح، وفي هبة النسيم العليل يسمع صوت الأجنحة الخفية. من سفن الأشباح في البحر يخرج الموتى من المقابر من القرون الغابرة، وفي الألحان الحزينة في رياح الليل تجد الأغاني القديمة المنسية الكلام مرة أخرى.

تحت ضوء النجوم، الجليل لا حد له سوى فضاء السماء الواسع، كان مسرحا للأحداث الكبرى، ولدت فيه الأديان التي أنقذت العالم، كان مسرحا لشخصية عظيمة وقف على منصته ونادى بالمبادئ المثلى. ولكن تحت ضوء الشمس يقول المرء: هل من أجل الأعمال التي تم القيام بها والكلمات التي قيلت في هذا الأرض الصغيرة من الصخور والرمال قبل ثمانية عشر قرنا تدق الآن الأجراس في جزر نائية في البحر وفي كل القارات على وجه هذه الكرة الأرضية الضخمة؟

لا يمكن للمرء أن يفهمه إلا عندما يخفي الليل جميع التناقضات وينشئ مسرحا يناسب أعظم عمل درامي.

الفصل 49

سبحنا مرة أخرى في بحيرة طبريا وقت الشفق يوم أمس، ثم سبحنا مرة أخرى عند شروق الشمس صباح اليوم. لم نقم بالإبحار في الأشرعة ولكن السباحة ثلاثة مرات تساوي الإبحار بكل تأكيد. كان هناك الكثير من الأسماك في الماء، ولكن لم يكن لدينا أدوات صيد تعيننا في هذا الحج سوى "حياة الخيمة في الأرض المقدسة"، "الأرض والكتاب" وغيرها من المؤلفات المشابهة. كما انه لا توجد أسماك للشراء في طبريا. رأينا اثنين أو ثلاثة من المتشردين يصلحون شباكهم لكنهم لم يحاولوا صيد أي شيء بها.

لم نذهب إلى الحمامات الحارة القديمة على بعد ميلين. لم يكن لدي رغبة في الذهاب إلى هناك، وهذا يبدو غريباً بعض الشيء، الأمر الذي دفعني إلى محاولة اكتشاف سبب هذه اللامبالاة غير المعقولة. واتضح أن السبب ببساطة هو أن بلني ذكرها. اضن أن لدي نوعاً من الجفاء غير اللائق تجاه بلني والقديس بولس لأنه يبدو إنني لا أستطيع إيجاد مكان لنفسي. يستشف دائماً وأبداً أن القديس بولس جاء إلى هذا المكان وان بلني "ذكره".

في الصباح الباكر ركبنا وسرنا. سار شبح غريب على رأس موكبنا، ظننت انه قرصان، لا أدرى إذا عاشت القرصنة على هذه الأرض يوماً ما. كان عربياً طويل القامة، اسمر البشرة مثل الهنود، في الثلاثين من عمره. كان يعتمر على رأسه على عمامة من الحرير مخططة بالألوان الأصفر والأحمر الرائعة، لها أهداب تتدلى على كتفيه ترفرف مع الريح. ومن رقبته إلى ركبتيه ينسدل رداء له طيات وافرة وهو عبارة عن راية مرصعة بالنجوم عليها خطوط منحنية ومتعرجة بالألوان الأبيض والأسود. ويخرج من ظهره ذراع طويلة من الشباك يعلو كتفه الأيمن. ويعلو كتفه الأيسر صمغ عربي من عهد صلاح الدين الأيوبي يتقاطع مع ظهره قطرياً، له صفيحة فضية من المخزون الواضح حتى نهاية امتداد برميل لا قياس له. كان يربط حول خصره العديد من الأشياء البارزة بشكل متقن ولكنها مشوهة للأسف، وبين الطيات الفضفاضة أمام أشعة الشمس تلالأت المسدسات المطلية بالنحاس القديم والسكاكين الذهبية المتعطشة للدم. كان هناك حافظات لمزيد من المسدسات مربوطة بكومة رائعة من السجاد الفارسي المصنوع من جلود الماعز ذات الشعر الطويل، والتي تعتبر جزءاً هاماً من السرج. ومن بين الصف المتدلي من الشرايات التي تتأرجح من ذلك السرج وتصدر رنيناً عندما تحنك بالمجرفة المعدنية للركاب الذي يدعم ركبتي المحارب نحو ذقنه، كان هناك سيف ملتوي فضي اللون منظره فظيع يخاف منه كل من يراه. الأمير الذي يلبس ملابس غير

لائقة يركب مهرا ويقود الفيل إلى قرية ريفية هو امير فقير وعاري بالمقارنة مع هذه الفوضى من الأدوات، كما أن الغرور السعيد لأحدهما هو قلة الرضى بالمقارنة مع الطمأنينة المهيبة للآخر.

"من هذا؟ ما هذا؟" كان هذا هو التساؤل طوال الوقت.

"هذا حارسنا! من الجليل إلى مسقط رأس السيد المسيح تعج هذا البلاد بالبذو الشرسين الذين تتمثل

سعادتهم الوحيدة في تقطيع وطعن وقتل المسيحيين المسالمين. الله معنا!"

"إذن استأجروا كتيبة! هل تقومون بإرسالنا بين هذه الجحافل اليائسة مع انه لا منقذ لنا وقت الشدة

سوى هذا البرج القديم؟"

ضحك الحارس، لم يضحك على ظرافة التشبيه (الحارس الذي لم يعيش ابدأ على الأرض لم يكن لديه

اقل تقدير لفهم النكتة مع أنها كانت نكتة واسعة ومملة حتى أنها لو سقطت عليه فسوف تجعله

مسطحا مثل طابع البريد)، ضحك الحارس، ثم انتقل إلى اقصى الدرجات وغمز، ولا شك أن بعض

الأفكار في دماغه جعلته أكثر جرأة على فعل ذلك.

عندما يضحك رجل في أوقات الشدة فان غمزاته تقدم طمأنة إيجابية. قال لنا الحارس أخيراً أن دليلا

واحدا يكفي لحمايتنا، ولكن وجوده ضروري للغاية لان وجوده معنا له وزن أخلاقي من شأنه أن

يؤثر على البدو. قلت له أننا لا نحتاج إلى أي دليل على الإطلاق، وانه إذا كان منتشر رافع قادر

على حماية ثمانية مسيحيين مسلحين وبعض العبيد العرب من الأذى والضرر، فمن المؤكد أن أفراد

هذه الكتيبة قادرين على حماية أنفسهم. لكنه هز رأسه غير مصدق ما أقول. ثم قلت له، كيف سيكون

الأمر لو علم الأميركيون المعتمدون على أنفسهم باننا تسللنا خفية في هذه البرية المهجورة تحت

حماية هذا العربي المتكرر الذي من شأنه أن يكسر رقبتة محاولا الخروج من البلاد لو هجم عليه

أحد. لقد كان موقفا وضيعا مهينا. لماذا طلبوا منا إذن إحضار مسدسات معنا إذا كان هذا البدوي

الحنثالة المرصع بالنجوم هو الذي سيحمينا؟ هذه النداءات والأقوال كانت عبثاً، ما فعله الحارس هو انه ابتسم وهز رأسه فقط.

أسرعت بحصاني نحو المقدمة وتعرفت على عظمة الملك سليمان وطلبت منه أن يطلعني على سر خلود بندقيته. وكان زناد البندقية صدئاً، كانت مخططة ومطوية بالفضة من البداية إلى النهاية، ولكنها كانت في حالة بائسة مثل مكعبات لعبة البلياردو التي لا زالت مستخدمة في مخيمات التعدين القديمة في كاليفورنيا. كانت الكمامة مهترئة بسبب الصدأ المتراكم عبر القرون حيث أصبحت مثل أعمال التطريز البالية التي تشبه نهاية أنبوب الموقد المحترق. نظرت فيها بعين واحدة، كانت شديدة الصدأ. استعرت المسدسات البليدة وفحصتها ولكنها كانت أيضاً صدئة من الداخل ولم يتم تجريبيها منذ زمن طويل. عدت إلى الحارس وطلبت منه تسريح هذه القلعة المفككة. وبعدها بدأت تتكشف الأمور. كان هذا الزميل وكيلا "الشيخ طبريا"، ومصدر الإيرادات الحكومية، والضابطة الجمركية "الإمبراطوريه طبريا". تبين أن الشيخ فرض هؤلاء الحراس على المسافرين وكانوا مصدراً مربحاً للدخل، حققوا أحياناً أرباحاً للخزانة الوطنية تقدر بخمسة وثلاثين إلى أربعين دولار سنوياً.

أدركت الآن سر المحارب، أدركت الغرور الأجوف لتفاهته الصدئة، وكرهت رضاه عن نفسه بطريقة غبية. قلت له، الجرأة المتهورة تدفع الموكب إلى الأمام مباشرة نحو الخلوة الصحراوية المحفوفة بالمخاطر، كما إنني احتقرت تحذيره لنا من التشويه والموت الذي يحوم حولهم من كل جانب.

وعلى ارتفاع 1200 قدم فوق سطح البحيرة (تقع البحيرة على مستوى 600 قدم تحت مستوى البحر الأبيض المتوسط) كان أمامنا منظر عام اجرد وبشع ربما أكثر المناظر قتامة على وجه الأرض. ومع ذلك، كان المكان مزدحماً نظراً لأهمية تاريخية، ولو أننا نشرنا الأوراق التي كتبتها حوله على

سطحه لغطته بالكامل. ومن اهم معالمه جبل حرمون، التلال المحيطة بطبريا، دان، منابع نهر الأردن، مياه ميروم، طبريا، بحيرة طبريا، بئر يوسف، كفر ناحوم، بيت صيدا، الأماكن التي حدثت فيها عظة يسوع على الجبل واكل الجموع ومعجزة صيد الأسماك، الانحدار الذي ركض عليه الخنازير نحو البحر، بوابة الأردن، صفا "المدينة الموجودة على التلة" احدى المدن الأربعة المقدسة لدى اليهود والمكان الذي يعتقدون أن المسيح الحقيقي سيظهر فيه لتخليص العالم، جزء من ميدان معركة حطين حيث خاض الفرسان الصليبيين معركتهم الأخيرة وانتهى مجدهم إلى الأبد، جبل الطور، المشهد التقليدي للتجلي الرباني. وفي الاتجاه الجنوب الشرقي يوجد أحد المناظر الطبيعية الذي أعاد إلى ذهني هذه الفكرة:

"قبيلة افرايم الذين لم يدعوا للمشاركة في غنائم حرب أمون دعوا إلى تجميع جيش لمحاربة جيبنا قاضي إسرائيل الذي علم بهذا الأمر وجمع الرجال من أنحاء إسرائيل ودفع بهم إلى ارض المعركة للقتال. ولضمان فوزه في المعركة وضع قوات على مختلف المعابر والممرات على نهر الأردن وأمرهم بعدم السماح بمرور أي شخص لا يمكنه قول كلمة شيبوليث. ولأن أبناء قبيلة افرايم من قبيلة مختلفة لم يستطيعوا نطق كلمة شيبوليث ولكن قالوا سيبوليث الأمر الذي دل على انهم من الأعداء وسبب لهم خسارة فادحة، ولذلك قتل حوالي اثنين وأربعين الفاء على مختلف المعابر والممرات نهر الأردن في ذلك اليوم".

سرنا على طول طريق القوافل الكبير من دمشق إلى القدس ومصر، مررنا بقرية لوبيا والقرى السورية الأخرى، جلسنا بطرق مختلفة على قمة تلال شديدة الانحدار، التفتنا حول الصبار العملاق (علامة من علامات الأرض المهملة) ذات التين الشوكي الذي يشبه لحم الخنزير حتى وصلنا أخيرا إلى ميدان معركة حطين.

الجليل سهل واسع غير منتظم يصلح لان يكون ميدانا للمعارك. هنا حارب صلاح الدين الأيوبي المسيحيين قبل حوالي سبع مائة سنة وهزمهم وقطع دابرهم من فلسطين. كان هناك هدنة طويلة الأمد بين القوات المتحاربة، ولكن وفقا لكتاب الدليل، خرق "رينولد شاتيون" لورد الكرك الهدنة عندما سلب قافلة متجهة إلى دمشق، ثم رفض إطلاق سراح التجار أو حتى تسليم بضائعهم عندما طلب صلاح الدين الأيوبي منه ذلك. هذا السلوك اثار غضب صلاح الدين الذي أقسم على ذبح رينولد بيده عندما تنسح الفرصة. استعدت جيوش الطرفين للحرب. كان ملك القدس الضعيف يملك أفضل الفرسان المسيحيين. لكنه اجبرهم بغبائه على السير لفترة طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة، ثم طلب منهم إقامة معسكر في هذا السهل المفتوح بدون ماء. اجتاح الأف من الجنود المسلمين الجهة الشمالية من طبريا وحرقوا ودمروا كل شيء أمامهم ثم أقاموا معسكرا أمام خطوط العدو. بدأت الحرب عند الفجر. وسط جحافل جيش المسلمين حارب الفرسان المسيحيين دون أمل، وقاتلوا ببسالة يائسة ولكن الحر والعطش الطويل نال منهم. وعند منتصف النهار تمكن بعض الفرسان الشجعان من اجتياز صفوف المسلمين والوصول إلى قمة تلة صغيرة، وهناك التفوا حول راية الصليب وصدوا جحافل العدو.

لكن نهاية نفوذ المسيحيين أصبحت مؤكدة. مع غروب الشمس على فلسطين أصبح الفرسان المسيحيين المتناثرين على ارض الميدان، وملك القدس، القائد الأعلى لفرسان المعبد، ورينولد شاتيون، أسرى في خيمة السلطان صلاح الدين الأيوبي. صلاح الدين عامل هؤلاء السجناء معاملة حسنة وأمر بتقديم الطعام والماء البارد لهم. عندما اعطى ملك القدس الماء البارد لشاتيون، قال له صلاح الدين "إذن أنت تقدم الماء له وليس لي". ثم تذكر صلاح الدين يمينه وذبح شاتيون بسيفه.

من الصعب أن يدرك المرء أن هذا السهل الهادئ كان مكانا دوت فيه الموسيقى العسكرية وزلزلت الأرض تحت أقدام الجنود المسلحين، وصفوف الفرسان، وعلت فيه صيحات المنتصرين وتأوهات الجرحى، ومناظر الرايات والسيوف فوق موجات الحرب العاتية. الخراب هنا لا يمكن ان يتصوره الخيال مع وجود ابهة الحياة والعمل.

وصلنا إلى جبل الطور بأمان، كما وصل قبلنا بوقت طويل الحارس المخادع المكسو بالحديد. لم نر إنسانا على طول الطريق سوى بعض جحافل البدو الخارجين على القانون. يقف جبل الطور وحده منعزلا، الحارس العملاق فوق سهل مرج ابن عامر. يرتفع حوالي ألف وأربعمائة قدم فوق مستوى المنطقة المحيطة، مخروطي الشكل اخضر اللون، متناسق وكامل البهجة، يعتبر معلما بارزا يسر الناظرين مقارنة مع الصحراء السورية المثيرة للاشمئزاز. سعدنا على الطريق الضيق إلى اعلى الجبل، وهذا الطريق غير معبد ولكنه ملئ بالأحراش الخضراء والبلوط. المشهد من قمة الجبل أية في الروعة والجمال. ويوجد أسفل الجبل مرج ابن عامر الواسع المليء بالحقول مثل لوحة شطرنج الذي يتميز بانه سلس ومستوي في كل أجزائه، وعند حدوده تنتاثر بعض القرى الصغيرة البيضاء اللون، كما توجد هنا وهناك خطوط منحنية من الطرق والممرات. عند حلول فصل الربيع الأخضر يشكل السهل بالتأكيد لوحة فنية ساحرة. يلتف حول حدوده الجنوبية "جبل الشيخ الصغير" ومن على قمته يمكن رؤية جلوبوع وقرية نين التي تشتهر بابن الأرملة، وقرية إندور الشهيرة بالساحرة. والى الشرق يقع وادي الأردن وبعده تقع جبال جلعاد. والى الغرب يقع جبل الكرمل. كما يوجد جبل الشيخ الواقع ضمن أراضي باشان، ومدينة صفد المدينة المقدسة ذات اللمعان الأبيض المطلة على جبال لبنان (الزاوية الأزرق الصلبة لبحيرة طبريا) وحطين المليئة بالسروج، وجبل التطويبات التقليدي الشاهد الشجاع الكتوم على حروب المسيحيين من اجل الصليب المقدس.

إلقاء نظرة على السمات البارزة لهذا المشهد من خلال إطار نافذة حجرية محطمة (قوس من عهد المسيح لذا فهو يخفي عن الأنظار كل ما بشع) يعطي المرء متعة تستحق الصعود إلى قمة الجبل لأجلها. ينبغي على المرء الوقوف على رأسه للحصول على أفضل منظر وقت غروب الشمس، والنظر من خلال إطار جريء وقوي لرؤية جماله. إذا ادرك المرء هذه الحقيقة الأخيرة فإنه لن ينسى ابدأ (في تلك الأرض التي تقلد السحر) الحديقة الرائعة، حديقة الكونت بالافيسيني بالقرب من جنوة. تتجول ساعة بين التلال والوديان المشجرة التي تترك انطبعا بأن الطبيعة هي التي شكلتها وليس الإنسان، تتبع مسارات متعرجة وتصل فجأة إلى شلالات وجسور ريفية، تجد بحيرات حرجية لا تتوقعها، تتمشى بين قلاع مصغرة من العصور الوسطى تبدو منذ آلاف السنين مع أنها قبل عشرات السنين، تتأمل المقابر القديمة المتداعية ذات الأعمدة الرخامية التي كسرها الفنان الحديث الذي أنشأها، تعثر بالصدفة على قصور من دمي مصنوعة من مواد نادرة وباهظة التكلفة، تعثر مرة أخرى على كوخ الفلاح ذات الأثاث المتهاك، تتجول في الغابة على حصان خشبي مسحور يسير بواسطة قوى خفية، تعبر الطرق الرومانية وتمر تحت أقواس النصر المهيبة، تستريح في عريشة غريبة فيها ترشك الأرواح بالماء من كل اتجاه وتهاجمك الزهور بالماء عندما تلمسها، تركب قاربا في بحيرة جوفية بين الكهوف والأقواس الملكية التي تتدلى منها رايات من التكتلات، تدخل في يوم مفتوح بجانب بحيرة أخرى تحيط بها ضفاف عشبية منحدره وهناك مراكب أرسنقراطية ترسو في ظل معبد رخامي مصغر يرتفع عن سطح المياه الصافية وفيه التماثيل البيضاء والأعمدة المخددة في أعماق هادئة. لذلك تنتقل من أعجوبة إلى أعجوبة ظانا كل مرة أن آخر أعجوبة رايتها هي الأهم. في الواقع أهم أعجوبة هي الأخيرة، ولكنك لا تراها حتى تخطو على الشاطئ، وتمر عبر غابة من الزهور النادرة التي جمعت من كل ركن من أركان الأرض، تقف على باب أحد أكثر المعابد محاكاة. هنا في هذا المكان استخدم الفنان أقصى درجة ممكنة من العبقرية الفذة وفتح تقريبا أبواب

الجنة على الأرض. تنظر من الزجاج الأصفر اللون وأول شيء تراه هو كتلة من أوراق الشجر المرتعش، على بعد بعض خطوات أمامك، يوجد في وسطها فتحة خشنة كأنها بوابة طبيعية، لا تثير الشكوك حول تصميم الإنسان العميق، وفوق الجزء السفلي من البوابة تنمو بعض الأوراق الاستوائية العريضة والزهور الرائعة. وفجأة ومن خلال هذه البوابة المشرقة، يمكنك القاء نظرة على أكثر الصور غنى ورقة وروعة رآها قديس يحتضر في حلمه منذ أن رأى يوحنا القدس الجديدة تتلألأ فوق سحب السماء. بحر واسع مليء بالأشعة المتمايلة، رأس بارز بشكل حاد تعلوه منارة، خلفه حديقة منحدرية، خلف ذلك هناك جزء من "مدينة القصور" القديمة فيها حدائق وتلال وقصور فخمة، خلفها يوجد جبل مذهل عليه خطوط وحدود بارزة بحدّة تقابل المحيط والسماء، وفوق كل هذا، تطفو رقائق وقطع السحاب في بحر من الذهب، المحيط والمدينة والمرج والجبل والسماء لونها لون الذهب الغني، يانعة وحالمة مثل الجنة. جمالها خلاب يجعل المرء يتيه في النشوة، الزجاج الأصفر وإطار العمل المبدع قذفها في طريق السحر وسد الطريق أمام كل الصفات غير الجذابة. هكذا هي الحياة، ذيل الثعبان هو فوق رؤوسنا جميعا.

لم يبق لنا شيء الآن سوى العودة إلى جبل الطور القديم على الرغم من أن الموضوع متعب للغاية، لذا لم احتل سوى العودة بمخيلتي إلى المشاهد الأكثر بهجة. لا يوجد شيء في جبل الطور الذي كان مشهدا للتجلي سوى بعض الأطلال القديمة الرمادية اللون المكسدة من أيام جدعون الشجاع والزمر التي ازدهرت قبل ثلاثين قرنا إلى الصليبيين في العهد القريب. يوجد هنا الدير اليوناني، والقهوة أيضا هنا طيبة المذاق، ولكن لا يوجد أي صليب حقيقي أو قديس معظم يحول الأفكار الدنيوية إلى مسالك أكثر رصانة. الكنيسة الكاثوليكية لا معنى لها عندي بدون القطع الأثرية.

سهل مرج ابن عامر "ساحة المعارك" يعيد المرء إلى ذكريات يشوع، بنهدد، شاؤول، جدعون، تيمورلنك، تانكريد، كور دي ليون، صلاح الدين، ملوك بلاد فارس المحاربين، أبطال مصر، نابليون. لو استطاع ضوء القمر استحضر عشرات الآلاف الذين لا حصر لهم والذين حاربوا على هذه الأرض الفسيحة، واصطفوا في الأف الأزياء الغربية لمئات الجنسيات والأعراق، واجتاحوا السهل الواسع يحملون الأعمدة والرايات الرائعة والرماح المتلألئة، لكنك أستطيع أن أبقى هنا دهرا لرؤية حرب الأشباح. ولكن سحر ضوء القمر وكل من يثق به سوف يصاب بالحزن وخيبة الأمل.

عند أسفل جبل الطور وبالقرب من حافة مرج ابن عامر توجد قرية دبورية التي عاشت فيها ديبورا، نبية إسرائيل. وتشبه قرية المجدل تماما.

الفصل 50

نزلنا من جبل الطور، عبرنا واد عميق، سرنا في طريق وعر حتى وصلنا بعد ساعتين إلى الناصرة. هنا يحسب الناس المسافات بالساعات وليس الكيلومترات. يستطيع الحصان القوي مثلا قطع ثلاثة أميال في الساعة على جميع أنواع الطرق تقريبا، لذلك تعبر الساعة الواحدة عادة عن مسافة ثلاثة أميال. هذه الطريقة في الحساب مزعجة، وحتى يعتاد المرء عليها لا بد أن يتوقف ويترجم الساعات الوثنية إلى كيلومترات مسيحية، تماما كما يترجم الناس الكلمات باللغات الأجنبية ولكن ليس بما فيه الكفاية لفهم المعاني بسرعة. والمسافات التي يقطعها الإنسان مشيا تقدر أيضا بالساعات والدقائق، على الرغم من أنني لا أعرف القاعدة الحسابية. في القسطنطينية تسأل "كم تبعد القنصلية؟" يجيبون "حوالي عشر دقائق"، "كم تبعد وكالة لويديز؟" "ربع ساعة"، "كم يبعد الجسر الأسفل؟" "أربع دقائق". لا أستطيع أن أكون إيجابيا حيال الموضوع، ولكني أعتقد أن عندما يطلب الرجل بنظونا يقول انه يريد أن يكون طوله ربع دقيقة وعرضه تسع ثوان.

استغرقت الرحلة ساعتين من جبل الطور إلى الناصرة، لان الطريق كانت ضيقة وملتوية للغاية، فقد التقينا بجميع قوافل الجمال والحمير بين أريحا وجاكسونفيل في ذلك المكان بالذات وليس في أي مكان آخر. الحمير لا تهتم كثيرا لأنها صغيرة لدرجة أن الحصان يمكنه القفز فوقها ولكن لا يمكنه القفز فوق الجمل لأنه طويل القامة يصل طوله إلى ارتفاع البيوت العادية في سوريا، وهذا يعني أن الجمل يتراوح ارتفاعه بين رجل إلى رجلين، وأحيانا يزيد طوله عن ثلاثة أقدام عن طول الرجل متوسط الطول. في هذا الجزء من البلاد، يشبه حمل الجمل شكل الأكياس الضخمة، كيس على كل جانب. الجمل وحمولته يأخذ مساحة عربة النقل. إذن فكر في مواجهة هذا النوع من العوائق في طريق ضيقة. الجمل لا يحدد عن الطريق حتى للملك نفسه، فهو يمشي بهدوء نحو الأمام، يحرك أقدامه للأمام مثل حركة البندول الطويلة، ومهما يقف في طريقه يجب أن يبتعد بسلام والا فان الأكياس الضخمة ستقضي عليه. لقد كانت رحلة مرهقة بالنسبة لنا، وأرهقت الخيول إرهاقا تاما، واضطررنا للقفز فوق ما يزيد على ألف وثمانين مائة حمار، وسقط شخص واحد فقط حوالي ستين مرة بسبب الإبل. وكما يقول الشاعر "الأمر ليست كما تبدو". وأصبح لدي الآن فكرة تجعل الشخص يرتعد من الخوف حين يتسلل جمل ناعم القدمين خلف شخص ويلمسه على أذنه بشفته السفلى المترهلة الباردة، وهذا ما فعله جمل لأحد الأولاد الذي كان يتدلى من على ظهر السرج، نظر الولد للأعلى ورأى شبحا كبيرا يحوم فوقه، فحاول مرتعدا الابتعاد عن طريقه، ولكن الجمل عضه في كتفه قبل أن يتمكن من الهروب. وكان هذا هو أطرف حادث وقع أثناء الرحلة.

في الناصرة أقمنا مخيما في كرم للزيتون بالقرب من نافورة مريم العذراء. جاء ذاك الحارس العربي لجمع البغشيش لقاء "خدماته" في تتبعنا من طبريا ودرء الأخطار الخفية عنا. دفع المترجم لسيدته، ولكن هذا الأمر ليس له قيمة، مثلا إذا استجارت رجلا ليعطس لك، وقام رجل آخر بمساعدته، فعليك أن تدفع لكليهما، وهما لا يفعلان أي شيء بدون أجر. لا بد أن هؤلاء الناس سيفاجؤون لو سمعوا

مبادئ طريق الخلاص القائمة على "بدون مال وبدون ثمن". لو تغيرت الأخلاق أو الشعوب أو العادات والتقاليد في هذا البلد منذ زمن المسيح المخلص فإن الشخصيات والاستعارات في الكتاب المقدس لا تكفي لأثبات ذلك.

دخلنا الدير اللاتيني العظيم الذي بني فوق أنقاض المسكن التقليدي للعائلة المقدسة. نزلنا خمسة عشر درجة تحت مستوى الأرض، ووقفنا في كنيسة صغيرة مليئة بالستائر المطرزة والمصابيح الفضية واللوحات الزيتية. كان هناك بقعة عليها صليب في الأرضية الرخامية تحت المذبح وكأن المكان صار مقدسا إلى الأبد تحت أقدام السيدة العذراء عندما وقفت لتلقي الوحي من الملائكة. هذا المكان البسيط كان مشهدا لحدث عظيم، مشهد البشارة وهو الحدث الذي تخلده المزارات الرائعة والمعابد المهيبة في جميع أنحاء العالم اليوم، والمشهد الذي صنعه أيادي أمير الفن بجدارة على قطعة قماش، هذه البقعة لها تاريخ يألفه جميع الأطفال في كل بيت ومدينة، بقعة صغيرة غامضة في أكثر مناطق العالم المسيحي بعدا، بقعة يبذل أعداد كبيرة من الناس في العالم الغالي والرخيص لمشاهدتها، ويعتبرون ذلك شرفا رفيعا لا يقدر بثمن. راودتني هذه الأفكار بسهولة، ولكن لم يكن من السهل علي ادراك ضخامة وعظمة الوضع. يمكنني أن أسير آلاف من الأميال وأتخيل الملائكة تظهر مع أجنحتها الخفية وهيئتها اللامعة وأشاهد المجد الذي نزل على رأس العذراء عندما نزلت الرسالة من "عرش الله" على أذنيها. قد يستطيع أي شخص أن يفعل ذلك وراء المحيطات، ولكن القليل يمكنهم أن يفعلوا ذلك هنا. رأيت فجوة صغيرة صعد منها الملاك لكنه لم يستطع أن يملأ الفراغ. الملائكة التي أعرفها مخلوقات لها خيال منقلب، فهي لا تتاسب مشكاة في أي صخر مادي. الخيال يعمل بشكل أفضل في الحقول البعيدة. وأشك إذا كان يستطيع أي رجل الوقوف في مغارة البشارة والصور الوهمية في عقله تكون جدرانها الحجرية الملموسة.

شاهدنا دعامة مكسورة من الصوان معلقة من السقف، ويقال أن الغزاة المسلمين القادمين من الناصرة قسموها إلى نصفين في محاولة يائسة لهدم هذا المزار المقدس. ولكن الدعامة ظلت معلقة بأعجوبة في الهواء غير معتمدة على نفسها، وقد دعمت ولا تزال تدعم السقف. الأشخاص الثمانية الذين استمعوا إلى هذه الرواية صدقوا ذلك بكل سهولة.

هؤلاء الرهبان اللاتينيين الموهوبين لا يقسمون الأشياء إلى نصفين. إذا كنت تريد أن ترى الحية النحاسية الذي رفعها موسى في البرية يمكنك الاطمئنان بان لديهم أيضا الراية التي ارتفعت عليها الحية، إضافة إلى الثقب الذي وقفت فيه. لديهم مغارة البشارة هنا، ولديهم مطبخ العذراء وهو المكان الذي جلست فيه مريم مع يوسف يشاهدون المسيح الرضيع يلعب بلعب الأطفال العبرية قبل ألف وثمانمائة عاماً. يوجد مغارات نظيفة وفسحة ومريحة تحت سقف واحد. من الغريب أن الشخصيات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعائلة المقدسة عاشت دائماً في كهوف سواء في الناصرة أو في بيت لحم أو في مدينة أفسس الإغريقية، ومع ذلك لم يفكر أحد بالقيام بأي مماثل في ذلك الوقت. وحتى لو عاش أناس آخرون في كهوف، فان هذه الكهوف اختفت جميعها بالكامل، والعجيب أن الناس حافظوا على مغارات العائلة المقدسة فقط. فعندما هربت مريم العذراء من غضب الملك هيرودس اختبأت في مغارة في بيت لحم والتي ما زالت موجودة حتى يومنا هذا. ووقعت مذبحه الأبرياء في بيت لحم في مغارة، وولد المسيح المخلص في مغارة، ويستطيع الحجاج رؤيتهما حتى الآن. ومن الغريب أيضا أن هذه الأحداث العظيمة وقعت في مغارات، وهذا من حسن الحظ لأن المنازل تتهار مع الزمن بينما المغارات تبقى في الصخور إلى الأبد. قصص المغارات هذه دجل وخداع، ولكنها الشيء الوحيد الذي يجب أن يشكر كل الناس الكاثوليك لأجله. كلما اكتشفوا مكانا مفقودا أصبح مقدسا نتيجة لحدث ورد ذكره في الكتاب المقدس سرعان ما يبنون كنسية ضخمة فيه ويحافظون عليه لإرضاء الأجيال المقبلة. إذا تركت الأمور للبروتستانت القيام بهذا العمل الأكثر جدارة فلن نعرف مكان القدس اليوم،

والرجل الذي يذهب ويضع إصبعه على الناصرة سيكون أكثر الناس حكمة في هذا العالم. العالم مدين للطائفة الكاثوليكية بحسن النية حتى بالنسبة لهذه النذالة السعيدة في نحت هذه الكهوف المزيفة في الصخور لأنه بالتأكيد يكون النظر إلى المغارة التي يعتقد منذ قديم الزمان أن مريم العذراء عاشت فيها أكثر إرضاء من تخيل المسكن الذي عاشت فيه في مكان ما في جميع أنحاء الناصرة. هذه البلد واسعة ولا يمكن أن ينجح فيها الخيال. لا يوجد بقعة محددة تلقي عليها نظرة، تثير اهتمامك وتجعلك تفكر. لا يمكن أن تتلاشى ذكرى الحجاج بينما تبقى ذكرى صخور بلايموث في عقولنا. الرهبان القدماء لديهم حكمة ورصانة في التفكير، فهم عرفوا كيف يضربون في التقاليد الممتعة ما يجعل الذكرى ترسخ في مكانها إلى الأبد.

قمنا بزيارة الأماكن التي عمل فيها عيسى المسيح كنجار لمدة خمسة عشر عاماً، والمعبد الذي حاول التدريس فيه حيث قامت مجموعة من الغوغاء بمطاردته. وقد بنيت الكنائس الكاثوليكية على هذه المواقع وهي تحمي أجزاء صغيرة من الجدران القديمة الباقية. قام حجاجنا بقطع عينات منها. وقمنا بزيارة كنيسة جديدة في وسط المدينة بنيت حول صخرة طولها اثنا عشر قدماً وسمكها أربعة أقدام. قبل سنوات اكتشف الكهنة أن التلاميذ جلسوا على هذه الصخرة للراحة عندما ساروا من كفر ناحوم، لذلك سارعوا إلى الحفاظ على هذا الأثر المقدس. الأثار المقدسة لها أهمية كبيرة حيث أن المسافرين يدفعون لرؤيتها، ويدفعون بسخاء وسعادة. ونحن نحب هذه الفكرة، إذ أن ضمير الفرد لا يشعر بالسوء إذا علم انه دفع على طريقته مثل الرجل. ورجب حجاجنا في كتابة أسمائهم على تلك الصخرة وكذلك أسماء قراهم في أمريكا، ولكن الكهنة لا يسمحوا بذلك. ومع ذلك، في الواقع، جماعتنا نادراً ما يسيئون بهذه الطريقة على الرغم من أن لدينا رجالاً على متن السفينة لا يضيعون أي فرصة للقيام بذلك. أكبر خطيئة ارتكبتها حجاجنا هي شهوتهم لأخذ العينات. بحلول هذا الوقت أتوقع أنهم يعرفون

حجم ووزن الصخرة بالكامل ولا اتهمهم إذا قلت أنهم سوف يذهبون إلى هناك هذه الليلة ويحاولون حملها.

تقول الروايات أن مريم العذراء استخدمت "نافورة العذراء" للحصول على الماء، وكانت تنقله في جرة على رأسها عشرين مرة في يوم عندما كانت صغيرة في السن. يجري الماء من الحنفيات المثبتة على جدار قديم ولا يوجد ماء في منازل القرية. تأتي الفتيات الصغيرات من الناصرة للحصول على الماء بكميات كبيرة وهن يضحكن ويلعبن. تقضي الفتيات أوقاتهن داخل البيوت. بعضهن لها عيون جميلة كبيرة ولكن وجوههن ليست جميلة. عادة يرتدين ثوبا فضفاضا ليس له لون أو شكل محدد، أجريت عليه كثير من أعمال الخياطة والتصليح. يتدلى من اعلى الراس إلى الذقن سلاسل غريبة من القطع النقدية القديمة على طريقة الحسنات في طبريا، كما أنهم يضعن مجوهرات نحاسية على معاصمهن وفي آذانهن، ولا يرتدين أحذية ولا جوارب. وهن أكثر الناس إنسانية ولطفا في هذا البلد. ولكن للأسف تحتاج هذه العذارى إلى الوسامة والجمال.

قال الحاج "المتحمس": "انظروا تلك الفتاة الرشيقه طويل القامة! انظروا إلى جمال وجهها مثل مادونا (مريم العذراء)!"

حاج آخر جاء حديثا قال: "انظروا تلك الفتاة الرشيقه طويله القامة! أنها ملكة جمال وجمال وجهها مثل مريم العذراء".

قلت: "أنها ليست طويله القامة، أنها قصيرة وعادية وليست جميلة، اعتقد أنها رشيقه ولكنها شديدة الفوضى".

الحاج الثالث والأخير الذي جاء قبل فترة طويله قال: "انظروا تلك الفتاة الرشيقه طويله القامة! أنها ملكة جمال وجمال وجهها مثل وجه مريم العذراء!"

صدرت جميع الأحكام. حتى الوقت الآن للبحث عن السلطات للنظر في هذه الآراء. وجدت الفقرة التالية التي كتبها غرايمز:

"بعد أن امتطينا السروج، ركبنا إلى الينابيع لإلقاء النظرة الأخيرة على نساء الناصرة اللواتي كن أجمل النساء في الشرق الأوسط. وعندما اقتربنا من الحشود، تقدمت فتاة طويلة القامة، في التاسعة عشرة من عمرها، نحو مريم وقدمت لها كوبا من الماء. كانت تمشي بخفة ورشاقة مثل ملكة حيث بهرنا جمال ملامحها ومطلعها. أصبح (ويتلي) فجأة عطشان، وتوسل إليها ليشرب الماء، شرب ببطء وهو يحدق في عيونها السوداء الكبيرة وحدثت الفتاة أيضا في عينيه. ثم طلب (مور رايت) الماء فأعطتها وشرب بسرعة وكأنه يريد أن يطلب كأسا آخر. وعندما جاء دوري كانت العملية تامة، كانت عيناها مليئة بالمرح عندما كانت تتطلع في وجهي، ضحكت وضحكت هي معي ضحكة أروع من ضحكة أي فتاة ريفية، تمنيت ساعاتها لو إنني أستطيع أن اخذ صورة معها. مادونا العذراء التي كان وجهها صورة لتلك الفتاة الجميلة من الناصرة ستكون "شيء من الجمال" و "فرحة أبدية".

هذه هي العصيدة التي تقدمها فلسطين منذ الأف السنين. أرشدوني أيها الناس إلى (فونيمور كوبر) للعثور على الجمال في الهنود الحمر، والى غرايمز للعثور عليه في العرب. في الغالب يبدو الرجال العرب أجمل من النساء العربيات، ويمكننا جميعا أن نؤمن أن مريم العذراء كانت جميلة، وليس من الطبيعي أن نفكر بخلاف ذلك، ولكن هل هذا يعني أن علينا أن نجد الجمال في النساء العربيات في الناصرة؟

أود أن أقتبس غرايمز لأن كلماته درامية ومثيرة وهو مؤلف يغلب عليه الحس الرومانسي، ولأنه لا يهتم بقول الحقيقة، لذلك فهو يخيف القارئ أو يثير حسده أو إعجابه.

زار غرايمز هذه الأرض المسالمة ويده دائما على مسدسه والأخرى في منديه. وعندما لم يكن على وشك البكاء عند مكان مقدس كان على وشك قتل رجل عربي. في فلسطين حدثت معه أشياء أكثر إثارة للدهشة مما حدث مع أي رحالة آخر هنا أو في أي مكان آخر منذ وفاة مانشهاوزن.

في بيت جن، في المكان الذي لم يتدخل أحد به، تسلل خارج خيمته في عتمة الليلة وأطلق النار على هيئة رجل اعتقد انه عربي مستلقي على صخرة يريد الشر على بعد بضعة أمتار. الرصاصة قتلت ذئب. وقبل أن يطلق النار يرسم كعادته صورة درامية حول نفسه لتخويف القارئ:

"هل كان ذلك شبعا، أم إنني رأيت جسما متحركا على صخرة؟ لو كان أنسانا فلماذا لم يطلق النار علي؟ كان لديه فرصة جيدة لإصابتي عندما وقفت أمام الخيمة البيضاء. أحسست أن رصاصة تدخل في حلقي وصدري وراسي".

مخلوق طائش ومتهور!

عندما سرنا نحو الناصرة، رأينا رجلين من البدو، ثم "نظرنا إلى مسدساتنا وأرخبيناها بهدوء تحت الشالات" وهكذا دوما.

في السامرة، صعد على تلة ليواجه وابلا من الحجارة ثم أطلق النار على رجال كانوا يلقون الحجارة. يقول:

"لم اضيع أي فرصة لإثارة أعجاب العرب بالأسلحة الأمريكية والإنجليزية وتحذيرهم من خطر مهاجمة أي شخص من الفرنجة المسلحين، وأعتقد أن الدرس المستفاد من هذه الرصاصة كان درسا بالغاً للغاية".

في بيت جن أعطى جزءا من عقله لفرقته الكاملة من العرب سائقي البغال، ثم

"أنا ارضي نفسي بضمانة رسمية وهي أنه إذا حدث عصيان للأوامر مرة أخرى فسوف اطحن الطرف المسؤول واسحقه سحقاً تاماً، وإذا لم أتمكن من إيجاد الطرف المسؤول، فسوف اجلدكم جميعاً دون استثناء سواء كان هناك قاضي موجود أم كان علي أن أفعل ذلك بنفسى".

هذا الرجل كامل الشجاعة!

سار راكبا عبر طريق وعرة عمودية الشكل من قلعة بانياس إلى كرم البلوط، كان جواده يعدو بسرعة "ثلاثين قدماً" في كل قفزة. أقف على استعداد لإحضار ثلاثين شاهداً من الثقات لإثبات أن حادثة بوتنام الشهيرة في هورسنيك كانت بلا قيمة مقارنة بهذا.

لننظر إليه ينظر إلى القدس، دائماً مثل المسرحية، ولكن هذه المرة يده ليست على مسدسه بالخطأ:

"وقفت في الطريق، يدي على عنق جوادي، انظر حولي إلى أشكال وتفاصيل الأماكن المقدسة التي حفظتها في ذهني منذ أمد بعيد، لكن الدموع سرعان ما جرت من عيناى. كان هناك خدم من المسلمين، راهب لاتيني، اثنين من الأرمن، ويهودى، وجميعهم يحدقون في موكبنا واعيهم تقيض من الدمع".

لو بكى العرب والرهبان من طائفة اللاتين لأدركت تماماً من اليقين الأخلاقي أن الخيول بكت أيضاً، ولهذا تكتمل الصورة.

ولكن عند الضرورة يمكن أن يكون شديد العناد. في وادي لبنان قام شاب عربى بسرقة مسحوق وطلقة منه قيمتها عشرة دولارات. اشتكاه للشيخ ثم وقف يتفرج عندما كان الشاب يجلد بالسوط بجلدات مؤلمة. لنستمع إليه:

"كان موسى على ظهره يصرخ ويولول، حملوه إلى الساحة أمام الباب، ثم قلبوه على وجهه، جلس رجل على ظهره وجلس رجل آخر على ساقيه وامسك بقدميه، قام رجل ثالث بجلده بالكرباج الذي كان يصدر صوتا عند كل ضربة. كان (مور رايت) المسكين يتألم، وكانت ناما وناما الثانية (أم موسى واخته) تتسولان وتصرخان، يمسان بركبتي تارة وركبة (ويتلي) تارة أخرى. كان أخ موسى يملا المكان بالصرخات المدوية، ثم جاء يوسف وجثا على ركبتيه وطلب مني الرحمة والعفو، وأخيرا جاء البيتوني، وهو الوغد الذي فقد حقيبة في منزلهم وكان يشجب ويشتم منذ الصباح، وتوسل إلى الحاج طلبا للرحمة والعفو عن موسى".

تم تعليق العقوبة بعد الضربة الخامسة عشرة للاستماع إلى الاعترافات. رحل غرايمز وجماعته عن المكان، وظلت الأسرة المسيحية لتدفع الغرامة وتتلقى العقاب الشديد حسب ما يراه الشيخ مناسبا.

"عندما ركبت على الحصان توسل إلي يوسف مرة أخرى وطلب مني أن أتدخل وأعفو عنهم، نظرت حولي على وجوه الناس المظلمة ولكني لم أجد أي قطره من الرحمة نحوهم في قلبي".

ينهي الصورة بفيض من الفكاهة يتناقض مع حزن الأم وأطفالها.

تقول فقرة أخرى:

"حنيت رأسي مرة أخرى لان البكاء ليس معيبا في فلسطين. بكيت عندما رأيت القدس، بكيت عندما رأيت النجوم في بيت لحم، بكيت على شواطئ الجليل المباركة. لم تكن يدي تمسك الزمام بقوة، لم يرتعش فؤادي عندما ضغطت على الزناد عندما سافرت ويدي اليمنى عليه على طول شاطئ البحر الأزرق، لم تخفت عيناى بتلك الدموع ولم يضعف قلبي قط. على كل من يسخر من مشاعري أن يغلق هذا الكتاب الآن وهنا لأنه لن يجد ما يروق له في رحلاتي خلال الأراضي المقدسة".

لم يشعر ابدأ بالملل ولكنه ضرب الماء.

أعي تماما أن هذا إعلان عظيم من كتاب غرايمز. ولكن من المناسب والمشروع الكلام عنه لان كتاب "الحياة البدوية في فلسطين" كتاب نموذجي يمثل فئة من الكتب حول فلسطين، ونقد هذا الكتاب بطريقة بناءة يساهم في نقد جميع الكتب الأخرى. وبما أنني أتعامل معه بصفته كتابا نموذجيا يتمتع بقدرة شاملة، قررت إعطاء أسماء وهمية للكتاب والكاتب. وربما من الأفضل القيام بذلك على أية حال.

الفصل 51

الناصره مدينة رائعة تثير الاهتمام لأن هوائها لا زال كما هو بالضبط كما تركه يسوع المسيح. ودائما يقول المرء لنفسه "وقف يسوع الصبي في هذا المدخل، لعب في هذا الشارع، لمس هذه الأحجار بيديه، هام على هذه التلال". واي شخص يكتب بإبداع عن حياة يسوع المسيح في صباه سيؤلف كتابا يثير اهتمام الصغار والكبار على حد سواء. أنا أقول هذا الكلام نظرا للاهتمام الكبير الذي وجدناه في الناصرة أكثر من أي تأملات أخرى حول كفر ناحوم وبحيرة طبريا. فالوقوف بالقرب من طبريا لا يثير فينا أكثر من فكرة غامضة حول ذلك الشخص الجليل الذي سار على الموج العالي وكأنها أرض صلبة، الشخص الذي أحيا الموتى الذين نهضوا وتكلموا. اقرأ الآن باهتمام جديد بعض الجمل من طبعة عام 1621 من "العهد الجديد الملقق":

"المرأة التي قبلتها العروس التي أصبحت خرساء بسبب السحرة يشفيها المسيح. الفتاة المصابة بالجذام تشفى عن طريق المياه التي استحم فيها المسيح الرضيع وتصبح خادمة ليوسف ومريم. وكذلك يشفى ابن الأمير المصاب بالجذام بنفس الطريقة".

"الشاب الذي سحر وتحول إلى بغل شفاه المسيح الرضيع عندما وضع على ظهره، ثم تزوج الشاب الفتاة التي شفيت من الجذام. كان المارة يحمدون الله ويسبحون بحمده."

"الفصل 16. المسيح يوسع أو يضيق البوابات أو دلاء اللبن أو الغربال أو الصناديق التي لم يحسن يوسف صنعها مع أنه كان ماهراً في أعمال النجارة. ملك القدس يصدر امرأ ليوسف بصناعة عرش له. يعمل يوسف على العرش لمدة سنتين ولكن يصنعه أقصر مما هو مطلوب. يثور غضب الملك على يوسف لكن يسوع المسيح يخفف عنه الأمر، ويطلب منه أن يسحب أحد جانبي العرش ويسحب الجانب الآخر في آن واحد وهكذا حقق الأبعاد الصحيحة."

"الفصل 19. المسيح متهم بالإلقاء طفل من على سطح منزل، يحقق المسيح معجزة عندما يعيد الصبي الميت إلى الحياة ويبرئ ساحته. أثناء إحضاره الماء لوالدته يكسر الجرة لكنه يجمع الماء في عبائه ويجلبه إلى البيت."

"يذهب المسيح إلى المعلم، لكنه يرفض أن يقول الحروف، وعندما يحاول المعلم جلده بالسوط، يده تصبح واهنة."

وفي هذا المجلد الغريب من الأناجيل المرفوضة يوجد أيضاً رسالة بولس الرسول من القديس كليمينس إلى أهل كورنثوس التي استخدمت في الكنائس على أساس أنها أصلية وصحيحة قبل ألف وأربعة مائة أو خمسة مائة عام. وفيها تظهر رواية طائر العنقاء (الفينيق) الأسطوري:

"1. دعونا نفكر في هذا النوع الرائع من القيامة الموجود في البلدان الشرقية (أي العربية)."

"2. هناك طائر يسمى طائر الفينيق يعيش في زمن واحد فقط لمدة خمس مائة سنة. عندما يقترب موعد وفاته يقوم ببناء عش له من البخور والمر والتوابل الأخرى يجلس فيه عندما تحين ساعة نهايته."

"3. لكن لحمه المتعفن يولد دودة معينة تتغذى على عصير طائر ميت وينمو لها ريش، وعندما يكتمل نموها تستولي على العش الذي يضم عظام الأب، وتحمله من الجزيرة العربية في مصر إلى مدينة تسمى هليوبوليس."

"4. تطلق الدودة في يوم مفتوح على مرأى من جميع الناس ويضع العش على مذبح الشمس ثم يعود أدرجه."

"5. يبحث الكهنة في سجلات الزمن ويجدون أنها عادت بالضبط في نهاية الخمس مائة سنة."

العمل هو العمل، لا يوجد فيه أشياء مثل الالتزام بالمواعيد لا سيما عند طائر الفينيق.

هناك بعض الفصول المتعلقة بطفولة عيسى المسيح تحتوي على كثير من الأمور التافهة التي لا تستحق الذكر. لكن قسم كبير من الفصول المتبقية من الكتاب يشبه الكتاب المقدس. وهناك آية لا ينبغي رفضها لأنها نبوءة وتشير بوضوح إلى أعمال الكونجرس الأمريكي:

"199. أنهم يعتبرون أنفسهم رجالا لهم مقام وقدر عالي وعلى قدر عظيم من الحكمة، وعلى الرغم من أنهم أغبياء إلا أنهم يبدون كمعلمين."

لقد اقتبست هذه المقتطفات كما وجدتها. في جميع الكنائس والكاتدرائيات الفرنسية والإيطالية، يجد المرء معجزات وصور لشخصيات لم يرد ذكرها في الكتاب المقدس. ولكنها جميعا مذكورة في هذا "العهد الجديد الملقق"، وعلى الرغم من أنها استبعدت من الكتاب المقدس الحديث، إلا أنها كانت

إنجيلاً مقبولاً قبل اثنا عشر قرناً أو خمس عشرة قرناً، وحصلت على قدر عالي من الاعتبار مثل باقي الأناجيل. ويحتاج المرء إلى قراءة هذا الكتاب قبل أن يزور تلك الكاتدرائيات الجبلية المليئة بالتقاليد المحرمة والمنسية.

فرضوا علينا قرصانا آخر في الناصرة وهو الحارس العربي آخر لا يقهر. ألقينا النظرة الأخير على الناصرة المعلقة بجوانب التلال مثل عش الدبور ثم غادرناها في الثامنة صباحاً. نزلنا عن خيولنا وسرنا بها عبر مسار شديد الالتواءات والانحدارات مثل قوس قزح، وهذا الممر من أسوأ الممرات الجغرافية في العالم باستثناء ممر رايت في جزر سانديويتش وربما أيضاً مسار أو مساران موجودان في إحدى الممرات الجبلية في سيرا نيفادا. في هذا المسار الضيق كان على الحصان أن يوازن نفسه بلطف على درجة بارزة ثم يسقط قدميه الأماميين فوق الحافة إلى الأسفل على شيء يزيد ارتفاعه عن نصف ارتفاع الحصان، وهكذا يلامس انف الحصان الأرض بينما يشير ذيله نحو السماء وكأنه يستعد للوقوف على رأسه. وبعد أن أكملنا عملية النزول ركبنا خيولنا وسرنا بها بسرعة عبر مرج ابن عامر.

البعض منا يطلق النار عليه قبل أن ننتهي من هذا الحج. يقرأ الحجاج كتاب "الحياة البدوية" ويحافظون على أنفسهم في حالة مستمرة من البطولة الوهمية. يضعون أيديهم على مسدساتهم طوال الوقت، وأحياناً يخرجونها ويصوبونها نحو البدو الذين لا تراهم، ويستلون السكاكين ويوجهون ضربات وحشية لهم. أنا أعيش دائماً في خطر قاتل لأنني لا أعرف وقت ظهور هذه التشنجات المفاجئة ولا أستطيع أن أحدد متى ابتعد من أمامهم. إذا قتلت بطريق الخطأ يوماً ما بسبب هذه النوبات الجنونية فإن غرايمز يجب أن يواجه أسئلة التحقيق بصفته شاهد على الجريمة. وإذا أطلق الحجاج النار على رجل بشكل متعمد، فسيكون الأمر عادياً ومنطقياً لأن ذلك الرجل لن يكون في أي

خطر، ولكنني اعترض على هذه الهجمات العشوائية. لا أود أن أرى مكانا آخر مثل سهل مرج ابن عامر حيث أن الأرض مستوية ويستطيع الحصان العدو فيها بسرعة، فهذا يؤدي إلى حدوث حماقة ميلودرامية في أذهان الحجاج. عندما يكون المرء ماشيا بغباء تحت أشعة الشمس شارد الذهن، يظهر الحجاج فجأة على ظهور خيولهم مثل العاصفة يهزمون ويصيحون على خيولهم حتى تصبح إكعابهم أعلى من رؤوسهم، ثم يظهر مسدس صغير، وتحدث فرقعة مذهلة، وتطير رصاصات صغيرة تملأ الجو بالموسيقى. وبما إنني بدأت الحج الآن فإنني أعتزم الاستمرار فيه على الرغم من انه لا شيء سوى تلك البسالة اليائسة دفعني إلى الاستمرار حتى الوقت الحاضر. أنا لا اكثرث بالبدو ولا أخاف منهم لأن لا البدو ولا العرب أظهروا أي نية لإلحاق الضرر بنا، ولكن أشعر بالخوف فقط من أصدقائي.

عندما وصلنا إلى نهاية السهل، صعدنا على تلة ووجدنا أنفسنا عند قرية إندور الشهيرة بالساحرة. يعيش فيها السكان المنحدرين من سكانها الأصليين وهم عبارة عن قطيع من الأوباش أجسامهم شبه عارية، أكثر الناس همجية، يخرجون من بيوتهم كما تخرج اسراب النحل من الخلايا، يعيشون في زرائب تشبه صناديق البضائع الجافة كأنهم جراد يخرجون من جحور من بين الصخور ودود يخرج من باطن الأرض. بعد بضع دقائق لم يعد هناك هدوء أو سكون في المكان، هجموا علينا كالرعاع يستجدون ويصرخون تحت أقدام الخيل حتى سدوا الطريق أمامنا وهم يستغيثون "بغشيش، بغشيش، بغشيش، يا خواجه". النظرات في عيون هؤلاء الكفار مليئة بالحقد والشر. يصل عددهم إلى 250 شخصا، يعيش أكثر من نصفهم في كهوف محفورة في الصخر. تعتبر القرية من أبرز علامات البؤس والشقاء والحرمان والهمجية في التاريخ حتى أنها تتفوق على قرى المجدل ودبورية التي رأيناها سابقا. كانت التلة شديدة الوعورة والجفاف، لا يوجد فيها سوى شجرة تين واحدة تحافظ على وجود مسلك خطر بين الصخور في نهاية مغارة موحشة كانت مسكنا لساحرة إندور. وتقول

الروايات الشعبية إن الملك شأول جلس عندها في منتصف الليل وفجأة شعر بالخوف الشديد عندما اهتزت الأرض وسمع هدير الرعد يضرب بين التلال ثم خرجت من بين النار والدخان روح نبي الموتى وظهرت أمامه. ذهب الملك إلى هذه المغارة تحت جناح الظلام بينما كان الجيش نائما ليعرف مصيره المرتقب في المعركة في الصباح، لكنه ترك المغارة وابتعد عنها وهو يشعر بالحزن الشديد إلى أن ذاق المر والموت.

كان هناك ينبوع يسيل من بين الصخور في أعماق المغارة المعتمة، وكنا نشعر بعطش شديد، لكن أهل القرية رفضوا السماح لنا بدخول المغارة. فهم لا يكثرثون بالأوساخ والملابس البالية والسموم والجهل والهمجية والجوع ولكنهم يتمسكون بشدة بالطهارة والقداسة أمام الاله أيا كان، ولذلك جن جنونهم واسودت وجوههم عندما سمعوا أن المسيحين يريدون الشرب من الينبوع ووضع شفاههم الملوثة على الماء الذي يجب أن يجري فقط في أفواههم الطاهرة. لم تكن لدينا رغبة في إهانة مشاعرهم أو تحقير مواقفهم العنصرية ولكننا كنا بحاجة ماسة للماء وكنا نموت من العطش، وفي هذا الموقف قلت عبارة أصبحت بعدها قولاً مأثوراً وهي "الضرورة لا تعرف القوانين"، وبعدها دخلنا إلى المغارة وشربنا.

وأخيراً غادنا المكان وابتعدنا عن الصعاليك الذين ساروا إلى جانبنا عندما سرنا على التلة مثل القافلة ثم بدأوا بالتراجع والعودة، الكبار في السن أولاً ثم الأطفال ثم الصبايا. وجرى رجل قوي معنا مسافة ميل ولم يرجع إلا بعد أن حصل على أخر قرش من البغشيش.

وصلنا بعد ساعة إلى قرية نين التي أحيا فيها عيسى المسيح ابن الأرملة الميت، وهذه القرية هي صورة مصغرة لقرية المجدل، ولكن لا يوجد بها سوى بعض السكان، وبالتقرب منها يوجد المقبرة الأصلية التي كان علي أن أتعرف عليها في الحال لان حجارة الأضرحة فيها مسطحة ومستوية تشبه

قبور اليهود في سوريا، وذلك لان المسلمين لا يسمحون لهم بوضع الحجارة بشكل عمودي. في العادة قبور المسلمين مغطاة بالجبس الأبيض، ويوجد في نهاية القبر شكل مرتفع بشكل راسي قبيح المنظر. وفي المدن لا تبدو القبور على شكل قبور عادية، تكون بلاطة الضريح طويلة ورقيقة السمك، مصنوعة من الرخام، تحدد مكان الدفن، مطلية ومدهونة وعليها حروف بارزة وكتابات، يعلوها عمامة منحوتة بطريقة تبين مكانة الدفين.

اطلعنا السكان على جزء من حائط قديم تقول الروايات انه جزء من البوابة التي خرج منها ابن الأرملة الميت قبل الأف السنين عندما التقى المسيح بالجنازة:

"عندما اقترب المسيح من بوابة المدينة رأى رجلا ميتا محمولا على النعش وهو الابن الوحيد لامه الأرملة، كان معظم سكان المدينة يمشون في الجنازة، رأى المسيح الأرملة رق قلبه لها وأشفق على حالها وطلب منها أن لا تبكي. اقترب من النعش ولمسه بيده ثم كشفوا عنه الكفن فقال له المسيح "أيها الشاب، قم وانهض الآن!" نهض الشاب الميت وبدا الكلام ثم ذهب إلى امه. أحس الجميع بالتقوى والورع وسبحوا الله وحمدوه قائلين "إن نبيا عظيما ظهر بيننا وان الله زار شعبه."

يوجد مسجد صغير بني في نفس المكان الذي كان فيه بيت الأرملة كما تدعي الحكايات. يجلس أمام بابه رجلين أو ثلاثة رجال من العرب الكبار في السن. دخلنا اليه، وقام الحجاج بكسر عينات من جدرانه الأساسية حتى انهم داسوا بأقدامهم على السجاد، الأمر الذي أثر في نفوس وأحاسيس هؤلاء العرب، وذلك لان الوطاء بالأحذية على سجاد الصلاة الطاهر يؤدي إلى أهانتهم وخاصة انهم لم يسيئوا إلينا بأي شكل من الأشكال. ما سيحدث لو أن مجموعة من الأجانب المسلحين دخلوا كنيسة قروية في أمريكا وكسروا أدوات الزينة على المذبح وصعدوا وداسوا على الكتاب المقدس والوسائد؟ ومع ذلك، فالأمران مختلفان: الأول تدنيس لمعبد مسيحي والثاني تدنيس لدين وثني فقط.

نزلنا إلى السهل مرة أخرى ثم توقفنا عند بئر من عهد إبراهيم في وسط الصحراء، يحيط به جدار من حجارة ثقيلة ومربعة الشكل على ارتفاع ثلاثة أقدام. كان بجواره جمال واقفة وأخرى جالسة، ومجموعة من الحمير الهادئة وبعض الأولاد العراة يلعبون ويحاولون الركوب عليها أو شد أذيالها. كانت هناك أيضا مجموعة من الصبايا الحافيات ذوات العيون السوداء والبشرة السمراء، يلبسن الخرق البالية، يتزين بأساور من فضة وأقراط مزيفة، يحملن جرار الماء على رؤوسهن أو يسحبن الماء من البئر. المشية تنتظر لتشرب حتى يضع الرعاة الماء في الحفر المحفورة في الحجارة، وهذه الحفر منحوتة بشكل جيد وسلس يغطيها الدهن من ذقون الحيوانات العطشى. العرب النموذجيين يجلسون على الأرض في مجموعات ويدخنون الغليون التركي الذي له ذراع طويل. آخرون يملؤون الجلود السوداء بالماء، هذه الجلود جاهزة وملية بالماء وتبرز منها الساقين القصيرتين، تبدو وكأنها جثث الخنازير المنفخة بسبب الغرق. وهنا رأيت صورة شرقية رائعة كنت اعشقها ذات نقوش ناعمة وغنية، هذه النقوش لم يكن بها خراب ولا أوساخ ولا خرق ولا براغيث ولا ميزات قبيحة ولا التهاب في العيون ولا ذباب على الولايم ولا جهل في الهيئة ولا جروح على ظهور الحمير ولا ثرثرة قبيحة في لغات مجهولة ولا رائحة الإبل ولا اقتراح بأن بضعة أطنان من البودرة وضعت تحت الجماعة وان الانفجار زاد التأثير وأعطى مكان الحادث فائدة حقيقية وسحر يتمنى المرء دائماً أن يذكره على الرغم من أن الرجل عاش قبل ألف سنة. المشاهد الشرقية تبدو أفضل في النقوش في المواد الصلبة. لن يفرض أحد علي بعد الآن صورة ملكة سبأ تزور سليمان. سوف أقول لنفسي، "سيدتي، تبدين بحال جيدة ولكن قدميك ليستا نظيفتان ورائحتك مثل رائحة الجمال".

العربي الجلف المسؤول عن قافلة الإبل تعرف على صديقه القديم فرجسون، وركض اليه وتبادلا القبلات على وجوههما الملتحية. هذا الأمر فسر لي احدى المجازات الشرقية التي لم أتصورها يوما من الأيام. أشير هنا إلى حادثة قيام المسيح بتوبيخ أحد المنافقين وقوله له أنه لم يتلقى منه أي قبلة

ترحيب". لم أكن أتصور أن رجلاً ما يمكن أن يقبل رجلاً آخر ولكني أدرك الآن أن الرجال يفعلون ذلك هنا، ولكن يوجد سبب لهذا التقبيل. فهذه العادة طبيعية وسليمة تماماً لأن الناس يجب أن يقبلوا بعضهم البعض، ولا يستطيع الرجل أن يقبل أي امرأة هنا كما يخلو له. لذا يجب على المرء أن يسافر في العالم حتى يتعلم. في هذا الوقت وكل يوم من الأيام فإن العبارات الدينية القديمة التي لم يكن لها أهمية بالنسبة لي سابقاً أصبح لها معنى وقيمة عندي.

تجولنا حول قاعدة جبل جلبوع وتجاوزنا قلعة الصليبيين القديمة "الفولة" ووصلنا إلى شونم (اسمها اليوم سولم، مدينة كنعانية مقابل جبل جلبوع كانت من نصيب يساكر). شونم تشبه المجدل بما فيها من لوحات جدارية وغيرها. تقول الحكايات الشعبية أن امرأة شونمية قامت ببناء غرفة صغيرة على سور المدينة لاستضافة اليشع النبي، ثم سألها اليشع أن تطلب ما تتمناه. كان سؤاله مسألة طبيعية تماماً لان هؤلاء الناس كانوا في العادة يقدمون الحسنات والخدمات ثم يستجدون الأجر مقابل ذلك. كان اليشع يعرفهم جيداً، ولم يمكن يدرك أن أي شخص يمكن ان يبني له تلك غرفة صغيرة فقط من اجل الصداقة ودون مارب شخصية. كان سؤال الشيع للمراءة سؤالاً وقحاً ولكن الأمر لا يبدو لي كذلك الآن. قالت له المرأة أنها لم تتوقع أي شيء منه. ونظراً لطبيعتها وكرمها تتبا لها بأنها سوف تتجب ابناً. كان هذا الخبر أفضل مكافأة لها لان البنات كن دائماً غير مرغوبات في ذلك الوقت. ولد الابن وترعرع وأصبح قويا ثم مات. اليشع النبي أعاد له إلى الحياة في شونم.

وجدنا هنا بستان مليئاً بأشجار الليمون وكان بارداً وظليلاً. قد يكون المرء عرضة للمبالغة في تقدير الجمال عندما يكون الجمال نادراً، ولكن بالنسبة لي كان هذا البستان شديد الجمال بدون مبالغة. أتذكر شونم دائماً بوصفها مكاناً قدم لنا هذا مأوى كثير الأوراق بعد رحلة طويلة وحارة. جلسنا وتناولنا طعام الغداء، استرخنا، وتجادبنا أطراف الحديث، دخنا الغليون لمدة ساعة، ثم رحلنا.

عندما عبرنا وادي يَزْرَعِيل التقينا ببعض "الهنود الحفارين" (أي البدو) يحملون في أيديهم رماحا طويلة، يجرون ويلعبون على جيادهم مثل الجيف القديمة، يطعنون أعدائهم الوهميين، يزعقون ويلوحون بالأقمشة البالية، يصلون ويجولون مثل المجانين الميؤوس منهم. هؤلاء هم "أبناء الصحراء الأحرار يسارعون في السهول على متن الخيول العربية الجميلة" الذين قرأنا عنهم واشتقنا لرؤيتهم كثيرا. هذه هي "الأزياء الخلابية"، وهذا هو "مشهد البسالة"، والصعاليك المتشردين، والتبجح الرخيص. دارت "الخيول العربية" وصالت وجالت ولفت أعناقها مثل مقتات الأسماك في المتحف، لها حدبات وزوايا مثل الجمل العربي. إلقاء نظرة على ابن الصحراء الحقيقي يعني حرمانه من رومنيته إلى الأبد، ورؤية حصانه يعني نزع عدة حصانه ووقوعه على الأرض محطما.

في هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى بلدة قديمة مدمرة تقع على تلة، وهي نفسها يزرعيل القديمة.

أخّاب ملك السامرة (مملكة واسعة، في تلك الأيام كانت مساحتها تساوي نصف مساحة ولاية رود آيلاند) سكن في مدينة يزرعيل التي كانت عاصمة له. عاش بالقرب منه رجل اسمه نابوت اليزرعيلي الذي كان له كرم من العنب. طلب منه الملك إعطاءه ذلك الكرم ليضمه إلى قصره ويجعله بستاناً، وعندما رفض، عرض عليه شرائه، غير أن نابوت اعرض عن طلب الملك لأنه لم يشأ أن يفترط في خيرات أجداده لان التخلي عن أي جزء من الإرث في ذلك الزمن كان عارا وعبيا، وحتى لو افترق الرجل عن جزء منه عاد إليه أو إلى ورثته مرة أخرى في اليوبيل المقبل. اغتم أخّاب وعاد إلى القصر حزينا. دخلت امرأته الملكة إيزابل (كانت امرأة سيئة السمعة في تلك الأيام) وسألته عن سبب حزنه. علمت سبب حزنه فدبرت مكيده للاستيلاء على الكرم وذلك بان أرسلت إلى شيوخ بلدة نابوت وطلبت منهم أن يتهموه بالتجديف إلى الله والملك ويرجمه عقاباً له هو وأبناؤه ففعل الشيوخ ذلك وحاكموه بتهمه التجديف ثم حملوه إلى خارج البلدة ورجموه مع أبنائه. وأرسلوا إلى

إيزابل يخبرونها بإتمام أمرها. فذهبت إلى الملك وأسرت اليه بالخبر فقام وذهب إلى الحقل ليستولي عليه. لان العادة كانت أن يستولي الملك على ميراث الأموات الذين لا ورثة لهم. فغضب الله على أخاب وإيزابيل وامر النبي إيليا أن يذهب إلى أخاب وهو في الحقل ويقول له: "في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضا" وقد تمت النبوة فيما بعد. سار ياهو ملك إسرائيل ضد يزرعيل بأمر من أحد الأنبياء، فقتل العديد من الملوك ورعاياهم، ثم شاهد إيزابل ترتدي لباسا جميلا تتطلع من نافذة قصرها فأمر أن تطرح من الكوة فطرحت وتحطمت وأكلت الكلاب جثتها. ثم ذهب وجلس إلى العشاء وقال "ادفنوا هذه المرأة الملعونة لأنها ابنة الملك". جاءت إليه روح المحبة بعد فوات الأوان لان النبوءة كانت قد تحققت بالفعل، فقد أكلتها الكلاب ولم يبقى منها سوى الجمجمة والقدمين وراحتي يديها.

ترك أخاب عائلة عاجزة وراهه. قتل ياهو سبعين من الأبناء الأيتام، ثم أباد جميع الأقارب والمعلمين والموظفين وأصدقاء العائلة المالكة، وبعد أن قتل ياهو رجال أخاب توجه إلى السامرة فقتل أخوة اخزيا الاثنيين والأربعين، ثم دخل السامرة وفتك بجميع الذين من بقوا فيها من جماعة أخاب. وأخيرا جمع أنبياء البعل وعبدته مدعيًا أنه يريد أن يقيم عيدًا للبعل وقتلهم. ثم استراح ياهو المبشر الطيب من الأعمال مرة أخرى.

عدنا إلى الوادي وركبنا إلى نافورة عين جالوت (جالود) او نافورة يزرعيل. وهي بركة مساحتها مائة قدم وعمقها وأربعة أقدام يصب فيها مجرى ماء من تحت الصخور، تقع وسط عزلة كبيرة. هنا نصب جدعون معسكره في العصور القديمة، ويوجد خلف شونم بنو مديان والعمالقة بني المشرق الذين كانوا ينزلون إليهم كغزوات مثل الجراد في الكثرة، حيث كان عددهم واحد مائة وخمسة وثلاثون ألف رجل، وكان لديهم وسائل نقل تكفي لهذا العدد.

مع ثلاث مئة رجل فقط فاجأهم جدعون في الليل، ووقف ينظر إليهم يذبحون بعضهم بعضا حتى سقط منهم مئة وعشرين ألف.

أقمنا مخيما في جنين قبل الظلام ثم نهضنا وواصلنا السير مرة أخرى بعد الواحدة صباحا. ومع طلوع النهار مررنا بمكان فيه بئر تقول الروايات الصادقة انه البئر الذي ألقى يوسف فيه. بعد الظهر عبرنا سلسلة من قمم الجبال تكسوها أشجار التين والزيتون، رأينا البحر الأبيض المتوسط في الأفق على بعد حوالي أربعين ميلا، ومررنا بالعديد من المدن التوراتية القديمة التي كان سكانها ينظرون إلى موكبنا المسيحي نظرة متوحشة وكانوا على وشك إلقاء الحجارة علينا، حتى وصلنا أخيرا إلى تلال بشعة المنظر ذات مصاطب متدرجة جعلتنا لم نصدق إننا خرجنا من الجليل ووصلنا إلى ارض السامرة.

تسلقنا تلة عالية لزيارة مدينة السامرة التي جاءت منها المرأة التي تكلمت مع السيد المسيح عند بئر يعقوب والتي جاء منها أيضا السامري الصالح. يقال أن الملك هيروودس الكبير رمم هذه المدينة الرائعة. يوجد فيها عدد كبير من الأعمدة الحجرية الخشنة، طول كل منها عشرين قدما وعرضه قدمين، ذات أشكال وزخارف معماري جذابة، تحدث عنها العديد من المؤلفين. ومع ذلك لا تعتبر جميلة المنظر مقارنة بالأعمدة اليونانية القديمة.

سكان هذا المخيم من الأشرار، ورشقوا الحجارة على جماعتين من الحجاج قبل يوم أو يومين لأنهم اشبهوا مسدساتهم عندما لم يريدوا استخدامها، وهو الشيء الذي يعتبر حكما سيئا في الغرب الأقصى وبالتأكيد في أي مكان في العالم. في أي بلاد جديدة عندما يضع المرء يده على السلاح يجب عليه استخدامه على الفور والافسوف يموت في مكانه. لقد قرأ هؤلاء الحجاج كتابات غرايمز.

لم يكن هناك شيء نفعله في السامرة سوى شراء قطع نقدية رومانية القديمة، وإلقاء نظرة على كنيسة متهدمة من عهد الصليبيين، يوجد فيها قبر كان فيه في السابق جسد يوحنا المعمدان إلى تم نقله إلى جنوة في إيطاليا.

تعرضت السامرة لحصار كارثي وجوع شديد في زمن اليشع على يد ملك سوريا (بنهدد ملك ارام)، حتى صار راس الحمار بثمانين من الفضة وربع القاب من زبل الحمام بخمس من الفضة.

يذكر التاريخ حادثة وقعت في ذلك الوقت العصيب تعطي المرء فكرة جيدة حول هول الماسي التي عانى منها الناس داخل هذه الجدران المتداعية. كان الملك يسير على الأسوار يوم ما وسمع امرأة تصرخ قائلة " اغثني يا سيدي الملك" قال لها الملك ما لك فقالت أن هذه المرأة قد قالت لي هاتي ابنك فناكله اليوم ثم نأكل ابني غدا، فسلقنا ابني وأكلناه ثم قلت لها في اليوم الآخر هاتي ابنك فناكله فخبأت ابنها".

أعلن النبي اليشع أنه وخلال أربع وعشرين ساعة يجب أن تنزل أسعار المواد الغذائية حتى تصل إلى لا شيء تقريبا. بعد ذلك حطم الجيش السوري المعسكر ثم رحل لسبب ما، وانتهت بعدها المجاعة وانتهى معها التنافس على زبل الحمام ولحم الحمير.

سارنا بمغادرة هذه القرية القديمة المغبرة والحارة. عند الظهر توقفنا لتناول طعام الغداء والراحة في مدينة شكيم القديمة الواقعة في الوادي المحاط بجبلي جرزيم وعبيال. في العصور القديمة كانت تقرا هنا خطابات القانون (الناموس) واللعنات والبركات من المرتفعات إلى سكانها اليهود.

الفصل 52

الوادي الضيق الذي تقع فيه مدينة نابلس صالح للزراعة وتربته خصبة وسوداء اللون، ترويه المياه، والغطاء النباتي فيه يتناقض مع التلال الجرداء المحيطة به. جبل جرزيم هو "جبل البركة" القديم وجبل عيبال هو "جبل اللعنة"، والحكماء الذين كانوا يسعون لتحقيق النبوءة اعتقدوا أنهم يجدون هنا معجزة من هذا النوع، والغريب في الأمر ان "جبل البركة" خصبة والجبل الآخر مجذب وقاحل. ومع ذلك لم نرى حقا أي فرق كبير بينهما في هذا الشأن.

كانت شكيم مقرا للأسباط (الطائفة السامرية) الذين ثاروا على إخوانهم من بني إسرائيل ونشروا مذاهب لا تتفق مع العقيدة اليهودية الأصلية. عاش السامريون في شكيم لآلاف السنين في ظل مقاطعة صارمة، لم يسمح لهم خلالها بممارسة التجارة أو إقامة العلاقات مع أبناء قومهم من أي دين أو قومية. لم يزد عددهم عن مئة أو مئتين لفترة طويلة، ولكنهم لا يزالون متمسكين بإيمانهم ويحافظون على الشعائر والاحتفالات القديمة. يتحدثون دائما عن الأسرة والنسب القديم، الأمراء والنبلاء يفتخرون بالسلالة والأنساب الذين يمكن تتبعهم لمئات السنين. ما هذه التقاهة لهذه الطائفة من أقدم العائلات في شكيم الذين يمكنهم تسمية آبائهم وأجدادهم لآلاف السنين دون خطأ، يعودون إلى فترة بعيدة حتى أن الرجال، الذي كبروا في بلد تسمى فيه المائتي سنة الماضية "الأيام الخوالي"، يصيبهم الدهول والحيرة لسماع ذلك. هنا الاحترام، هنا "العائلة"، هنا النسب العالي الجدير بالحديث عنه. هذه البقية المحزنة المنحدرة من عشيرة قوية تعيش في معزل عن جميع الناس، يعيشون كما عاش آباؤهم ويقلدونهم في الأعمال والأفكار والمشاعر والعبادة في نفس الأماكن أو قربها، يتبعون نفس الأساليب والسلطات الأبوية التي سادت بين أسلافهم منذ أكثر من ثلاثين قرنا. وجدت نفسي انظر بإعجاب شديد على السليل التائه لهذا العرق الغريب تماما كما لو أن المرء ينظر إلى عجائب هذا العالم الغامض قبل طوفان نوح.

هذه الطائفة السامرية الغريية لا زالت تحتفظ في الأرشيف المقدس بنسخة أصلية من الشريعة اليهودية القديمة يقال أنها الوثيقة الأقدم على وجه الأرض، وهي مكتوبة على الرق عمرها حوالي أربعة أو خمسة آلاف سنة، لا يمكن لاحد أن يراها إلا من خلال دفع البغشيش. وقد تضاءلت شهرتها إلى حد ما في الأيام الأخيرة وذلك بسبب الشكوك التي عبر عنها العديد من المؤلفين الذي زاروا فلسطين. والحديث عنها يجعلني اشعر بأنني اشتريت من الكاهن الرفيع المقام وثيقة سرية بالغة القدم وشديدة الأهمية سعرها عالي جدا وعلي أن انشرها فور الانتهاء من ترجمتها.

أصدر يشوع أمرا بالقضاء على أولاد بني إسرائيل في شكيم، ودفن فيها كنزا ثميناً تحت شجرة بلوط في نفس الوقت تقريبا. الخرافات لدى السامريين تحذر دائما من مغبة البحث عنه حيث يعتقدون أن الأرواح الشريرة الخفية تحرسه.

على بعد كيلومتر ونصف من شكيم توقفنا عند أسفل جبل عيبال بالقرب من مكان مربع الشكل محاط بجدار حجري شديد البياض. في احدى جوانبه يوجد قبر يوسف الذي شيد على طريقة المسلمين، وهو ما يؤكد صحته.

عندما كان يوسف يحتضر تنبأ بخروج العبرانيين من مصر وهو ما حدث بعد أربعة مائة سنة. ثم اخذ من أبناءه عهداً بأن يحملوا عظامه معهم ويدفونها في ارض أجداده عندما يعودون إلى أرض كنعان. وقد نفذوا وصيته "ودفنوا عظام يوسف التي احضرها بنو إسرائيل من مصر في شكيم في قطعة الحقل التي اشترها يعقوب من أبناء حمور أبي شكيم بمائة قسيطة من الفضة."

قبر يوسف هو من بين المقابر القليلة على الأرض التي تحظى بالتبجيل لدى العديد من الأعراق والمذاهب. يزوره ويعظمه السامري واليهودي والمسلم والمسيحي على حد سواء. هذا هو قبر

يوسف، الابن مطيع، الأخ الحنون، المتسامح، الرجل الفاضل، والأمير والملك الحكيم. ورأت مصر نفوذه والعالم لا ينسى هذا التاريخ.

في نفس قطعة الحقل التي اشتراها يعقوب من أبناء حمور بمائة قسيطه من الفضة يوجد قبر يعقوب أيضا، منحوت في الصخور الصلبة، مساحته تسعة أقدام وارتفاعه تسعين قدما. اسم هذا القبر المتواضع الذي يمكن للمرء أن يمر به ولا يعيره أي اهتمام مألوف وشائع بين الناس وبين العديد من الفلاحين في الأماكن البعيدة. وهو أكثر شهرة من البارثينون (معبد إغريقي في مدينة أثينا) وأقدم من الأهرامات.

عند بئر يعقوب جلس يسوع حيث دار حوار رائع مع المرأة السامرية وأخبرها عن الماء الحي. بما أن نسل النبلاء الإنجليز لا يزالون يعتزون كيف أن ملكا ما مكث يوما مع بعض أسلافهم المفضلين قبل ثلاثمائة سنة، فلا شك أن أحفاد هذه المرأة السامرية هنا في شكيم لا يزالون يشيرون ببعض الغرور إلى ذلك الحوار الذي دار بين أحد أسلافهم ويسوع المسيح. والسامري كانسان محبوب على الطبيعة البشرية التي تتذكر دوما الاتصال مع المشاهير والعظماء.

وبسبب هذه الجريمة التي لحقت بشرف العائلة اقترف أبناء يعقوب المذبحة الرهيبة على شكيم بكاملها ذبحا وتقتيلا وسبيا ونهبا وسلبا.

غادرنا بئر يعقوب وسافرنا ببطء لأننا كنا نسير منذ تسع عشرة ساعة وكانت الخيول مرهقة من شدة التعب. وصلنا قبل الخيام واضطررنا إلى إقامة مخيم في إحدى القرى العربية والنوم على الأرض. كان بإمكاننا النوم في بيت كبير في القرية ولكنه كان البيت قذرا جدا ويعج بالحشرات والذباب، وكان قطع من الماعز في غرفة النوم وحمارين في الصالة. لم يكن في القرية أي أمور مزعجة سوى الفلاحين والفلاحات من كافة الأعمار الذين جلسوا حولنا يعلقوا علينا وينتقدونا بأصوات عالية حتى

منتصف الليل. صوتهم لم يزعجنا كثيرا لأننا كنا متعبين ولكن كان من الصعب علينا الخلود إلى النوم وهم ينظرون إلينا. ذهبنا إلى الفراش الساعة العاشرة ونهضنا مرة أخرى الساعة الثانية ليلا على صوت المترجمين الذين كان همهم الوحيد في الحياة هو منافسة بعضهم البعض.

عند بزوغ النهار مررنا بمدينة شيلوه التي كانت مقرا للتابوت والخيمة التي بقيت فيها ثلاثمائة سنة. عند بواباتها سقط ايلي العجوز الصالح وانكسرت عنقه عندما أخبره الرسول عن هزيمة شعبه، ووفاة أبنائه، والاستيلاء على السفينة القديمة التي احضرها الأجداد معهم من مصر. بالنسبة لنا لم تكن شيلوه جذابة، وكان الجو شديد البرودة ولم نجد بديلا سوى الاستمرار في السفر وغلبننا النعاس والتعب ونحن نركب الخيول.

بعد حين وصلنا إلى كتلة من الأنقاض عديمة الشكل اسمها بيت إيل. هنا نام يعقوب ورأى الرؤية الرائعة، رأى الملائكة ترفرف صعودا وهبوطا على سلم يمتد من الغيوم إلى الأرض، ولمح بيوتهم المبارك عبر بوابات السماء المفتوحة. أخذ الحجاج ما تبقى من الخرائب المقدسة، ثم اصلنا السير نحو هدفنا وهو القدس المشهورة.

كلما تقدمنا نحو القدس كلما ازدادت حرارة الجو، وأصبحت المناظر الطبيعية وعرة وجرداء وكثيية ومثيرة للاشمئزاز. لم نعد نرى المزيد من الحجارة المبعثرة في هذا الجزء من العالم. لم يعد هناك شجرة أو شجيرة في أي مكان. حتى الزيتون والصبار أصدقاء التربة الجرداء غير موجودة في هذه المنطقة. هذه المناظر الطبيعية في الطرق المؤدية إلى القدس قبيحة ومتعبة للعين. الفرق الوحيد بين الطرق والأراضي المحيطة بها هو أن هناك صخورا في الطرق أكثر من الصخور الموجودة في الأراضي المحيطة بها.

مررنا بقريّة الرام والبييرة وشاهدنا قبر صموئيل النبي، ولكننا لم نرى القدس في الأفق. أسرعنا الخطى بفارغ الصبر، ثم توقفنا عند عين البييرة ولكننا لم نهتم بحجارتها التي أصابها الاهتراء بسبب ذقون الحيوانات العطشى التي ولت منذ قرون. صعدا التلال وبدأنا برفع رؤوسنا للأعلى للنظر قبل وصولنا إلى القمة، ولكننا رأينا تلالا فقط ومناظر طبيعية قبيحة، لم نرى المدينة المقدسة.

واخيرا بعد منتصف النهار، ظهرت جدران صغيرة وبعض الأقواس المتداعية على طول الطريق. صعدا على آخر تلة فرأينا القدس وبدأ كل حاج منا بالتلويح بقبعته.

برقت المدينة المقدسة تحت أشعة الشمس، شامخة على التلال الأبدية، قبتها صلباء بيضاء اللون، تحيط بها جدران رمادية عالية. صغيرة الحجم والمساحة، ولا تزيد مساحتها عن مساحة قرية أمريكية عدد سكانها أربعة آلاف نسمة، وليست أكبر من مدينة سورية عادية عدد سكانها ثلاثين ألف نسمة. عدد سكان القدس هو أربعة عشر ألفا فقط.

نزلنا عن خيولنا، لم نقل سوى بعض العبارات، نظرنا عبر الوادي الواسع المتداخل لمدة ساعة أو أكثر، لاحظنا تلك السمات البارزة للمدينة التي جعلتها الصور مألوفة وشائعة بين جميع الناس من المدرسة حتى الموت. عرفنا برج هيكوس ومسجد عمر وبوابة دمشق وجبل الزيتون ووادي شعفاط وبرج ديفيد وحديقة الجثمانية، ومن تاريخ هذه المعالم أمكننا تحديد المعالم الأخرى التي لم نتمكن من التعرف عليها.

أسجل هنا حقيقة بارزة ولكنها ليست مخزية وهي أن حاجنا لم يكن. كانت أذهاننا تعج بالأفكار والصور والذكريات التي أثارها التاريخ العريق للمدينة المقدسة أمامنا، ومع ذلك لم يبكي احد منا.

لم يكن هناك داعي للدموع لأنها كانت غير مناسبة في هذا الوضع. القدس تثير فينا أفكار مليئة بالأشعار والسمو والكرامة، ومثل هذه الأفكار لا تجد تعبيرات مناسبة لها في مشاعر روضات الأطفال.

بعد الظهر تجولنا في شوارع القدس الضيقة الملتوية العتيقة بالقرب من بوابة دمشق الشهيرة. قضيت عدة ساعات وأنا أحاول أن أفهم أنني حقا في المدينة القديمة اللامعة التي سكن فيها سليمان وتكلم أبراهيم مع الله، أقف وأشاهد الجدران التي شهدت على صلب المسيح.

الفصل 53

يمكن للمرء أن يتجول في كامل القدس ويخرج خارج أسوارها في غضون ساعة واحدة. أنا لا أعرف ما أقوله لأجعل المرء يصدق أنها صغيرة للغاية. مظهرها غريب، مليئة بالقباب مثل باب السجن، كل بيت يعلوه عدد من القباب الحجرية العريضة والمنخفضة بيضاء اللون، تقع القبة عادة في مركز سطح المنزل المنبسط. ولهذا السبب، عندما ينظر المرء من منطقة عالية إلى أكوام المنازل المكسدة يرى أكثر المدن في العالم اكتظاظا بالقباب باستثناء مدينة القسطنطينية. وتبدو كما لو أنها مسقوفة بصحن مقلوب من مركزها إلى محيطها. ومنظرها العام يبدو رتيا باستثناء مسجد عمر و برج هيبكوس ومبنى أو مبنين لهما ارتفاع بارز.

المنازل مكونة عادة من طابقين من الحجارة، قوية البناء، بيضاء اللون، يبرز من الشبابيك مشبك خشبي. لإعادة إنتاج أو تقليد أحد شوارع القدس عليك فقط أن تقلب حظيرة الدجاج وتعلقها أمام كل شباك في أزقة البيوت الأمريكية.

الشوارع رديئة ومرصوفة بالحجر بشكل سيئ، وهي ملتوية بصورة مقبولة، لذا يبدو الشارع وكأنه ينغلق أمامك باستمرار ويصل إلى نهاية مائة متر قبل وصولك طالما أنك اخترت المشي فيه. وغالبا

ما يبرز من اعلى الطابق السفلي شرفات صغيرة الحجم ليس لها دعائم، وهي قريبة جدا من بعضها البعض لدرجة إنني رأيت القطط تقفز من شرفة إلى أخرى، ويمكنها أيضا أن تقفز ضعف المسافة بسهولة. هذه الأمور تشير إلى ضيق الشوارع، وهذا يعني أن الشوارع في المدينة المقدسة ضيقة ولا تتسع للعربات أو المركبات.

يتألف سكان القدس من اليهود والمسلمين والإغريق واللاتين والأرمن والسوريين والأقباط والأقباش والكاثوليك. يوجد حوالي مائة من طائفة البروتستانت وهم كل من يسكن منهم في كل أرجاء فلسطين. ولا مجال هنا لحصر جميع أطياف هذه القوميات والأعراق واللغات التي يتحدثون بها. ويبدو لي أن جميع الأجناس والأعراق والألوان والألسنة على الأرض لها تمثيل بين سكان القدس. الملابس البالية والشقاء والفقر والتراب هي الإشارات والرموز الدالة على حكم المسلمين أكثر من دلالتها على الهلال نفسه. الجذام والشلل والعمى والغباء منتشرة في كل مكان وهؤلاء السكان لا يعرفون إلا كلمة واحدة فقط وهي لغة "البغشيش". الأعداد الكبيرة من المشوهين والمرضى والمعاقين التي تحتشد في أزقة المدينة وتسد البوابات توحى للمرء بان الأيام الخوالي قد عادت مرة أخرى، وأن ملاك الله سوف ينزل في أي لحظة ويحرك المياه في بيت صيدا. القدس حزينة وكئيبة ولا حياة فيها، ولا أريد العيش فيها.

من الطبيعي أن يزور المرء أولا كنيسة القيامة التي تقع وسط المدينة بالقرب من مدخلها الغربي. وفيها صلب المسيح، لذا فان جميع الأماكن الأخرى المرتبطة ارتباطا وثيقا بهذا الحدث الهائل يغطيها سقف واحد هو قبة كنيسة القيامة.

عند دخول المبنى (مرورا بالحشد المعتاد من المتسولين) يرى المرء على يساره بعض الحراس من الأتراك، وعادة لا يسمح لكافة الطوائف المسيحية بالقيام بأعمال الحراسة في هذا المكان المقدس لأنه

يؤدي إلى وقع الصراعات والمشاكل بينهم. يوجد بلاطة من الرخام تغطي حجر المرهم وهو الحجر الذي وضع عليه جسد المسيح لإعداده للدفن. وقد كان من الضروري إخفاء الحجر الحقيقي بهذا الطريقة من أجل إنقاذه من الدمار. فقد قام الكثير من الحجاج بقطع أجزاء منه لأخذها إلى أوطانهم. كما يوجد بالقرب درابزين دائري يحيط بالمكان الذي وقفت فيه العذراء عند غسل جسد المسيح.

بعد دخولنا البهو الكبير وقفنا أمام أقدس مكان في العالم المسيحي وهو قبر يسوع المسيح. يقع القبر في وسط الكنيسة تحت القبة الكبيرة مباشرة، يحيط به معبد صغير، مبني من الحجر الأصفر والأبيض، ذات تصميم رائع. داخله يوجد جزء من الحجر الذي دحرج من باب القبر، وهو الحجر الذي جلس عليه الملاك عندما جاءت مريم إلى هناك "في وقت مبكر من الفجر". نحو الأسفل دخلنا إلى قبو وهو القبر نفسه. مساحته حوالي ستة أقدام في سبعة، والحجر الذي وضع عليه جسد المسيح يمتد من بداية القبو إلى نهايته، ويأخذ نصف عرض القبو. يغطيه بلاطة رخامية مهترئة من كثرة قبلات الحجاج، وهي تعتبر بمثابة المذبح الآن. فوقها يوجد حوالي خمسين مصباحا من الذهب والفضة، مضاءة باستمرار، أما بقية الأشياء فهي عبارة عن حلي وزخرفة رخيصة.

جميع طوائف المسيحيين (ما عدا البروتستانت) لها كنائس مصليات تحت سقف كنيسة القيامة، ويجب أن تحافظ كل طائفة منها على الكنيسة الخاصة بها وليس لها الحق في التعدي على كنائس الآخرين. تبين بشكل قاطع أنه لا يمكن لجميع الطوائف ممارسة شعائر العبادة حول القبر في سلام. كنيسة المسيحيين السوريين ليست جذابة. أما كنيسة الأقباط فهي أكثرها تواضعا إذ أنها مجرد كهف كئيب محفور تقريبا في الصخر في "تل الجمجمة". في إحدى جوانبها يوجد قبرين قديمين يقال أنها قبوري نيقوديموس ويوسف الرامي.

تتقلنا بين جدران وأعمدة موقع آخر في الكنيسة، رأينا مجموعة من الرهبان الإيطاليين الذين يرتدون ملابس السوداء، شكلهم مثل الحيوانات، يحملون الشمعدانات في أيديهم، يرددون أصواتا باللغة اللاتينية، يؤدون نوع من الطقوس الدينية حول قرص من الرخام الأبيض. في هذا المكان ظهر المسيح لمريم المجدلية على شكل بستاني. وعلى مقربة منه كان هناك حجر مشابه له على شكل نجمة حيث كانت مريم المجدلية تقف في نفس الوقت. كان الرهبان يؤدون نوع من الطقوس الدينية في هذا المكان أيضا. في الواقع الرهبان يؤدون الشعائر الدينية في جميع أنحاء المكان الواسع، وفي جميع الأوقات. والشموع التي يحملوها تتحرك دائما في الكنيسة ثم تتضاءل بشكل يثير الكآبة، الأمر الذي يجعل الكنيسة القديمة القائمة أكثر كآبة من كونها قبرا مثيرا للكآبة.

رأينا المكان الذي ظهر فيه المسيح لوالدته بعد القيامة. كما يوجد هنا بلاطة رخامية تشير إلى المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليبان الثلاثة بعد حوالي ثلاثمائة سنة من صلب المسيح. تقول الحكايات أن هذا الاكتشاف العظيم أثار مظاهر الفرح والبهجة، ولكن هذه الفرحة لم تدم. برز تساؤل مهم: "ما الذي حمل المسيح وما الذي حمل للصوص؟" الشكوك في أمر كهذا كان مصيبة حيث تحولت فرحة الناس إلى غم وهم. ولكن هل عاش يوما ما أي كاهن لا يستطع حل مشكلة بسيطة مثل هذه؟ خطرت فكرة لبعض الكهنة ووضعوا خطة وأرادوها أن تكون اختبارا للناس. عندما أصيبت إحدى سيدات القدس بالمرض أمر هؤلاء الكهنة الحكماء بحمل هذه الصليبان الثلاثة ووضعها إلى جانب سريرها واحدا واحدا. عندما رات الصليب الأول صرخت صرخة مدوية وصل صوتها إلى بوابة دمشق وحتى جبل الزيتون ثم أغمي عليها. وعندما أفاقت ورات الصليب الثاني حصل لها تشنجات مرعبة لدرجة أن ستة رجال أقوياء لم يتمكنوا من السيطرة عليها. لذلك لم يجرؤوا على إحضار الصليب الثالث. وهنا ظنوا أنهم وجدوا الصليبان الخاطئة، وأن الصليب الحقيقي ليست بهذا العدد على الإطلاق. وعندما كادت امرأة أن تموت بسبب التشنجات التي كانت تمزقها، خلصوا إلى

أن الصليب الثالث لا يمكن أن يفعل شيئاً أكثر من إخراجها من اليأس إلى الموت السعيد. لذلك احضروه وحصلت معجزة! قفزت المرأة عن سريرها، شعرت بالفرحة والسعادة، واستعادت عافيتها تماما. عندما نستمع إلى أدلة من هذا القبيل لا يسعنا إلا أن نصدقها ونؤمن بها، وسيكون الشك بها امرأ مخجلا. المكان الذي وقعت فيه هذه الحادثة في القدس لا يزال موجودا حتى الآن، وليس هناك أي مجال للشك.

اطلعنا الكهنة من خلال حجاب صغير على جزء من العمود الذي فيه ربطوا وجلدوا يسوع. ولكننا لم نتمكن من رؤيته لأن الحجاب كان مظلما. ولكن يوجد هنا عصا يستطيع الحاج وضعها خلال الثقب في الحجاب لهذا لا يشك في أن العمود الحقيقي ليس موجودا. ليس لديه أي عذر للشك لأنه يمكن الشعور بوجوده من خلال العصا، وهو يشعر به بوضوح كما يشعر بأي شيء آخر.

وبالقرب أيضا يوجد مشكاة كانت تستخدم للحفاظ على قطعة من الصليب الحقيقي، ولكنها لم تعد موجودة الآن. اكتشفت هذه القطعة في القرن السادس عشر، ويزعم الكهنة اللاتين أن كهنة طائفة أخرى سرقوها منذ فترة طويلة. وهذا الأمر يبدو صعب التصديق، ولكننا نعرف جيدا أنها سرقت لأننا رأيناها بأنفسنا في العديد من الكاتدرائيات في إيطاليا وفرنسا.

ولكن من أكثر الآثار المقدسة المؤثرة هو ذلك السيف القديم الذي كان للصليبي الشجاع جودفري ملك القدس. لا يملك أي سيف في العالم المسيحي مثل هذا السحر، ولا يستطيع أي سيف في قاعات الأجداد في أوروبا استحضار الأحلام الرومانسية في ذهن كل من ينظر إليه، ولا يستطيع أي سيف أن يحكي قصص الفروسية أو حكايات الأبطال في الأيام القديمة. هذا السيف يثير فينا ذكريات الحرب المقدسة التي عشعشت في عقولنا لسنوات، ويملا أفكارنا بصور الجيوش الزاحفة والمعارك والحصار، ويعيد اليينا ذكريات بالدوين، وتانكرد، والأمير صلاح الدين الأيوبي، وريتشارد قلب

الأسد. كان هذا السيف مع سيوف المحاربين الأبطال، هؤلاء الأبطال الرومانسيين الرائعين الذين يفصلون المرء إلى نصفين، إن جاز التعبير، بحيث يسقط نصفه في جهة ويسقط النصف الآخر في الجهة الأخرى. هذا السيف قتل المئات من فرسان المسلمين من التاج إلى الذقن في تلك الأزمنة القديمة عندما استخدمه جودفري ببراعة. فيما بعد استخدمه رجل عبقرى كان تحت قيادة الملك سليمان. عندما كان يقترب الخطر من خيمة سيده كان السيف يضرب الدرع ويطلق صرخة إنذار مدوية في جوف الليل. وفي أوقات الشك أو الضباب أو الظلام، إذا كان يستل من غمده كان يشير حالاً إلى اتجاه العدو ويكشف الطريق، وكان يحاول بدء الهجوم من تلقاء نفسه. كان يتعرف على المسيحي المقنع ويرفض أن يؤذيه ويتعرف على المسلم المقنع ثم يقفز عليه من غمده ويقتله. هذه العبارات موثقة في العديد من الأساطير التي تعد من بين الأساطير الجديرة بالثقة التي حافظ عليها قدماء الرهبان الكاثوليك الصالحين. لا يمكنني الآن أن أنسى سيف جودفري القديم. لقد جربته على مسلم وقسمته إلى نصفين. كانت روح غرايمز تغمرني، ولو كان لي مقبرة لقتلت جميع الكفار في القدس. مسحت الدم عن السيف القديم واعدته إلى الكاهن لأنني لم أكن أريد إن يدينس الدم الطازج تلك البقع المقدسة التي جعلت سطوعه قرمزي اللون في يوم من الأيام قبل ستمائة سنة وهكذا أعطت جودفري تحذيراً بان رحلة حياته سوف تنتهي قبل غروب الشمس.

مشينا خلال الكآبة في كنيسة القيامة ووصلنا إلى مصلى صغير محفور في الصخر وهو المكان الذي عرف باسم "سجن المسيح" لعدة قرون حيث سجن فيه المسيح قبل صلبه. وتحت المذبح بجانب الباب هناك زوج من المقابض الحجرية لأرجل الإنسان التي تسمى الآن "روابط المسيح" نظراً لاستخدامها لربط أقدام المسيح قبل صلبه.

الكنيسة اليونانية في كنيسة القيامة هي أوسع الكنائس وأكثرها ثراءً وجمالاً. وكما هو الحال في جميع الكنائس اليونانية، يتكون مذبحه من حجاب رائع يمتد بوضوح عبر الكنيسة، مليء بالصور والزخارف المذهبة إضافة إلى العديد من المصابيح الذهبية والفضية الغالية الثمن.

تتميز هذا الكنيسة بوجود عمود قصير يرتفع من وسط المصطبة الرخامية للكنيسة وهو يمثل المركز الدقيق للأرض. تزعم الخرافات الأكثر موثوقية أن هذا العمود كان معروفاً بأنه مركز الأرض منذ زمن بعيد، وأنه عندما ظهر المسيح أنهى الشكوك حوله للأبد حيث أكد بعظمة لسانه على صحة الادعاء قائلاً بالحرف الواحد بأن هذا العمود يقف في مركز العالم. وإذا تغير مركز العالم، يغير العمود موقعه تبعاً لذلك. وقد انتقل هذا العمود ثلاث مرات مختلفة من تلقاء نفسه وذلك لأن نتيجة لاضطرابات عنيفة في الطبيعة في ثلاثة أوقات مختلفة حلقت كتل كبيرة من الأرض، وربما سلاسل جبلية كاملة، في الفضاء الخارجي مما أدى إلى تقليل قطر الأرض وتغيير مكان المركز بفارق نقطة أو نقطتين. هذا الحدث غريب ومثير للاهتمام، وهو توبيخ عنيف لأولئك الفلاسفة الذين يعتقدون أنه من المستحيل انفلات جزء من الأرض إلى الفضاء.

أحد المشككين الذي كان غير مقتنع بهذه الفكرة صعد إلى قبة الكنيسة لمعرفة ما إذا كانت الشمس تعطيه ظلاً عند الظهر. نزل عن الكنيسة وهو مقتنع تماماً. كان الجو غائماً ولم يكن هناك ظل للشمس على الإطلاق، ولكن الرجل اقتنع بأنه حتى لو ظهرت الشمس وأحدثت ظلالاً فلا يمكن أن يحدث له أي ظل. ألسنة المعترضين الخاملة لا تعترض على مثل هذه البراهين، فهم على استعداد للاقتناع وهم مقتنعون بأنه لا يمكن أن يهتز أي شيء.

إذا احتجنا إلى براهين أكبر من ذلك، فيوجد هنا المزيد من البراهين القادرة على إقناع الأحمق والعنيد أن هذا العمود هو المركز الحقيقي للأرض. وأعظمها هذه البراهين يكمن في حقيقة أن تحت

هذا العمود يوجد التراب الذي خلق منه آدم. يمكن اعتبار هذا الأمر مؤكداً لأن آدم هو أحد المستوطنين على الأرض. فلا يحتمل أن أول إنسان خلق من نوعية رديئة من التراب بينما كان يمكن الحصول على نوعية أجود من التراب من مركز العالم لأن هذا الأمر يتناقض تناقضاً شديداً مع العقل الرشيد. إن خلق آدم من تراب من هذه المكان هو امر مؤكداً كالشمس لأنه خلال ستة آلاف سنة لم يستطع أي إنسان في أي وقت مضى أن يثبت أنه لم يتم الحصول على التراب الذي خلق منه. وهناك امر فريد من نوعه، هنا تحت سقف هذه الكنيسة العظيمة، وليس بعيداً عن ذلك العمود، آدم نفسه أب الجنس البشري مدفون. ليس هناك شك في أنه مدفون فعلاً في القبر الذي يقال أن آدم مدفون فيه لأنه لم يثبت ابداً حتى الآن أن هذا القبر ليس هو القبر الذي دفن آدم فيه.

قبر آدم! كم كان الاكتشاف مؤثراً هنا في أرض الغرباء بعيداً عن البيت والأصدقاء والأحباب، اكتشاف القبر الذي يشير إلى علاقات القرابة. صحيح أن هذه العلاقات والقربى بعيدة، ولكنها لا تزال علاقة وقرابة. الغريزة الطبيعية التي لا تخطئ أثارت في نفسي مشاعر الاعتراف بها والتعرف عليها. فقد حركت في داخلي ينبوع المحبة للأبناء، ثم ثارت في نفسي انفعالات جياشة. اتكأت على عمود وسالت الدموع من عيني. لا اضمن أنه من العيب أن ابكي على قبر أحد أقربائي، المرحوم المسكين. "على كل من يسخر من عواطفني أن يغلق هذا الكتاب الآن لأنه لن يجد شيئاً يحلو له في رحلاتي في الأرض المقدسة". هذا الرجل النبيل آدم لم يعيش حتى يراني ولم يعيش طويلاً لرؤية حفيده. يا للأسف لم أعش حتى أراه. مات آدم متأثراً بالحزن وخيبة الآمال قبل أن أولد بستة آلاف صيف. ولكن دعونا نتحلى بالصبر والسلوان، نحن على يقين بأنه أفضل حالاً حيث يرقد الآن في قبره، فخسارته هي مغنمنا الأبدية.

أخذنا الدليل في الكنيسة إلى مذبح مخصص للجندي الروماني الذي حضر للحفاظ على النظام أثناء صلب المسيح، والذي انتفض من خوفه ثم قال (عندما مزق الظلام المرعب حجاب المعبد، وعندما تحطمت صخرة الجلجلة بواسطة الزلزال، وعندما هدر الرعد في السماء، عندما انتفض الموتى من أكفانهم في شوارع القدس في وهج البرق الحاقد): "بالتأكيد هذا ابن الله!" وقف هذا الجندي في مكان هذا المذبح أمام المسيح المصلوب على مرأى ومسمع من المعجزات التي تجلت بين القاصي والداني حول تل الجمجمة. وفي نفس هذا المكان قطع كهنة معبد راس هذا الجندي بسبب هذه كلمات الكفر التي نطق بها.

في هذا المذبح كانوا يحافظون على أحد الآثار المقدسة المثيرة للفضول وهو اغرب ما رأته عين إنسان، شيء له سحر خاص يفتن عين الناظر بطريقة غامضة ويجعله يحدق لساعات. هذا الشيء هو مجرد صفيحة نحاسية وضعت على الصليب، وعليها كتب المسيح "هذا هو ملك اليهود". أعتقد أن القدسية هيلانة، والدة قسطنطين، وجدت هذا التذكار الرائع عندما كانت هنا في القرن الثالث. فقد سافرت في جميع أنحاء فلسطين وكانت دائماً محظوظة. وكلما عثرت على شيء مذكور في الكتاب المقدس، العهد القديم أو الجديد، كانت تسافر وتبحث عنه ولا تتوقف حتى تجده حتى لو كان آدم أو سفينة نوح أو جالوت أو يشوع. أعتقد أنها وجدت هذه الصفيحة النحاسية في هذا المكان بالقرب من المكان الذي وقف فيه الجندي الروماني الشهيد، وهذه الصفيحة موجودة الآن في إحدى الكنائس في روما ويستطيع أي شخص أن يراها هناك لأن الكتابة عليها مميزة.

مررنا على بعض الدرجات ورأينا المذبح المبني على المكان الذي قام فيه الجنود بتمزيق ثياب المسيح المخلص كما يقول الكهنة الكاثوليك.

ثم نزلنا للأسفل إلى داخل كهف يقال انه كان يستخدم كخزان للماء، ولكنه الآن كنيسة القديسة هيلانة. طولها واحد وخمسين قدما وعرضها ثلاثة وأربعين قدما. يوجد فيها كرسي من الرخام استخدمتها القديسة هيلانة للجلوس أثناء الأشراف على العمال الذي كانوا يحفرون وينقبون عن "الصليب الحقيقي". في هذا المكان يوجد مذبح مخصص للقديس ديماس، اللص التائب. كما يوجد أيضا تمثال برونزي جديد وهو تمثال القديسة هيلانة الذي يذكرنا بماكسيميليان الشهيد الذي أطلق عليه النار في الآونة الأخيرة حيث كان قد قدمه إلى هذه الكنيسة عندما كان على وشك المغادرة إلى عرشه في المكسيك.

نزلنا اثني عشر درجة إلى كهف محفور في الصخر على شكل مغارة تقريبا، حفرته القديسة هيلانة عندما كانت تبحث عن الصليب الحقيقي. قامت القديسة بأعمال حفر شاقة ومضنية، ولكنها كانت مثمرة في النهاية حيث عثرت على التاج الشوكي، ومسامير الصليب، والصليب الحقيقي، وصليب اللص التائب. وعندما ظنت أنها وجدت كل شيء وكانت على وشك التوقف عن أعمال البحث، قيل لها في المنام أن تستمر في البحث يوما آخر. وقد كانت محظوظة حيث واصلت البحث ووجدت صليب اللص الأخر.

جدران وسقف هذا الكهف لا يزالان بيكيان الدموع المريرة على ذكريات هذا الحدث الذي وقع على مصلب المسيح، والحجاج المتدينين يتأوهون ويتهدون عندما تقع هذه الدموع الحزينة عليهم من الصخر الذي يسقط منه القطرات. يطلق الرهبان على هذا المكان اسم "كنيسة اختراع الصليب" وهو اسم غير لائق لأن ذلك يومهم الجاهل بان هذا هو اعتراف ضمنى بأن حكاية عثور القديسة هيلانة على الصليب الحقيقي هي خيال وخداع. ولكن يسعدنا أن نعلم أن الأذكاء لا يشكون في القصة بكل تفاصيلها.

الكهنة من مختلف المصليات والطوائف في كنيسة القيامة يستطيعون زيارة هذا الكهف المقدس للبكاء والعبادة والصلاة على المسيح المخلص. ومع ذلك لا يسمح لتجمعين مختلفين من المصلين بالدخول في نفس الوقت لأن هذا يؤدي إلى نزاعات وصراعات بينهما دائما.

مشينا في كنيسة القيامة المقدسة بين الكهنة الذين يرتلون الصلوات ويرتدون أثوابا وأحذية طويلة وخشنة والحجاج الذين يأتون من كافة الأطياف والجنسيات يلبسون مختلف الأزياء الغريبة، تحت الأقواس المعتمة والممرات والأعمدة الداكنة. مشينا في عتمة الكاتدرائية الكئيبة المليئة بالدخان والبخور، تتوهج فيها عشرات الشمعدانات الخافتة التي تظهر وتختفي فجأة أو انجرفت بصورة غامضة هنا وهناك حول الأروقة البعيدة مثل أشباح الفوانيس في عيد القديسين، حتى وصلنا أخيرا إلى كنيسة صغيرة تسمى "كنيسة الإهانات" وهي المكان الذي يشير فيه التقليد إلى الإهانات التي وجهت ليسوع المصلوب حيث سخروا منه وجعلوا منه ملكا ووضعوا على راسه تاجا من الشوك، ثم عصبوا عينيه وضربوه، وقالوا له في سخرية، "تنبأ بمن يقوم بضربك!". تقول الروايات أن مكان الإهانات هو مكان قديم جدا حيث أكد لنا الدليل أن (ساوولف) كان أول من ذكره. ومع إنني لا أعرف من هذا الرجل إلا إنني لا أستطيع أن اعترض على هذه الشهادة ولا يستطيع أحد منا أن يفعل ذلك.

أطلعونا على المكان الذي دفن فيه جودفري العظيم وشقيقه بالدوين (أول الملوك الصليبيين لبيت المقدس) في القبر المقدس الذي قاتلوا من أجله ببسالة طويلا بهدف انتزاعه من أيدي الكفار. ولكن المشكاة التي احتوت على رماد هؤلاء الصليبيين المشاهير كانت فارغة، واختفت أيضا أغطية مقابرهم التي دمرها الأعضاء الملتزمين في الكنيسة اليونانية لان جودفري وبلدوين كانوا من طائفة اللاتين وتربوا على العقيدة المسيحية التي تختلف في بعض النواحي عن عقيدتهم.

ثم سرنا وتوقفنا أمام قبر ملكي صادق (ملك القدس) الذي خرج وفرض العشور على إبراهيم في الوقت الذي لاحق فيه خاطفي لوط إلى منطقة دان وأخذ منهم كل ممتلكاتهم قبل حوالي أربعة آلاف سنة ثم توفي بعد ذلك بفترة وجيزة. ولكن لا يزال قبره محفوظ بحالة جيدة.

عندما يدخل المرء إلى كنيسة القيامة أول شيء يرغب في رؤيته هو القبر نفسه وهو فعلا ما يراه في الأول. ثم يتوق لرؤية المكان الذي صلب فيه المسيح المخلص مع انهم لا يعرضونه إلا في آخر المشوار. يجعل المرء يشعر بالعظمة والتأمل عندما يقف في قبر المسيح المنقذ لكنه لا يشعر بتاتا بأن المسيح يرقد فيه لذلك كل ما يحس به في هذا المكان هو هذا الشعور. هنا ينظر المرء إلى المكان الذي وقفت فيه مريم والمكان الذي وقف فيه يوحنا ومريم المجدلية عندما سخر الناس من المسيح والمكان الذي جلس فيه الملاك والمكان الذي وجد فيه التاج الشوكي، والصليب الحقيقي، والمكان الذي ظهر فيه المسيح المنقذ. ينظر المرء إلى جميع هذه الأماكن باهتمام، ولكن بنفس الشعور الذي أحس به عندما شاهد القبر، يحس بأنه لا يوجد شيء حقيقي وان الرهبان هم الذين صنعوا هذه الأماكن المقدسة الوهمية. ومع ذلك، مكان صلب المسيح يؤثر بشكل مختلف حيث يؤمن المرء بأنه ينظر إلى نفس المكان الذي فقد فيه المنقذ حياته. يتذكر أن المسيح كان مشهورا جدا قبل مجيئه إلى القدس بوقت طويل ونظرا لشهرته الواسعة تبعته حشود كبيرة طوال الوقت، دخوله إلى المدينة أدى إلى إثارة مشاعر جياشة، وكان استقبال الناس له نوع الاحتفاء الرسمي والشعبي، وعندما كان مصلوبا كانت هناك أعداد كبيرة من القدس تؤمن بأنه ابن الله الحقيقي. تنفيذ حكم الإعدام بمثل هذه الشخصية البارزة أمام الناس كان كافياً في حد ذاته لجعل هذا المكان خالدا في عقول الناس إلى الأبد. العاصفة والظلام والزلازل وتمزيق حجاب المعبد والاستيقاظ المفاجئ للموتى هي أحداث عظيمة رسخت الإعدام ومشهد الإعدام في ذاكرة الناس وحتى الشهود الذين لا عقل لهم. يحكي الآباء لأبنائهم عن هذه القصة الغربية وينقلها الأبناء إلى أبنائهم، وهكذا ستمر فترة ثلاث مائة سنة بسهولة

في الزمن الذي جاءت فيه القديسة هيلانة وبنت كنيسة على مصلب المسيح لإحياء ذكرى وفاته ودفنه والحفاظ على المكان المقدس في ذاكرة الأنسان، ولا زال هنا كنيسة منذ ذلك الوقت. لهذا لا يمكن أن يكون هناك أي خطأ حول مكان صلب المسيح. ربما لم يعرف سوى بعض الأشخاص مكان الدفن والدفن ليس حدثاً مذهلاً بحد ذاته، لذلك، لنا الحق في الشك في القبر، ولكن ليس في مكان صلب المسيح. بعد خمسمائة عام لن يكون هناك بقايا لنصب بنكر هيل التذكاري ولكن أمريكا سوف تعرف دوماً مكان المعركة ومكان سقوط وارن. صلب السيد المسيح كان حدثاً بارزاً في القدس، وأصبح تل الجمجمة أيضاً مشهوراً لدرجة أنه لا يمكن نسيانه في فترة ثلاث مائة سنة. تسلقت الدرجات في الكنيسة التي تؤدي إلى قمة برج صغير من الصخر ونظرت إلى المكان الذي وقف فيه الصليب الحقيقي وأحسست بمشاعر أقوى بكثير من المشاعر التي أحسست بها نحو أي شيء دنيوي آخر. لم أصدق أن الثقوب الثلاثة الموجودة في الجزء العلوي من الصخر هي الثقوب الحقيقية التي وقفت فيها الصلبان، ولكنني شعرت بالارتياح لأن تلك الصلبان وقفت بالقرب من المكان الذي وقفت فيه من قبل، وبن مسافة بعض الأمتار من الفرق المحتمل لا تشكل أمراً ذات أهمية.

عندما يقف المرء مكان صلب المسيح المخلص، يجد أنه كل ما يمكنه القيام به للحفاظ على عقله هو الاعتقاد بأن المسيح لم يصلب في الكنيسة الكاثوليكية. يجب أن يذكر نفسه بين الحين والآخر بأن الحدث العظيم جرى في الهواء الطلق وليس في زنزانة مظلمة مضاءة بالشموع في زاوية صغيرة في كنيسة كبيرة.

يوجد تحت المذبح الرخامي حفرة دائرية في الأرضية الرخامية تطابق الحفرة التي وقف فيها الصليب الحقيقي. أول شيء يفعله المرء هنا هو أن يركع ويمسك شمعة ويتفحص الحفرة. تحتاج هذه العملية من التنقيب الغريب إلى كمية من الجاذبية لا يقدرها أي رجل لم يجرب هذه العملية من قبل.

بعدها يحمل الشمعة ويقف أمام صورة للمسيح ذات نقوش رائعة، محفورة على لوح من الذهب تسقط عليه أشعة ونجوم رائعة من الماس المعلق فوق الحفرة داخل المذبح، يتحول بعدها هذا الوقار إلى نوع من الإعجاب. بعدها يصعد للأعلى ويرى صور مزخرفة للمسيح وصور الأشرار الذي ارتقوا فوق الصليبان تقع خلف المذبح يصدر عنها بريق معدني له ألوان مختلفة. ثم ينتقل المرء ويرى بالقرب شخصيات مريم المجدلية ومريم العذراء، بالقرب من الشق الذي أحدثه الزلزال في الصخر وقت الصلب، والامتداد الذي شاهده فيه جدار أحد الكهوف في الأسفل. بالقرب يوجد صندوق عرض فيه شخصية العذراء، والثروة الأميرية من الأحجار والمجوهرات الكريمة المعلقة بشكل كثيف بحيث أنها تخفي الصندوق تقريبا. أما الزخارف المبهجة للكنيسة اليونانية فإنها تسيئ للعين وتجعل الإنسان يتذكر أن هذا هو مكان الصلب، أي تل الجمجمة. وآخر ما يراه المرء هو ما راه في المقام الأول وهو المكان الذي وقف فيه الصليب الحقيقي. هذا المشهد يجعله مقيدا بمكان الحادث ويجبره على النظر مرارا وتكرارا بعد أن يكون قد أشبع فضوله وفقد أي اهتمام بالأشياء الأخرى الموجودة في هذا المكان.

ولذا فإنني انهي هذا الجزء حول كنيسة القيامة، أقدس بقعة على الأرض يقدها ملايين الرجال والنساء والأطفال من النبلاء والمتواضعين والعبيد والأحرار، كانت منذ بدايتها، في تاريخها وفي ارتباطاتها، الصرح الأكثر شهرة في العالم المسيحي، بما فيها من العروض الجانبية والخدع غير اللائقة من كل نوع. لا زالت شامخة ومقدسة وعريقة لان الها مات هنا، وعلى مدى ألف وخمسمائة سنة كانت أضرحتها مبللة بدموع الحجاج من أقصى بقاع الأرض، على مدى أكثر من مائتي سنة ضحى أشجع الفرسان الذي حملوا السيوف بحياتهم للسيطرة عليها والاحتفاظ بها كمكان مقدس من دنس الكفار. وحتى في أيامنا هذه وقعت حرب ضروس كلفت الملايين من الأموال والأنفس بين أمتين متنافستين ادعت كل منها حقها في وضع قبة جديدة عليها. التاريخ يزخر بهذه الكنيسة القديمة

للقبر المقدس، يزخر بالدماء التي سالت بسبب الاحترام والتبجيل الذي ودع فيه الناس المسيح الوديع والمتواضع واللطيف والمعتدل أمير السلام!

الفصل 54

كنا واقفين في شارع ضيق بالقرب من برج انطونيو. قال لنا الدليل "على هذه الحجارة المنهارة جلس المسيح واستراح قبل حمله الصليب، وهذه هي بداية طريق الآلام أو طريق الحزن". مررنا تحت قوس "إيك هومو" (هذا هو الرجل) ورأينا نفس النافذة التي أطلت منها زوجة بيلاطس وحذرت زوجها من اضطهاد الرجل العادل، وهذه النافذة لا تزال بحالة ممتازة مع أنها قديمة جدا. رأينا المكان الذي جلس فيه يسوع للمرة الثانية عندما رفض الناس تسليمه وقالوا: "دعوا دمه يسيل على رؤوسنا وعلى رؤوس أبناء أبنائنا إلى أبد الأبد". يقوم الروم الكاثوليك ببناء كنيسة على هذا المكان (مع التبجيل المعتاد للآثار التاريخية) ويلحقون بها البقايا الجديدة للأسوار القديمة التي وجدوها. رأينا المكان الذي سقط فيه المسيح المخلص تحت وطأة الصليب الثقيل. كان هنا عمود رائع من الجرانيت من معبد قديم، وقد وقع عليه الصليب الثقيل بقوة لدرجة انه قسمه إلى قسمين. هذه هي القصة التي رواها لنا الدليل عندما توقفنا امام العمود المكسور.

عبرنا الشارع ووصلنا إلى البيت السابق للقديسة فيرونيكا. عندما مر المخلص من هنا خرجت فيرونيكا من بين الناس تملؤها العاطفة الأنثوية، تحدثت معه بكلمات الحب والحنان، لم تخف من تهديدات الغوغاء، مسحت العرق عن وجهه بمنديلها. لقد سمعنا الكثير عن القديسة فيرونيكا ورأينا صورها ورسومات لها لعدد من كبار الفنانين لدرجة أن الأمر كان مثل لقاء صديقة قديمة بشكل غير متوقع في منزلها في القدس القديمة. الحادثة الغريبة التي جعلت اسمها مشهورا هو أنها عندما جففت العرق عن وجه المنقذ ظلت اثار وجهه على المنديل كصورة مثالية ولا زالت حتى يومنا هذا. كنا

نعرف ذلك من قبل لأننا شاهدنا المنديل في كاتدرائية في باريس، وفي كاتدرائية أخرى في إسبانيا، وفي إيطاليا. في كاتدرائية ميلان يحتاج المرء إلى خمسة فرنكات لرؤيتها، وفي كاتدرائية القديس بطرس في روما لا يمكن رؤيتها بأي ثمن. لهذا لا يوجد أي أثر ديني مؤكد عليه بوضوح كما هو الحال بالنسبة للقديسة فيرونيكا ومنديلها.

وعند زاوية أخرى رأينا تتلیم (تسنين) عميق في البناء الحجري لزاوية المنزل يقول الدليل انه حدث بسبب كوع المخلص عندما تعثر وسقط هنا. بعدها وصلنا إلى تتلیم آخر في جدار من الحجر يقول الدليل أن المخلص وقع هنا أيضا مما أدى إلى حدوث هذا التتلیم بسبب كوعه.

هناك أماكن أخرى سقط فيها المسيح وأخرى استراح فيها. ولكن أحد أكثر المعالم غرابة في التاريخ القديم التي وجدناها هذا الصباح خلال الممرات الملتوية المؤدية إلى تل الجماجم هو حجر مبني في بيت، كان مدرز وعليه ندب لدرجة انه كان يشبه وجه الإنسان البشع. النتوءات فيه لامستها كثير من الخدود والقبلات العاطفية من العديد من أجيال الحجاج الذين قدموا من بلاد بعيدة. قال الدليل أن هذا الحجر كان واحدا من "حجارة القدس" التي ذكرها المسيح عندما سمح للناس بالبكاء بترنيمه "هوسانا!" عندما دخل إلى المدينة على حمار. سال أحد الحجاج "لكن لا يوجد دليل على أن الحجر صرخ لان المسيح قال أنه إذا توقف الناس عن قول "هوسانا" فان الأحجار سوف تفعل ذلك." ظل الدليل ساكتا تماما وقال بهدوء "هذا هو أحد الحجارة الذي يصرخ". لم يكن هناك فائدة تذكر من محاولة زعزعة إيمان هذا الرجل البسيط لأنه كان من السهل علينا أن نرى ذلك.

وصلنا أخيرا إلى معجزة أخرى ذات أهمية خاصة، انه البيت الحقيقي الذي عاش فيه "اليهودي التائه" المعروف في الأغاني والأساطير على مدى أكثر من ألف وثمانمئة عام. في يوم صلب المسيح وقف هذا اليهودي على المدخل القديم وذراعيه على خاصرته ينظر إلى الغوغاء يمرون من أمامه، وعندما

جلس المسيح واستراح قليلاً ضربه بوقاحة قائلاً "أسرع للموت!"، رد عليه المسيح "تحرك أنت أيضاً بالمثل!" ولم يتم إبطال مفعول هذا الأمر منذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا. يعرف الناس أن هذا اليهودي الحقيير الذي سقطت اللعنة على رأسه جاب العالم طويلاً وعرضاً في كل الأزمان سعياً وراء الراحة ولكنه لم يجدها ابداً. اشتاق للوقوف في المدينة وفي البراري وفي عزلة الصحاري، لكنه دائماً يسمع ذلك الإنذار العنيد الذي يطلب منه الاستمرار في المشي قائلاً "للأمام سر". ويقال أنه عندما حاصر الإمبراطور الروماني تيتوس القدس وذبح أحد عشر ألفاً يهودياً في شوارعها وأزقتها كان هذا "اليهودي التائه" يظهر دائماً في ذروة الصراع، وأنه عندما لمعت الرماح في الهواء احنى رأسه تحتها، وعندما ومضت السيوف بالبريق القاتل قفز في طريقها، وكشف عن صدره للرماح والأسهم ولكل أنواع الأسلحة التي تنذر بالموت والنسيان وغيرها. ولكن كان الأمر بلا فائدة، فقد خرج من المذبحة بدون أي جرح. يقال انه وبعد خمسمائة سنة تبع محمد عندما حمل الدمار للمدن في الجزيرة العربية، ثم وقف ضده طامحاً بموت الخائن، لكن حساباته كانت خاطئة مرة أخرى. ثم سعى للموت بعد خمسمائة سنة، اي في الحروب الصليبية، وعرض نفسه للمجاعة والطاعون في عسقلان. ثم هرب مرة أخرى ولم يمكنه الموت. هذه المضايقات المتكررة هزت ثقته بنفسه. ومنذ ذلك الحين قام "اليهودي التائه" بنوع من اللعب المنقطع بأدوات ووسائل التدمير، حاملاً في نفسه بعض الأمل. تأمل وفكر في الكوليرا والسكك الحديدية، واهتم اهتماماً شديداً بالآلات الجهنمية وبراءات اختراع الأدوية. الآن هو كبير في السن ورزين، لا يقحم نفسه في أعمال التسلية، يذهب أحياناً إلى عمليات الإعدام، وهو مولع بالجنازات.

هناك شيء واحد لا يمكنه أن يتجنبه، مهما دار حول العالم يجب عليه أن يعود إلى القدس كل خمسين سنة. كان هنا قبل سنة أو سنتين للمرة السابعة والثلاثين منذ صلب المسيح في تل الجمجمة. يقولون أن العديد من كبار السن الذين هم هنا الآن شاهدوه وقد شاهدوه من قبل. يبدو دائماً بنفس الهيئة: كبير

السن، ذابل، أجوف العينين، فاطر الهمة، يبدو دائماً أنه يبحث عن شخص ما ويتوقع شخص ما، ربما أصدقاء من أيام الطفولة، ولكن معظمهم ماتوا الآن. دائماً يتجول وحيداً في الشوارع القديمة، يضع بصماته على الجدران هنا وهناك، ينظر إلى المباني القديمة بنوع من الاهتمام، يذرف الدموع المريرة على أعتاب مسكنه القديم، ثم يجمع الإيجار ويرحل مرة أخرى. رآه الناس يقف بالقرب من كنيسة القيامة في كثير من الليالي المضيفة بالنجوم، لأنه ظن منذ زمن طويل أنه إذا دخل إليها فسوف يرتاح إلى ابد الأبد. لكنه عندما يقترب من أبوابها تتغلق الأبواب بصوت صاخب وترتجف الأرض وتتحول الأنوار في القدس إلى اللون الأزرق، وهو يقوم بذلك كل خمسين عاماً وبنفس الطريقة. الأمر ميؤوس منه ولكن من الصعب عليه التخلص من العادات التي اعتاد عليها منذ ألف وثمانمائة سنة. الآن هذا السائح الكبير في السن موجود ويتجول في البلاد البعيدة. بالتأكيد سوف يبتسم لرؤية فرقة من المتخلفين مثلنا، يركضون حول العالم، يبحثون عن الحكمة، يعرفون كمية كبيرة عن موضوعه! سيكون لديه ازدياد للحمير الجاهلة والقناعة التي تتجول حول العالم في أيام السكك الحديدية وتسمى هذا التجوال "سفر".

استغرقت بشدة عندما أشار الدليل إلى أن اليهودي التائه ترك بصماته المألوفة على جدار. كتب العبارة التالية "S. T.-1860-X". كل ما ذكرته حول اليهودي التائه يمكن إثباته بوضوح بالرجوع إلى الدليل.

مسجد عمر العظيم والساحة المبلطة حوله (الحرم القدسي الشريف) يحتل الجزء الرابع من القدس، ويقع على جبل موريا الذي بني عليه هيكل النبي سليمان، وهو أقدس مكان عند المسلمين بعد مكة. في غضون السنة أو السنتين الماضيتين لم يتمكن أي مسيحي من الدخول إليه أو إلى ساحته من أجل المحبة أو من أجل المال، ولكن رفع الحظر بعد ذلك ودخلنا بحرية بواسطة البغشيش.

أنا لم أرى هذا المسجد من قبل ولست بحاجة للحديث عن الجمال والبهاء والتناسق الرائع الذي جعل هذا المسجد مشهورا. لا يمكن للمرء أن يقدر جمال هذه الأمور بلمح البصر. في كثير من الأحيان يدرك المرء جمال المرأة الحقيقي بعد التعرف عليها لفترة من الوقت، وهذه القاعدة تنطبق على شلالات نياجرا وعلى الجبال الشامخة وعلى المساجد بشكل خاص.

يتميز مسجد عمر بالصخرة المذهلة في وسط القبة، وهي الصخرة التي اقترب منها إبراهيم عندما أراد أن يذبح إسحاق ابنه، وهذه الرواية صحيحة وأصيلة في معظم الكتب. وعليها وقف الملاك وهدد القدس، وأقنعه النبي داوود بالعفو عن المدينة. والنبي محمد يعرف هذا الحجر جيدا، منه صعد إلى السماء. حاول الحجر أن يتبعه وكاد أن يفعل ذلك لولا أن الملك جبرائيل كان موجودا لحسن الحظ وامسك به. قلة قليلة من الناس لديها قبضة قوية مثل الملك جبريل، فلا زالت أثار أصابعه الوحشية، على عمق بوصتين، بادية للعيان في تلك الصخرة حتى اليوم.

أكد لنا الدليل أن هذه الصخرة الكبيرة معلقة في الهواء، لا تلمس أي شيء على الإطلاق، وهذا شيء رائع حقا. وفي المكان الذي وقف عليه النبي محمد بقيت أثار قدمه مطبوعة في الصخر الصلب حتى يومنا هذا. ما أود قوله عندما تحدثت عن الصخرة المعلقة انه في أرضية المغارة تحتها رأينا بلاطة قيل لنا أنها تغطي حفرة ذات أهمية بالغة عند المسلمين لأنها تؤدي إلى الهلاك، وكل روح ترقى إلى السماء يجب أن تمر من خلال هذه الفتحة. يقف النبي محمد هنا ويرفعهم من شعرهم، لذا يحلق جميع المسلمين رؤوسهم ولا يتركون سوى خصلة من الشعر لكي يمسك النبي محمد بها. وأكد لنا الدليل أن المسلم الصالح يعتبر نفسه ملعونا إلى الأبد إذا فقد خصلة الشعر ومات قبل أن تنمو مرة أخرى. معظم الذين رأيتهم يجب أن يكونوا لهم خصلة الشعر اللعينة دون الإشارة إلى الطريقة التي حلقوا رؤوسهم بها.

لم يسمح لأي امرأة بالدخول إلى المغارة التي توجد بها تلك الحفرة الهامة لأنه في إحدى المرات ألقى القبض على إحدى النساء تفضي بكل ما عرفته عن أسرار الناس إلى الأوغاد في المناطق الجهنمية السفلى. وصلت بها الأمور لدرجة أنها أفشت كل الأسرار الخاصة بالناس لدرجة أن أصحاب الهلاك عرفوا كل هذه الأسرار قبل أن تغيب الشمس. وفي الحال كان يجب قمع رسائل هذه المرأة، وهذا ما حدث حين لفظت أنفاسها في نفس اللحظة تقريبا.

الزينة داخل هذا المسجد العظيم تملأ الجدران الرخامية الملونة والنوافذ والنقوش ذات الفسيفساء المتقنة. الأتراك العثمانيون حافظوا أيضا على الآثار المقدسة مثل الكاثوليك. رأينا الدرع الحقيقي الذي ارتداه أحد أحفاد زوج ابنة النبي محمد، وكذلك ترس عم النبي محمد. والسور الحديدي الذي يحيط بالصخرة عليه زينة من الآف الخرق البالية المربوطة بجوانبه المفتوحة، وهي تذكر النبي محمد بان لا ينسى المصلين الذين وضعوها هناك. وهذه الطريقة هي أفضل طريقة للتذكير بعد طريقة ربط الخيوط حول إصبعه.

خارج المسجد يوجد معبد مصغر وهو المكان الذي استخدمه داوود وجالوت للجلوس والحكم على الناس. (أخبرني حاج أنه لم يكن داوود وجالوت، ولكن ديفيد وشاول، ولكني أتمسك بمعلوماتي الخاصة وهذا ما أكده لي الدليل الذي يعرف أكثر).

في كل مكان حول مسجد عمر يوجد أجزاء صغيرة من الأعمدة والمذابح المزخرفة بشكل مثير وأجزاء من الرخام المنحوت بشكل رائع، وهي عبارة عن بقايا قيمة من معبد النبي سليمان. وهناك الكثير من الحفريات التي تم القيام بها بهدف إزالة التربة والقمامة من جبل موريا، وقد سعى المسلمون دوما للحفاظ عليها بقدر كبير. وفي ذلك الجزء من السور القديم لمعبد سليمان الذي يسميه اليهود حائط المبكى حيث يتجمع اليهود كل يوم جمعة لتقبيل الحجارة المقدسة والبكاء على عظمة

صهيون المنهارة، يمكن للجميع رؤية جزء من معبد سليمان وهو الجزء المتفق عليه بين الناس، ويتألف من ثلاثة أو أربعة حجارة فوق بعضها البعض. وقد تم الغاء المرسوم الذي يحظر المسيحيين القدماء الأنجاس مثلنا من دخول مسجد عمر ورؤية الرخام الرائع الذي كان يزين المعبد في السابق فقط قبل سنة أو سنتين. وتتميز التصاميم التي تزين هذه الأجزاء بانها جذابة ومميزة، لذا فهي مصدر الإلهام الطبيعي لسحر الحدائث. ويرى المرء هذه الأجزاء المقدسة عند كل المنعطفات، وخاصة في مسجد الأقصى المجاور، حيث بنيت هذه الأجزاء في جدرانها الداخلية بعناية لحفظها من التلف. هذه الأجزاء الحجرية المليئة بالغبار والبقع تشير إلى إكبار وإجلال ليس له مثل على وجه الأرض. وتثير فينا أيضا صور القوافل المألوفة، قوافل الإبل المحملة بالتوابل والكنوز والنساء الجميلات لحريم سليمان، موكب طويل من الوحوش والمحاربين بملابس فخمة، وصورة ملكة سبأ التي تعتبر مظهرا من مظاهر روائع الشرق. إضافة لذلك هذه الأجزاء الصغيرة تثير الفضول أكثر من المساحة الواسعة من الحجارة المقدسة التي يقبلها اليهود في حائط المبكى.

ويوجد عدد كبير من الأعمدة في جوف الأرض تحت أشجار الزيتون وأشجار البرتقال التي تزدهر في ساحة المسجد الكبير وهي بقايا المعبد القديم ولا زالت تسنده. كما يوجد أيضا الممرات المقوسة المملة التي مشى عليها محراث النبوة المدمر بدون أذى. ومن اللطيف أننا شعرنا بخيبة الأمل لأننا لم نعلم برؤية أجزاء من معبد النبي سليمان الحقيقي ولكن لم يكن لدينا أي شك بأنها كانت خداع واحتيال من الرهبان.

شاهدنا قدرا كبيرا من المناظر والأماكن، ولكن لا شيء يعلو فوق سحر وجاذبية كنيسة القيامة في بيت المقدس. ذهبنا كل يوم إلى هناك ولم نمل من مشاهدتها، ولكننا شعرنا بالضجر من كل شيء آخر. المشاهد من حولك في كل مكان ولا يوجد شبر على أرض القدس يخلو من الإثارة والأهمية

التاريخية من تلقاء نفسه. وأكثر ما يجلب السعادة هو التجول في القدس دون دليل والحديث عن كل حجر تخطو فوقه، يجرك إلى الزمن الماضي إلى اليوم الذي حقق فيه شهرته.

لا اصدق اللحظة التي اجلس كنت فيها على جدار متهدم وانظر إلى البركة التاريخية في بيت صيدا. لم أكن أعتقد أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تكون مزدحمة لدرجة أنها تفقد المرء الاهتمام بها. ولكن في الواقع كنا نتجول منذ أيام عديدة ننظر بأعيننا ونسمع بأذاننا من منطلق القيام بالواجب وليس لسبب أعلى واجل. وفي كثير من الأحيان كنا نشعر بالفرحة عندما كانت تحين ساعة العودة للبيت والارتياح من عبء رؤية المواقع المشهورة.

يقوم الحجاج بأشياء كثيرة في يوم واحد. منذ هذا الصباح رأينا ما يكفي ليزودنا بالغذاء الكافي للتأمل مدة سنة لو تمكنا من رؤية الأشياء المختلفة دون عناء ونظرنا اليها بشكل متعمد. زرنا بركة حزقيا التي سبحت فيها زوجة اوريا عندما رآها داوود ووقع في حبها. خرجنا من المدينة من باب يافا، وطبعا قيل لنا الكثير حول برج هيبيكوس.

مررنا من وادي ابن هنوم الذي يقع بين بحيرتي جيحون وبالقرب من القناطر التي بناها النبي سليمان التي لا زالت تنقل الماء إلى المدينة. صعدنا على تلة الشر (جبل دير أبو طور) التي تلقى عليها يهوذا ثلاثين قطعة من الفضة، ثم مشينا أيضا تحت الشجرة التي شنق نفسه عليها.

نزلنا إلى القانون الكنسي مرة أخرى، بدأ الدليل بإعطائنا الاسم والتاريخ لكل ضفة وكل صخرة: "هنا ميدان الدم وهذه الشقوق في الصخر كانت الأضرحة والمعابد لمولوخ، وهنا وقعت التضحية بالأطفال، وهنا بوابة صهيون، وهذا وادي الشمس وهذه تل اوفيل، وهنا مفترق طرق وادي يهوشافاط، وعلى اليمين يوجد "بئر العمل". صعدنا إلى يهوشافاط، ثم استمر الدليل في التلاوة: هذا هو جبل الزيتون، هذا هي تلة الجرائم، هذه الأكواخ هي قرية سلوان، هنا وهناك وفي كل مكان

توجد حديقة الملك، تحت هذه الشجرة الكبيرة قتل النبي زكريا، هنا جبل موريا وجدار المعبد وقبر أبسالوم وقبر القديس يوحنا وقبر يعقوب وقبر زكريا؛ وما بعدها توجد الحديقة الجثمانية وقبر العذراء مريم وبركة سلوان.

طلبنا من الدليل الوقوف للاستراحة وشرب الماء. كان الجو حارا جدا، وكنا مرهقين من شدة التعب والمشى المتواصل لأيام.

البركة عميقة وهي عبارة عن خندق عميق له سور، يجري منه جدول من الماء الصافي، ينبع من تحت القدس من مكان ما، ثم يمر من خلال ينبوع العذراء، ويصل إلى هذا المكان عن طريق نفق مبني من الحجر الثقيل. تبدو البركة كما كانت أيام النبي سليمان، النساء الشرقيات السمراء تنزل إلى البركة على طريقتهن الشرقية القديمة يحملن جرار الماء على رؤوسهن تماما كما فعلن قبل ثلاثة آلاف سنة وكما سيفعلن بعد خمسين ألف سنة فيما لو بقيت إحداهن على وجه الأرض.

ابتعدنا عن هذا المكان وتوقفنا عند ينبوع العذراء. ولكن الماء لم يكن جيدا ولم يكن هناك راحة أو سلام في أي مكان بسبب الفتیان والفتيات والمتسولين الذين طاردونا طوال الوقت من اجل البغشيش. طلب منا الدليل أن نعطيهم بعض المال وقمنا بذلك. ولكن عندما تابع الدليل قائلا بأنهم كانوا يتصورون جوعاً شعرنا بأننا ارتكبنا خطأ فادحا عندما رمينا العراقيل في طريق الإنجاز المرغوب فيه، ولذلك حاولنا جمعه مرة أخرى ولكن لم يمكننا تحقيق ذلك.

دخلنا إلى الحديقة الجثمانية وقمنا بزيارة قبر العذراء. أنا لا أقول بأنني لا أود الحديث عنهما الآن. ولكن سيأتي الحديث عنهما في الوقت المناسب.

لا يسعني الحديث الآن عن جبل الزيتون أو منظر القدس من فوقه، أو البحر الميت وجبال موآب، أو بوابة دمشق والشجرة التي زرعها جودفري ملك القدس. يشعر المرء بالسعادة عند الحديث عن هذه

الأشياء. ولا أستطيع أن أقول أي شيء عن العمود الحجري الذي يبرز فوق يهوشافاط من جدار المعبد مثل المدفع سوى أن المسلمين يعتقدون أن النبي محمد سوف يجلس عليه عندما يأتي ليحكم العالم. من المؤسف أنه لا يستطيع أن يحكم العالم من مسكنه في مكة المكرمة دون التعدي على أراضينا المقدسة. وبالقرب منه يوجد البوابة الذهبية في جدار المعبد وهي البوابة التي كانت ولا زالت تحفة فنية رائعة في زمن المعبد. في العصور القديمة قام كهنة اليهود بإطلاق سراح كبش الفداء والسماح له بالهرب إلى البراري يحمل معه أعباء الاثنا عشر شهرا من ذنوب الناس. لو فعلوا ذلك الآن لما استطاع الهرب ابعده من الحديقة الجثمانية لان المتشردين البائسين هنا سوف يلتهمونه مع الخطايا التي يحملها. ولن يأبوهوا بالأمر لان لحم الضأن والخطايا هي غذاء لذيق بالنسبة لهم. كما ينظر المسلمون إلى البوابة الذهبية نظرة ملؤها الغيرة والترقب، فهم يعتقدون أن انهيارها سوف يؤدي إلى انهيار الدين الإسلامي والإمبراطورية العثمانية. لم اشعر باي إحساس من الحزن والأسى عندما أدركت أن البوابة القديمة أصبحت متصدعة بعض الشيء.

عدنا إلى البيت مرة أخرى منهكين من التعب وشدة الحر. ولكن حصلنا على الراحة الكاملة في فكرة واحدة. علمتنا تجاربنا في أوروبا أننا في الوقت المناسب سوف ننسى هذا التعب والحرارة والعطش والدليل والمتسولين ولن يبقى غير ذكريات القدس الرائعة، الذكريات التي سوف نتذكرها باهتمام متزايد على مر السنين، الذكريات التي ستصبح يوما من الأيام أجمل عندما تنتهي المعينات من أذهاننا ولا تعود أبدا. أيام المدرسة ليست أسعد من أيام الحياة الأخرى، ولكننا ننظر إليها نظرة فيها الأسف والحيرة لأننا نسينا العقوبات أيام المدرسة، ونسينا حزننا على الطائرات الورقية التي انكسرت، والسبب أننا نسينا كل الأحزان والحرمان من العصر الكنسي وتذكرنا فقط سرقة البساتين ومواكب السيوف الخشبية وأعياد صيد السمك. نشعر بالارتياح، يمكننا الانتظار، سوف يأتي ثوابنا

يوما ما. بالنسبة لنا القدس وتجارينا اليوم ستكون ذكرى ساحرة بعد سنة، ذاكرة لا يستطع المال شراءها منا.

الفصل 55

لقد أنهينا التجوال ومشينا بما فيه الكفاية. لم يتبقى لنا شيء نريد أن نراه في القدس باستثناء المنازل التقليدية للشحاذ عازر (لازاروس)، ومقابر الملوك، ومقابر القضاة، والمكان الذي رجموا فيه أحد تلامذة المسيح حتى الموت وقطعوا رأس تلميذ آخر، والغرفة والطاولة المعروفة في العشاء الأخير، وشجرة التين التي ذبلت، وبعض الأماكن التاريخية حول حديقة الجثمانية وجبل الزيتون، وخمسة عشر إلى عشرين آخرون مكانا في أجزاء مختلفة من المدينة.

اقتربنا من النهاية، وهنا أكدت الطبيعة البشرية على نفسها. بدأ الإنهاك والإفراط في العمل يؤدي إلى نتائج طبيعية، وبدأت السيطرة على الطاقات وبدا حماس الحجاج يخف تدريجيا. أصبحوا الآن مطمئنين ودب فيهم الكسل حتى انهم تأخروا على الإفطار وجلسوا على العشاء لفترة طويلة. وصل ثلاثين أو أربعين حاجا من سفينة من طريق قصيرة لذلك انتشر القيل والقال بينهم. وبعد الظهر أظهر الحجاج رغبة قوية للاستلقاء في الديوان البارد في الفندق والتدخين والحديث عن التجارب الممتعة التي وقعت خلال شهر أو أكثر، وفي بعض الأحيان كان السفر في وقت مبكر مزعجا للغاية، وأحيانا مستفزا وغالبا ما كان بلا نتائج على الإطلاق عندما حدث، ثم ارتقى هذا السفر إلى المستوى الميت من الذكريات المملة وأصبح من المعالم الهامة في الذاكرة. صافرة الضباب المختنقة بين ملايين الأصوات العابثة لا يمكن ملاحظتها على بعد بناية في المدينة، ولكن يسمعها البحارة في البحر سواء كانوا يسمعون تلك الأصوات العابثة أم لا. عندما يكون المرء في روما تكون جميع القباب متشابهة، ولكن عندما يبتعد اثنا عشر ميلا، تتلاشى روما من الأفق وتبقى كنيسة القديس بطرس شامخة مثل

البالون المعلق. عندما يسافر المرء في أوروبا تبدو جميع الأحداث اليومية متشابهة، ولكن عندما يضعها وراءه بعد شهرين والفي كيلومتر فان تلك الأحداث التي كانت جديرة بالتذكر تصبح بارزة، وتلك الأحداث التي كانت غير مهمة تختفي من الذاكرة. هذه الرغبة في التدخين والخمول والحديث لم تكن جيدة، وبدا واضحا انه يجب منعها من تصبح جزءا من الأمر الواقع. كان لا بد من إيجاد البديل والا فان ذلك سيؤدي إلى تدني المعنويات. اقترح البعض الذهاب إلى الأردن أو أريحا أو البحر الميت. في هذا الوقت كان علينا التوقف عن زيارة ما تبقى من القدس. وسرعان ما تمت الموافقة على القيام بالرحلة. دبت حياة جديدة في كل عروقنا. أثناء الركوب على الخيل كان النوم في سرير مرتبطا بالجو. كان من المؤسف ملاحظة مدى استعداد هؤلاء الرجال للنزوع نحو الحياة الخالية من الخيام والصحراء. غريزة الترحال غريزة إنسانية طبيعية ولدت مع آدم وانتقلت عن طريق البطارية، وبعد ثلاثين قرنا من الزمن لم تتمكن الحضارة المعاصرة حتى الآن من نزعها من أنفسنا. لها سحر وذوق يتوق المرء إليه مرارا وتكرارا. لا يمكن أبدا نزع غريزة الترحال من الهنود الحمر. وبعد الموافقة على الرحلة إلى الأردن أعلمنا المترجم.

في التاسعة صباحا كانت القافلة واقفة أمام الفندق وكنا نتناول الإفطار. كان هناك هرج ومرج وانتشرت الشائعات حول الحرب وسفك الدماء في كل مكان. البدو الخارجين على القانون في غور الأردن والمناطق المحيطة بالبحر الميت جمعوا الأسلحة واستعدوا للفتك بجميع القادمين. وقعت معركة بينهم وبين القوات التركية من الفرسان وانتصروا عليهم وقتلوا العديد منهم. احتلوا إحدى القرى في الغور ثم قامت حامية تركية في قلعة قديمة في أريحا بمحاصرتهم. قاموا بمهاجمة مخيم للمتزهين في غور الأردن ولم يتمكن الحجاج من النجاة إلا عن طريق الهروب إلى القدس تحت جنح الظلام. وتعرضت مجموعة أخرى من حجاجنا إلى كمين في عرض النهار. تبادل الجانبين

إطلاق النار لكن لحسن الحظ لم يصب أحد بأذى. تحدثنا مع الحاج الذي أطلق النار وقال لنا إن شجاعة الحجاج وقوتهم عددهم وأسلحتهم الحربية هي التي أنقذتهم من الموت المحتم. أفادت التقارير أن القنصل طلب من الحجاج عدم التوجه الأردن في ضوء الأوضاع الراهنة دون حراسة عسكرية مشددة. لكن الخيول أصبحت بجانب الباب ويعرف كل شخص الهدف منها، ماذا عسانا أن نفعل؟ هل نعترف بالجبن ونلخي الرحلة بصورة مخجلة؟ التراجع ليس من الطبيعة البشرية سيما وان هناك الكثير من النساء. قلنا إننا لا نخاف من مليون بدوي، ثم عبرنا عن إرادتنا ووقفنا في الجزء الخلفي من الموكب.

أعتقد أننا اتفقنا جميعا على نفس النهج في التكتيك لأننا أدركنا إننا لن نصل إلى أريحا. كان حصاني بطيئا ولكني لم أستطع السير به في مؤخرة القافلة لإنقاذ حياتي. فقد كان يسير دائما في المقدمة. شعرت ببعض الخوف ونزلت عنه لإصلاح السرج. ولكن هذه الخطوة لم تكن مفيدة لان الآخرين رؤوني وترجلوا عن خيولهم أيضا لإصلاح سروجهم. لم أر أبدا هذا العدد من السروج في وقت واحد. كانت هذه أول مرة يتعطل فيها سرج منذ ثلاثة أسابيع، ولكن الآن تلفت كل السروج في وقت واحد. حاولت ممارسة المشي من اجل الرياضة لأنه يبدو إنني لم امشي بما فيه الكفاية في القدس عند رؤية الأماكن المقدسة. ولكن الأمر لم ينجح، أصبح الجميع يحب رياضة المشي وفي غضون خمس عشرة دقيقة كان الجميع يسير على الأقدام، ولهذا أصبحت في مقدمة الناس مرة أخرى. كان الأمر غير مشجع.

حدث كل هذا بعد أن وصلنا إلى بيت عنيا (العيزرية) التي تبعد ساعة عن القدس. توقفنا في هذه القرية ورأينا قبر لعازر (لازاروس). أفضل العيش في هذا القبر بدلا من السكن في أي منزل في هذه القرية. رأينا ينبوع لعازر العظيم ومسكنه القديم في وسط القرية. كان لعازر رجلا ثريا ولكن

القصص في المدارس أيام الأحد تسبب له ظلما كبيرا حيث تشير إلى أنه كان فقيرا لأنها تخلط بينه وبين لعازر الذي لم يملك سوى الفضيلة. يتألف بيت لعازر من ثلاثة طوابق من الحجر ولكنه مدفون بالقمامة المتراكمة باستثناء الطابق العلوي. حملنا الشموع ونزلنا إلى غرف تشبه الخلايا الكئيبة وهو المكان الذي اكل فيه يسوع اللحم مع مرثا ومريم وتحدثت معهما عن أخيهما. لم يسعنا سوى النظر إلى هذه الشقق القديمة الحغيرة بأكثر من مجرد اهتمام عام.

ألقينا نظرة على البحر الميت الذي يبدو على شكل الدرع الأزرق في غور الأردن، والآن نحن نسير في ممر جبلي وعر في منطقة منعزلة كئيبة حيث لا يوجد لا إنسان ولا حيوان سوى السمندر. إنها البادية التي بشر فيها يوحنا، وكان يلبس شعر البعير حول خاصرته، لكنه لم يحصل على السمن والعسل هنا. كنا نسير في هذا المكان المرعب بينما كان كل رجل منا يسير في المؤخرة. كان الحارسان يتسكعان في المقدمة، وهما شابان من شيوخ العرب يحملان السيوف والبنادق والمسدسات والخناجر.

"بدو!"

تقلص كل رجل منا واختفى في ملابسه مثل السلحفاة. كانت لدي رغبة في الانقضاض على البدو والفتك بهم. ولكن كان لدي رغبة أخرى بالنظر إلى الورا لمعرفة ما إذا كان هناك بدو جاؤوا من المؤخرة، وهذا فعلا ما فعلته وكذلك فعل الآخرون مثلي. لو قام البدو بالهجوم علينا من ذلك الاتجاه لكانوا دفعوا ثمنا باهظا لهذا التهور وكان هناك مشاهد من الشغب وسفك الدماء لا توصف. أنا أدرك هذا الأمر لأن كل رجل منا قال ما كان يريد أن يفعله، وتحدث الجميع عن اختراعات غريبة من القسوة لا يمكن تصورها. قال رجل انه كان يفكر بالموت في مكانه إذا لزم الأمر، لكنه لم يتحرك شبرا واحدا، وأضاف أنه كان يود الانتظار وان يصبر ويمنع نفسه من التحرك حتى يتمكن من عد

الخطوط على سترة البدوي الأول ثم يعدها ثم يطلب منه أن يعطيه إياها. قال رجل آخر انه كان يريد أن يجلس بهدوء حتى يصل أول رمح إلى مسافة شبر واحد من صدره ثم يتفاده ويمسك به. لا أريد أن أقول لكم ماذا كان يريد أن يفعل بذلك البدوي الذي كان يحمل ذلك الرمح. اشعر بخوف شديد عندما أفكر في الأمر. قال آخر بانه كان على وشك سلخ فروة رؤوس البدو الذين يكونون من نصيبه ثم يأخذ أبناء الصحراء الأحياء بدون فروات رؤوس إلى الوطن بوصفهم جوائز. ولكن راوي الملاحم التزم الصمت. كان الشر القاتل يلمع من عينيه، ولكنه لم يحرك شفتاه. ثم سأله: إذا أمسكت ببدوي ماذا ستفعل به، هل تطلق النار عليه؟ ابتسم ابتسامة ازدراء ثم هز رأسه. هل تطعنه؟ هز رأسه. هل تسلخ جلده وتقطعه؟ هز رأسه. يا للرب! ماذا عساه أن يفعل به؟

"سوف أكله!"

هذه هي العبارة المرعبة التي أرعدت من شفثيه. ما هو الحكم على المجرم اليائس من هذا النوع؟ كنت سعيدا إنني لم أشاهد هذه المشاهد من المذابح الرهيبة. لم يهاجمنا البدو لا من الخلف ولا من الأمام. القادمون الجدد كانوا مجرد تعزيزات من العرب، لونهم شاحب يلبسون القمصان وسيقانهم عارية، أرسلوهم ليسيروا أمامنا وهم يلوحون بالبنادق الصدئة يصيحون ويتباهون مثل المجانين وبالتالي يخيفون عصابات البدو التي قد تعترض طريقنا. انه لمن العار أن يسافر المسيحيين المسلحين تحت حراسة هذه الحشرات من خطر المتشردين في الصحراء، وهؤلاء المتشردين هم المجرمين الذين يريدون دائما أن يرتكبوا شيئا يائسا لكنهم لا يفعلوه. ومن الجدير بالذكر انه طوال رحلتنا لم نشاهد أي بدوي لذلك كانت حاجتنا إلى الحارس العربي تماما مثل حاجتنا للأحذية والقفازات الجلدية. البدو الذي هاجموا الجماعات الأخرى من الحجاج بقسوة هم البدو الذين أرسلهم الحراس العرب من القدس لخدمة البدو بصورة مؤقتة. بعد المعركة التقوا مع الحجاج وتناولوا طعام

الغداء معاً، ثم تقاسموا البغشيش الذي ابتزوه في وقت الخطر، وبعدها رافقوا الموكب إلى المدينة. يقال إن إزعاج الحراس العرب ناجم عن تعاون مشترك بين الشيوخ والبدو بهدف الحصول على الربح المتبادل، وبلا شك هذا الكلام صحيح إلى حد كبير.

قمنا بزيارة النافورة أليشع النبي (تل السلطان) التي جعل مذاقها حلوة (ولا زال حلوا) حيث بقي هنا لبعض الوقت ثم أكلته الغربان.

الخرائب والأثار في أريحا القديمة ليست خلابة. عندما مشى يشوع حولها سبع مرات قبل حوالي ثلاثة آلاف عام ونفخ عليها بالبوبوق قام بعمل رائع تماماً حيث لم يبقى في المدينة شيء له ظل. ولا زالت لعنته ضد إعادة بناءها باقية. أحد الملوك الذي لم يؤمن بهذه اللعنة قام بمحاولة لإعادة بناءها ولكنه أصيب إصابة بالغة بسبب سوء اعتقاده. سوف يبقى موقع هذه المدينة غير مأهول إلى الأبد، ولكنه حتى الآن من أفضل مواقع المدن التي شهدناها في كل أنحاء فلسطين.

في الساعة الثانية ليلاً أرغنا المترجم على النهوض من النوم، وهذا نوع آخر من القسوة غير المبررة ومحاولة ساذجة من محاولاته للفوز على منافسه. كنا على بعد أقل من ساعتين للوصول إلى الأردن، ولكننا سرعان ما ارتدينا ملابسنا وبدانا السير في الظلام قبل أن يتمكن أحد من رؤية ساعته، كان الجو بارداً جداً وشعرنا بالبرد والنعاس واشتقنا للنار والأسرة والأشياء الأخرى المريحة في المخيم.

لم ينس أحد بينت شفة، فالناس لا يتكلمون عندما يشعرون بالبرد والنعاس والإزعاج. في بعض الأحيان غفونا على السروج واستيقظنا حيث وجدنا أن الموكب قد تاه في كآبة الليل. شعرنا ببعض الهمة والنشاط عندما بدأ ضوء النهار يلوح في الأفق. أحياناً كان هذا الهدوء والنظام ينقطع على

صدى صوت هادئ "اقترب! البدو يترصدون في كل مكان!" هذا الصوت كان يؤدي إلى رعب شديد يسري في عروقنا!

وصلنا إلى النهر المشهور قبل الرابعة صباحا، وكان الليل حالكا حتى كدنا نقع فيه. كان البعض منا يشعر بالانزعاج. انتظرنا طلوع النهار لكنه لم يظهر. وأخيرا استلقنا على الأرض في الظلام ونمنا لمدة ساعة بين الأشجار. كانت هذه الغفوة مكلفة حيث أصبنا بالرشح ولكننا استفدنا منها بضعة دقائق استراحة من الوضع الكئيب ثم أصبحنا في مزاج أفضل لإلقاء النظرة الأولى على النهر المقدس. مع بزوغ الفجر خلع كل حاج ملابسه وخاض في النهر المعتم وهو يغني:

" أفق على ضفاف نهر الأردن العاصفة، وانظر بعين حزينة على أرض كنعان العادلة والسعيدة حيث توجد كل ممتلكاتي".

لكنهم لم يغنوا طويلا. كان الماء باردا جدا لدرجة أنهم توقفوا عن الغناء وخرجوا من الماء ووقفوا على الضفة يرتجفون وأصابهم الهم والغم لدرجة أنهم استحقوا الرحمة الإلهية بسبب ضياع حلم آخر وأمل عزيز. اقسما على عبور نهر الأردن في نفس المكان الذي عبر فيه العبرانيون إلى أرض كنعان عندما عادوا من حجه الطويل في الصحراء، واقسموا على أنهم سيعبرون من نفس المكان الذي وضعت فيه الأحجار الاثني عشر في ذكرى ذلك الحدث العظيم. وعندما يفعلون ذلك سوف يتخيلون الجيش العظيم من الحجاج الذين عبروا المياه المشقوقة يحملون تابوت العهد المقدس يصرخون ويغنون الهوسانا (أوصلنا يا الله) وأغاني الشكر والثناء. كل حاج منهم وعد نفسه بأن يكون أول من يعبر النهر. وأخيرا كانت آمالهم على وشك التحقق ولكن النهر كان سريعا وباردا جدا.

عندها اصدى جاك لهم خدمة. كان شابا يافعا مستهترا بالعواقب نهض وقاد الطريق عبر نهر الأردن وعادت السعادة مرة أخرى. خاض الجميع في الماء ثم وقفوا على الضفة الأخرى للنهر. لم يكن الماء عميقا جدا في أي مكان. ولو كان النهر أكثر عمقا لما تمكنا من اجتيازه لان تيار الماء سوف يجرفنا معه، وسوف نتعب ونهلك قبل أن نصل إلى الضفة الأخرى بأمان. وبعد أن قطعنا النهر جلست الجماعة البائسة في انتظار الشمس مرة أخرى لأنهم أرادوا رؤية الماء أيضا. ملا الناس بعض القناني من النهر المقدس وقطعوا أعواد القصب من الضفاف، ثم ركبنا على مضض وغادرنا المكان حتى ننجو من شدة البرد. لذلك رأينا نهر الأردن بشكل خافت. الشجيرات الكثيفة تلقي الظلال على مياهه الضحلة لذلك لم نتمكن من معرفة عرض النهر بالعين. من خلال الخوض في النهر أدركنا أن العديد من الشوارع في أمريكا ضعف عرض نهر الأردن.

طلع النهار وخلال ساعة أو ساعتين وصلنا إلى البحر الميت. لا شيء ينمو في الصحراء الحارة سوى الأعشاب. تفاح البحر الميت جميل المنظر ولكنه يتفتت إلى رماد وغبار عند كسره. وجدنا انه ليس جميل المنظر ومذاقه مر أيضا. ولم يتحول إلى غبار ربما لأنه لم يكن ناضجا.

لمعت الصحراء والجبال الجرداء حول البحر الميت تحت الشمس بشكل يثير الألم، ولم يكن هناك شيء لطيف أو حيوان أو إنسان يسر النظر. لم يكن هناك سوى عزلة من الأراضي القاحلة المقفرة المثيرة للاشمئزاز، ويخيم الصمت على المشهد بشكل يثير الحزن والإحباط مثل مشهد الجنازات والأموات.

البحر الميت صغير ومياهه صافية، قعره مغطى بالحصى ومياهه ضحلة على بعد مسافة قصيرة من الضفة. ينتج كميات من الأسفلت تغطي أجزاء كبيرة من الضفاف ولها رائحة كريهة.

تعلمنا في السابق أن السباحة لأول مرة في البحر الميت تؤدي إلى نتائج سلبية للجسم حيث يشعر المرء كما لو أن الملايين من الإبر المؤلمة تخترق جسده ويستمر الألم لعدة ساعات، وربما تظهر تقرحات من الرأس إلى القدم ويعاني المرء من ألم شديد لعدة أيام. شعرنا بخيبة الأمل. فقد قفز ثمانية أشخاص منا في البحر في نفس الوقت وقامت مجموعة أخرى من الحجاج بالسباحة أيضا ولكن لم يصرخ أحد من الناس على الإطلاق. لم يشتكي أحد من أي أعراض سوى بعض الألم الطفيف في الأماكن التي تعرض فيها الجلد للخدش والكشط من قبل. عانيت من ألم في وجهي لبضع ساعات، ولكن هذا الألم كان ناجم جزئيا عن تعرض جلدي لأشعة الشمس الحارقة أثناء الاستحمام بعدها بقيت في البحر لمدة طويلة في الماء المالح.

لم يصبنا ماء البحر الميت بالحروق ولم يغطينا بالطين الغروي ولم يسبب لنا رائحة كريهة. لم أشم أي رائحة هنا أسوأ من تلك الروائح التي عهدتها في فلسطين. كانت الرائحة مختلفة ولكنها ليست رائحة كريهة لأننا حصلنا على قدرا كبيرا من أنواع الروائح من قبل. لم نشم هنا رائحة تشبه الرائحة التي نشمها في القدس، ولم تكن الرائحة في القدس هي نفس الرائحة في الناصرة أو طبريا أو في أي مدينة من مدن الجليل الأخرى. بشكل عام نحن نتغير طوال الوقت نحو الأسوأ. نحن نغسل الغسيل الخاص بنا.

السباحة في البحر الميت مضحكة حيث لم نغطس في البحر. يمكن للمرء أن يمد كامل جسده ويستلقي على ظهره ويضع ذراعيه على صدره ويبقى كامل جسمه خارج الماء مثله مثل خط ممتد من زاوية فكه متجاوزا وسط جانبه ثم منتصف ساقه حتى يصل إلى عظمة الكاحل. وإذا أراد أيضا يمكنه رفع رأسه إلى الخارج. لا يمكنه الاحتفاظ بوضع معين لفترة طويلة. يمكنك الاستلقاء على ظهرك بشكل مريح وراسك في الخارج وساقيك تخرج من بين ركبتيك إلى الأسفل من خلال تثبيت نفسك ببديك.

يمكنك الجلوس واضعا ركبتيك عند ذقنك وذراعيك حولهما، ولكنك توشك على الانقلاب لأن وزنك العلوي أثقل من السفلي في ذلك الوضع. يمكن الوقوف في الماء الذي فوق راسك مباشرة ولكنك من منتصف صدرك حتى الأعلى لن تكون مبللا. ولكن لا يمكنك أن تظل كذلك لأن الماء سوف يرفع قدميك إلى السطح. وإذا كنت تسبح على وجهك يمكنك ركل الماء مثل القارب. لا يمكنك التقدم. الحصان المنقل من الأعلى لا يستطيع السباحة أو الوقوف في البحر الميت لأنه ينقلب إلى جانبه بسرعة. سبح البعض لأكثر من ساعة ثم خرج مغطى بالملح حتى لمع مثل رقايات الثلج. نظفنا الملح بمنشفة خشنة ثم غادرنا البحر وكان لنا رائحة جديدة رائعة، واستمعنا بالندالة المتنوعة والحدائثة في هذه الرائحة. كان بريق بلورات الملح يلعب تحت الشمس حول ضفاف البحر وكانت البلورات تغطي بعض الأماكن مثل قشرة رائعة من الجليد.

عندما كنت صبيا كنت أظن بأن طول نهر الأردن أربعة آلاف كيلومتر وعرضه 35 كيلومتر. طوله تسعين ميلا فقط وهو متعرج بحيث لا يعرف المرء على أي جانب يقف في معظم الأحيان. مسافة التسعين ميلا هذه لا تتعدى مسافة خمسين كيلومترا من الأرض، أي أنها ليست أكبر من برودوي في نيويورك.

وكذلك الحال بالنسبة لبحيرة طبريا والبحر الميت، لا يزيد طول أي منهما عن عشرين ميلا ولا يزيد العرض عن ثلاثة عشر ميلا. ولكن عندما كنت في مدرسة الأحد اعتقدت أن قطر كل منهما حوالي ستة آلاف كيلومتر.

التجارب والسفر تشوه أروع الصور وتحرمنا من أعز التقاليد التي عرفناها في أيام الصبا. ولكن أنا لا اهتم بهذا الحرمان. لقد رأيت بالفعل إمبراطورية الملك سليمان تدوي حتى وصل حجمها إلى حجم ولاية بنسلفانيا. أفترض أنني أتحمل تقلص البحار والنهر.

نظرنا في كل مكان عندما كنا نتجول ولكننا لم نرى الحبوب أو الكريستال التي كانت ملكا لزوجة لوط. شعرنا بخيبة أمل شديدة. عرفنا قصتها الحزينة منذ الأف السنين وركزنا اهتمامنا على الإلهام الذي ينبع من سوء حظها. ولكن زوجة لوط ذهبت إلى حال سبيلها، ولم تعد صورتها الخلابه تلوح فوق صحراء البحر الميت التي تذكرنا بالهلاك الذي وقع فوق المدن المفقودة.

لا أستطيع أن أصف الرحلة المشينة من البحر الميت إلى دير مار سابا. اشعر بالقهر عندما أفكر في الأمر. الشمس الحارة سلخت جلدنا حتى سالت الدموع من عيوننا مرة أو مرتين. شعرنا بالاختناق في الوادي الكئيب الخالي من الأشجار والأعشاب من شدة الحر. لم يستطع أحد الجلوس منتصبا تحت الشمس. كان الجميع متدليا بشكل ذابل عن ظهور الخيل. كان يوحنا يبشر في هذه "البرية" ولا بد أن هذا التبشير كان متعبا للغاية. تجلت لنا السماء الرائعة عندما رأينا البرجين وأسوار دير مار سابا الفوضوية لأول مرة.

أمضينا الليلة في الدير حيث استضافنا الكهنة الكرام. الدير يجثم على جرف مثل عش إنساني يقف عاليا ضد جدار جبلي عمودي، وهو عالم من البناء العظيم يبرز مثل صف الأعمدة المتدرجة التي يراها المرء في الصور الخيالية في عيد بَيْلْشَاصْرُ وقصور الفراعنة القديمة. لا يوجد أي سكن آخر قريب من هنا. تأسس الدير قبل عصور طويلة على يد ناسك متدين عاش في كهف بداية الأمر، وهذا الكهف محاط الآن بجدران الدير. هذا الناسك أصبح مشهورا وله اتباع بعد قيامه بتعذيب جسده بشكل صارم وتناوله الخبز والماء فقط وانعزاله التام عن المجتمع والصلاة والتأمل المستمر. الجرف على الجانب الآخر من الوادي مليء بالمغارات الصغيرة التي حفروها في الصخر للعيش فيها. سكان الدير الحاليين وعددهم سبعين هم من العابدين الناسكين الذي يلبسون الملابس الخشنة والقبعات القبيحة ولا يلبسون الأحذية، ولا يأكلون سوى الخبز والملح ولا يشربون سوى الماء. طالما أنهم على

قيد الحياة لا يمكنهم الخروج خارج الأسوار أو النظر إلى امرأة إذ لا يسمح للنساء بدخول الدير باي حال من الأحوال.

سكن بعض هؤلاء الرجال في هذا الدير المنعزل مدة ثلاثين عاما لم يسمعوا خلالها ضحكة طفل أو ابتسامة إنسان أو صوت امرأة ولم يروا أي دموع ولم يعرفوا لا الأفراح ولا الأتراح، لا يوجد في قلوبهم ذكريات الماضي ولا يوجد في عقولهم أحلام المستقبل، تجردوا من كل ما هو لطيف وجميل، أوصدوا أبوابهم وجدرانهم ضد الأشياء الجميلة في الحياة والأصوات التي تطرب لسماعها الأذان، طردوا نعمة الحياة من أنفسهم ولم يبقى لهم سوى السخرية، شفاهم لا تغني ولا تقبل، قلوبهم لا تحب ولا تكره أبدا، صدورهم لا تتسع للمشاعر "عندي بلاد وعندي علم". انهم الموتى الذين يسيرون.

أنا اذكر هذه الأفكار لأنها أفكار عفوية. من السهل على صناع الكتب القول "فكرت بكذا وكذا عندما نظرت إلى المشهد كذا وكذا"، بينما الحقيقة هي انهم فكروا بهذه الأشياء الجميلة بعدها في وقت لاحق. الأفكار الأولية ربما تكون غير دقيقة تماما، ومع ذلك ليس من الخطأ التفكير بها أو تدوينها بشرط إخضاعها للتعديل من خلال الخبرة في وقت لاحق. هؤلاء العابدين الناسكين هم موتى من عدة جهات ولكن ليس من جميع النواحي، وليس من المناسب أن استمر في سوء التحدث عنهم في البداية ثم استمر في قول هذه الكلمات والتزم بها طوال الوقت. في الواقع عاملونا بلطف، وهناك شيء إنساني في بعض سلوكهم. كانوا يعلمون أننا أجنب ومن طائفة البروتستانت، وانه ربما نشعر حيالهم بعدم الارتياح. ولكنهم عاملونا كأناس يعانون من الجوع والعطش والتعب، وفتحوا لنا أبوابهم ورحبوا بنا أفضل ترحيب، ولم يطرحوا علينا أي أسئلة ولم يتفاخروا علينا بحسن ضيافتهم ولم يكن لديهم أي غرض نحو الثناء والمديح. أعدوا لنا الطاولات والأسرة وجلبوا لنا الماء ولم يكثرثوا لقولنا إن معنا

رجالاً وظيفتهم القيام بهذه الخدمات. تناولنا الطعام بارتياح ثم تناولنا العشاء في وقت متأخر. تجولنا في جميع أنحاء المبنى ثم جلسنا على الأسوار ندخن في متعة الهواء البارد والمشهد البري وغروب الشمس. اختار رجلين منا النوم في غرف النوم المريحة، ولكن غريزة البداوة دفعت الباقي إلى النوم في الديوان الواسع لأنه كان يشبه النوم في العراء حيث كان امراً مبهجاً ورائعاً حقاً. كانت استراحة مثل استراحة الملوك.

عندما أفقنا في الصباح كنا رجالاً جدد. لم ندفع أي شيء لقاء هذه الضيافة. كان بإمكاننا أن نقدم شيئاً إذا اخترنا ولكن لسنا بحاجة إلى تقديم شيء إذا كنا فقراء أو بخلاء. الفقراء والبخلاء يتلقون خدمات مجانية في الأديرة الكاثوليكية في فلسطين. تعلمت أن أحقد على طائفة الكاثوليك ولذلك أجد أن اكتشاف مساوئ الكاثوليك أسهل من اكتشاف مزاياهم. ولكن هناك شيء لا أود التغاضي عنه أو نسيانه وهو الامتتان العظيم الذي ندين به أنا والحجاج لرهبان الأديرة في فلسطين. أبوابهم مفتوحة دائماً لأي إنسان مهما كان غنياً أو فقيراً. الأديرة الكاثوليكية نعمة لا تقدر بثمن للفقراء والمحتاجين. الحاج البروتستانتى أو الكاثوليكي الفقير يمكنه السفر والتجول في جميع أنحاء فلسطين ثم يجد الغذاء والسريير النظيف كل ليلة. الحجاج الأفضل حالاً يلجؤون إلى هذه الأديرة للهرب من الحر والعطش. هذه الأديرة تجعل السفر في فلسطين مريحاً لكل إنسان تقريباً وخاصة الضعفاء. جماعتنا من الحجاج وغيرهم سيدعون دائماً لكهنة الأديرة بالبقاء وطول العمر وسيذكرونهم بكل خير.

بعد الاستراحة مشينا فوق الجبال الجرداء في منطقة يهودا على طول التلال الصخرية خلال المضائق الجرداء التي يسود فيها الصمت الأبدي، رأينا رعاة الأغنام المسلحين الذين التقينا بهم بعد ظهر يوم أمس وكانوا يرعون قطعان من الماعز طويلة الشعر. رأينا غزالين صغيرين من الغزلان

التي تشتهر بالعيون الجميلة، تبدو مثل الأطفال الصغار، تعدو بسرعة فائقة، لم أسرع منها سوى غزلان السهول الأمريكية العظمى.

في حوالي الساعة العاشرة صباحا وصلنا إلى سهل الرعاة، ووقفنا في حديقة محاطة بأشجار الزيتون حيث كان الرعاة يرعون قطعانهم ليلا قبل ثمانية عشر قرنا عندما بشرتهم الملائكة بميلاد المسيح المنقذ. وعلى بعد ربع ميل تقع بيت لحم. قام الحجاج بقطع بعض الجدار الحجري وغادروا المكان بسرعة.

سهل الرعاة سهل صحراوي، مليء بالحجارة المتناثرة، خالي من النباتات، يئن تحت وطأة الشمس الحارقة. تستطيع موسيقى الملائكية التي عرفها السهل فقط أن تعيد الحياة إلى شجيراته وزهوره مرة أخرى واستعادة جماله المفقود. لا يوجد أي سحر قوي يمكنه القيام بمعجزة.

في كنيسة المهد في بيت لحم، التي بنتها القديسة هيلانة قبل ألف وخمسمائة سنة، أخذوا في جولة تحت الأرض في مغارة محفورة في الصخر، وهو "المعلف أو المهد" الذي ولد فيه المسيح. وهناك نجمة فضية موجودة في الأرضية تحمل نقوش لاتينية صقلتها قبلات أجيال عديدة من الحجاج. ونمط المغارة هو النمط المعتاد الذي لاحظناه في جميع الأماكن المقدسة في فلسطين. وكما هو الحال في كنيسة القيامة كان الحسد والتعصب واضحا هنا. لا يستطيع الكهنة وأعضاء الطوائف اليونانية واللاتينية الدخول من نفس الممر للركوع في مهد المخلص المقدس، بل يجبرون على الجلوس في أماكن مختلفة حتى لا يحدث شجار أو قتال على أقدس بقعة على وجه الأرض.

ليس لدي أي "تأملات" حول هذا المكان الذي قيل فيه عبارة "عيد ميلاد سعيد" لأول مرة لجميع أنحاء العالم وانطلق منه سانتا كلوز في رحلته الأولى حيث اسعد المواعيد الشتوية في البلاد البعيدة إلى ابد

الأبدين. أنا فعلا لمست بإصبعي الموقر البقعة الفعلية التي وضع فيها يسوع ولكني لم أفكر باي شيء.

لا يمكنك أن تفكر في هذا المكان بأكثر مما تستطيع أن تفكر به في أي مكان آخر في فلسطين الأمر الذي من شأنه أن يلهمك على التفكير والتأمل. المتسولين والمعاقين والرهبان يحيطوا بك من كل جانب ويجعلوك تفكر بالبشيش فقط بينما تريد أن تفكر في شيء يجعلك تتماشى مع طبيعة المكان.

كنت سعيدا بالابتعاد عن المكان، وكنت سعيدا عندما مشينا خلال الكهوف التي كتب فيها أوسابيوس، وصام فيها جيروم، واعد فيها يوسف للرحلة إلى مصر، وعشرات الكهوف الأخرى المتميزة. كنيسة المهد مليئة تقريبا بالأماكن المقدسة مثلها مثل كنيسة القيامة. يوجد بداخلها كهف ذبح فيها عشرين ألف طفل على يد هيرودس عندما كان يسعى إلى تدمير حياة المسيح الرضيع.

ذهبنا إلى مغارة الحليب التي اختبأت فيها مريم لفترة من الوقت قبل الرحيل إلى مصر. كانت جدرانها سوداء اللون قبل أن تدخل إليها مريم وعندما كانت ترضع الطفل سقطت قطرة من لبنها على الأرض وفجأة تغير ظلام الجدران إلى لون ثلجي ناصع البياض. أخذنا العديد من الحجارة معنا لأنه من الشائع في الشرق أن المرأة العاقر تحتاج فقط إلى تقبيل إحدى هذه الحجارة بشفتيها وسوف تشفى في الحال من أعراض فشل الإرادة. أخذنا عينات عديدة من هذه الحجارة املاً في إضفاء السعادة على الأسر التي نزورها.

ابتعدنا عن بيت لحم وجيوش المتسولين وبائعو الأثار في فترة ما بعد الظهر، وبعد قضاء بعض الوقت عند قبر راحيل ذهبنا إلى القدس بأسرع وقت ممكن. شعرت بالسعادة الغامرة لدى عودتي إلى المنزل مرة أخرى واستمتعت بالاستراحة لعدة ساعات. كانت الرحلة إلى البحر الميت ونهر الأردن

وبيت لحم قصيرة لكنها كانت مرهقة جدا. هذه الحرارة الشديدة والعزلة والخراب والتعب لا توجد في أي مكان آخر على وجه الأرض.

نباهتي وفطنتي حذرتني من اللجوء إلى الكذب والادعاء بأنني تركت كل مكان في فلسطين على مضض. لم أسمع أي حاج من الحجاج الأربعة يقول شيئا من هذا القبيل، وهؤلاء الحجاج مخلصون وصادقون مثل بقية الحجاج الذين يأتون إلى هنا. سوف يقولون ذلك حالما يعودون إلى أوطانهم، لكن ما الذي يمنعهم من قول ذلك؟ أنهم لا يريدون أن يبقوا في صف ضد لامارتين وغرايمز في العالم. ليس من المعقول ألا يتردد الرجل في مغادرة الأماكن المزعجة المكتظة بالمتسولين والباعة المتجولين الذين يتشبثون بالأكمام والملابس ويصرخون ويثيرون الاشمزاز بمنظر الإعاقات والتشوهات المروعة. سمعت بعض الناس الوقحين يقولون إنهم سعداء للابتعاد عن مهرجانات السيدات التي يضطرون فيها إلى شراء المشروبات من الشابات الجميلات. حولوا هذه الحوريات إلى عجانز همجية تلبس ملابس بالية واستبدلوا أجسامهن الفاتنة بالتشوهات المتشنجة واستبدلوا أيديهن الناعمة بتشوهات وندوب بشعة واستبدلوا أصواتهن الموسيقية بالصخب المضطرب المليء بلغة الحقد والكرهية ثم شاهدوا التردد والتلكؤ في مغادرة المكان. لا، من اللطيف أن تقول انك كنت مترددا ومن ثم تلتصق أفكارك العميقة بانك "كافحت من اجل الكلام" في عقلك، ولكن من المنطق أن تقول انك لم تكن مترددا ثم تجد انك لم تكن قادرا على التفكير البتة، مع انه في حالة التفكير الهادئ ليس من دواعي الاحترام ولا الشاعرية قول ذلك الأمر.

نحن لا نفكر في الأماكن المقدسة، نحن نفكر عندما نذهب إلى النوم حيث ينتهي الضجيج والارتباك والوهج. وعند الخيال نعيد زيارة الآثار الجلييلة التي رأيناها في الماضي ونتذكر المواكب الوهمية التي ولت.

الفصل 56

قمنا بزيارة كافة الأماكن المقدسة حول القدس التي لم نزرها أثناء زيارتنا إلى نهر الأردن. حوالي الثالثة بعد الظهر مشينا في موكب ومررنا من خلال بوابة دمشق الفخمة حيث أصبحت أسوار القدس خلفنا إلى الأبد. توقفنا على قمة تلة بعيدة وألقينا نظرة الوداع الأخير على المدينة الموقرة التي كانت بمثابة منزل جيد بالنسبة لنا.

سافرنا إلى أسفل التل باستمرار لمدة أربع ساعات تقريبا. تابعنا السير في معبر ضيق يمر بين المضائق الجبلية. كنا نبتعد عن طريق القوافل الطويلة من الإبل والحمير كلما سنحت الفرصة، وعندما لم نتمكن من تجنب القوافل كانت تتعرض أرجلنا للخدش والكدمات لأن أجسامنا كانت تحتك بالجدران الصخرية العمودية لدى محاولتنا الابتعاد عن الحمولة على الإبل. تعرض جاك للإصابة مرتين أو ثلاث مرات وأصيب ودان ومولت مرات عديدة. انزلق حصان بقوة على الصخور الزلقة ونجت بعض الخيول الأخرى من الانزلاق بصعوبة. ومع ذلك، كان هذا الممر من أفضل الطرق التي رأيناها في فلسطين حتى الآن لذلك لم يكن هناك تدمير كثير إزاءه.

في بعض الأحيان مررنا ببساتين غنية بالتين والمشمش والرمان وغيرها، ولكن أجمالا كانت المنطقة وعرّة وجبلية وخالية من النباتات. في بعض الأماكن كانت هناك أبراج مقامة على القمم العالية حيث يتعذر على الإنسان الوصول إليها تقريبا. تبدو الأزياء قديمة مثل فلسطين نفسها حيث صممت في الماضي بطريقة تهدف إلى التحصين ضد الأعداء.

سرنا في الوادي الذي اخذ منه داوود الحجر الذي قتل به جالوت، وبلا شك نحن الآن ننظر إلى الأرض التي وقعت عليها تلك المعركة الشهيرة. مررنا بالخرائب القديمة الرائعة التي داست عليها أعداد هائلة من جيوش الصليبيين الشجعان، ثم مررنا على ارض قيل لنا أنها كانت موطن شمشون.

أضينا الليلة في ضيافة الرهبان الصالحين في دير في مدينة الرملة. في الصباح نهضنا وركبنا الخيول وعدونا بها بسرعة لأن الجزء الأكبر من المسافة من هنا إلى مدينة يافا كان سهلا مستويا خاليا من الحجارة، وكان هذا أيضا آخر مشوار لنا في الأرض المقدسة. بعد ساعتين أو ثلاثة ساعات بإمكاننا وبإمكان خيولنا المتعبة الاستراحة والنوم كيفما نشاء. في هذا السهل تحدث يشوع قائلا "أيتها الشمس مقابل جبعون لا تتحركي، والقمر مقابل قاع ايلون". عندما اقتربنا من مدينة يافا تسابق الرجال على ظهور الخيل في سباق مثير للغاية وهي متعة لم نحظى بها منذ أن ركبنا على الحمير في جزر الأزور.

وأخيرا وصلنا إلى ارض مليئة بالبرنقال تقع فيها مدينة يافا الشرقية. مررنا من خلال الجدران ثم سرنا في الشوارع الضيقة بين اسراب من الخرق المتحركة، رأينا مشاهد أخرى واستمتعنا بتجارب أخرى عرفناها منذ مدة طويلة. تزلنا عن الخيول للمرة الأخيرة وفي عرض البحر قبالة يافا رأينا سفينة راسية. وهنا أضع علامة تعجب لأننا شعرنا باننا شاهدنا باخرة. لقد انتهى الحج الطويل ويبدو أننا سعيون بذلك.

القديس سمعان بطرس الدباغ (الخراز) عاش هنا في يافا من قبل. ذهبنا إلى زيارة بيته عند البحر. يقوم جميع الحجاج بزيارة بيت سمعان الدباغ. في هذا البيت حصلت الرؤيا لبطرس التي رأى فيها الملاء النازلة من السماء والتي حوت مجموعة من الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة. ومن يافا أبحر يونان (النبي يونس) عندما طلب منه الله السفر، وبلا شك لم تكن يافا بعيدة عن تلك المدينة التي قذفه فيها الحوت عندما اكتشف أنه لا يحمل تذكرة. كان يونان من العصاة، يبحث عن الخطايا، يميل إلى الشكوى والتذمر، ويستحق أن يتحدث الناس عنه باستخفاف. الأخشاب المستخدمة في بناء معبد النبي سليمان نقلت إلى يافا على متن الطوافات، والفتحة الضيقة في الحديد البحري التي مرت من

خلالها تلك الأخشاب إلى الشاطئ لا تزال خطرة كما كانت عليه آنذاك. لم يكن لدى سكان فلسطين أي ميناء جيد غير هذا الميناء ولا يزال هو الميناء الوحيد الآن. يافا لها تاريخ مثير ولا يمكن اكتشافها في أي مكان آخر في هذا الكتاب. أما إذا ذهب القارئ إلى مكتبة عامة وذكر اسمي فسوف يحصل على الكتب التي تقدم له كافة المعلومات المتعلقة بها.

وهكذا نأتي إلى نهاية الحج. أننا سعداء لأننا لم نؤدي الحج لأسباب تتعلق بالتمتع بالمناظر الطبيعية لأننا كنا سوف نصاب بخيبة الأمل، على الأقل في هذا الوقت من السنة. ويقول كاتب "الحياة في الأرض المقدسة":

"ربما تبدو الأرض المقدسة مملّة ومنفرة للأشخاص المعتادين على الأراضي الغنية بالورود الخضراء والأنهار الواسعة والغطاء النباتي المتنوع، لكن علينا أن نتذكر أنها مختلفة جدا بعد المسيرة المتعبة لبني إسرائيل لمدة أربعين عاما خلال الصحراء".

أنها حقا ارض "مملّة ومنفرة" وليس هناك سبب كافي يدعو إلى وصفها بخلاف ذلك.

أعتقد أن فلسطين هي أفضل البلاد الكثبية التي شاهدناها. فيها التلال جرداء وخالية من الألوان وأشكالها تعاني من الرتابة. الوديان صحراوية قبيحة، والغطاء النباتي ضعيف يثير اليأس والحزن. يقع البحر الميت وبحيرة طبريا في خضم مساحات شاسعة من التلال والسهول تخلو من الألوان اللطيفة والأشياء اللافتة للنظر، ولا يوجد صورة ناعمة من صور الضباب الأرجواني أو ظلال السحاب المنقطة. كل الخطوط والمعالم بها قاسية وكل الخصائص بها متميزة، لذا لا يوجد بها منظور. فالمسافة لا تثير أي سحر في ارض كئيبة يائسة مكسورة الفؤاد.

ولكن اعتقد أن الأماكن والأراضي الصغيرة في فلسطين تكون جميلة جدا في فصل الربيع، وتكون أكثر جمالا مقارنة بالخراب الذي يحيط بها من كل جانب. أود أن أشاهد ضفاف نهر الأردن في

فصل الربيع وكذلك نابلس وإيلون والجليل. ومع ذلك، تبدو هذه الأماكن مجرد حدائق صغيرة متناثرة في مساحات واسعة من الخراب والدمار اللامحدود.

تجلس فلسطين في الرماد وقماش الخيش، ترقد فوقها لعنة أذبلت حقولها وقيدت طاقتها. هنا بنى سدوم وعمورة القباب والأبراج. البحر المقدس الذي يفيض في السهول مياه مالحة لا يعيش بها كائن حي، وفوق سطحه الهادئ يوجد هواء ساخن لا يحرك ساكنا، لا ينمو على ضفافه سوى الأعشاب وخصلات من قصب المتناثر والفاكهة الغادرة التي تعد بترطيب الشفاه الجافة وتحول إلى رماد عند لمسها. الناصرة بئسة ومهجورة. في المكان الذي عبر منه بني إسرائيل نهر الأردن إلى أرض الميعاد يغنون أغاني البهجة، لا يجد المرء سوى مخيما قذرا من البدو الصحراء الرائعين. وأريحا الملعونة لا زالت خراب بالي تماما كما تركتها معجزة يشوع منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة. بيت لحم وبيت عنيا (العيزرية) بما فيها من فقر وذل لا يوجد بها الآن ما يذكرنا بانها كانت شاهدا على حياة المسيح المخلص. المكان المقدس الذي راقب فيه الرعاة أغنامهم ليلا وغنت فيه الملائكة للسلام على الأرض والنوايا الحسنة للرجال هو مكان خالي من أي كائن حي يذكر ويفتقر إلى أي ميزة تسر النظر. القدس نفسها الشهيرة وأعظم اسم في التاريخ فقدت عظمتها القديمة بالكامل وأصبحت بلدة فقيرة. لم تعد هناك ثروات النبي سليمان التي تثير إعجاب الملكات الشرقية الزائرة. المعبد العظيم الذي كان يمثل الفخر والمجد لبني إسرائيل اختفى وظهر الهلال العثماني في نفس المكان الذي رفع فيه الصليب المقدس يوما ما (في ذلك اليوم الأكثر تميزا في أحداث العالم التاريخية). بحيرة طبريا التي رست عندها الأساطيل البيزنطية وأبحر منها تلاميذ المخلص في سفنهم هجرها التجار والمحاربون منذ أمد بعيد وأصبحت حدودها مجرد براري صامتة. كفر ناحوم خراب بشع لا منظر له، والمجدل موطن المتسولين من العرب. اختفت بيت صيدا وكورزين عن وجه الأرض. الأماكن

الصحراوية المحيطة بهما حيث استمع آلاف رجال لصوت المسيح المخلص وأكلوا من معجزة الخبز
تغفو في عزلة صامتة لا تسكنها سوى الطيور الجارحة والثعالب المتسللة.

فلسطين مهجورة وبغيضة. ولماذا ينبغي أن تكون خلاف ذلك؟ هل يمكن أن تقوم لعنة الخالق بتجميل
الأرض؟

فلسطين ليست من عالم اليوم، ولكنها مقدسة عند الشعراء والتقاليد، فهي ارض الأحلام.

فهرس الجداول

رقم الصفحة	عنوان الجدول	رقم الجدول
52	عدد السفن القادم الى يافا	4.1
68	سالنامة ولاية سوريا عام 1871	4.2

فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	الإقرار
ب	الشكر والعرفان
ت	الملخص
ث	Abstract
الفصل الأول	
1	1-1 المقدمة
3	2-1 موضوع الدراسة
6	3-1 أهداف الدراسة
6	4-1 أهمية الدراسة
8	5-1 مبررات الدراسة
8	6-1 مشكلة الدراسة
9	7-1 أسئلة الدراسة
10	8-1 فرضيات الدراسة
11	9-1 منهجية الدراسة
11	10-1 أدوات الدراسة
12	11-1 حدود الدراسة
12	12-1 صعوبات الدراسة
الفصل الثاني	
13	1-2 الإطار النظري والدراسات السابقة
13	1-1-2 الإطار النظري للدراسة
16	2-1-2 الدراسات السابقة
17	1-2-1-2 لماذا غادر الأبرياء إلى خارج البلاد: مارك توين والسياحة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر
19	2-2-1-2 الأسلوب الواقعي والمشكلة في مضمون "أبرياء في الخارج" و "الحياة

	الخشنة"
20	3-2-1-2-2 مارك توين السائح: شكل "الأبرياء في الخارج"
21	4-2-1-2-2 أنماط الوعي في "الأبرياء في الخارج"
24	5-2-1-2-2 المختارون الفاسقون في "الأبرياء في الخارج"
25	6-2-1-2-2 مارك توين يصف العرب والمسلمين في "الأبرياء في الخارج"
27	7-2-1-2-2 التحولات الاقتصادية - الاجتماعية في فلسطين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.
28	8-2-1-2-2 الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة.
الفصل الثالث	
30	1-3 شخصية مارك توين الساخرة وحياته
30	1-1-3 نشأة مارك توين وحياته الصبي
36	2-1-3 الدوافع وراء رحلة توين إلى أوروبا والأراضي المقدسة
36	1-2-1-3 الحرب الأهلية ونتائجها
40	2-2-1-3 المراسل الجوال
42	3-1-3 خط سير رحلة مارك توين في فلسطين
الفصل الرابع	
44	1-4 الواقع الحضاري للأراضي المقدسة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر
45	1-1-4 الواقع الاقتصادي
48	1-1-1-4 الواقع الحضاري والاقتصادي للمدن الفلسطينية
48	1-1-1-1-4 سنجق القدس
48	1-1-1-1-1-4 مدينة القدس
51	2-1-1-1-1-4 مدينة يافا
54	3-1-1-1-1-4 مدينة بيت لحم
55	4-1-1-1-1-4 مدينة الخليل
56	2-1-1-1-4 سنجق عكا

56	1-2-1-1-1-4 مدينة عكا
58	2-2-1-1-1-4 مدينة حيفا
60	3-2-1-1-1-4 مدينة صفد
61	4-2-1-1-1-4 مدينة الناصرة
63	5-2-1-1-1-4 مدينة طبريا
64	3-1-1-1-4 سنجق نابلس
64	1-3-1-1-1-4 مدينة نابلس
66	2-1-4 الواقع السكاني والعمراني
66	1-2-1-4 الواقع السكاني
69	2-2-1-4 الواقع العمراني
71	2-4 فلسطين والأراضي المقدسة في وصف الرحالة
74	3-4 لوحات فنية للمدن الفلسطينية
الفصل الخامس	
84	1-5 الخلاصة
88	قائمة مصادر الدراسة
93	ملحق 1 ترجمة كتاب "الأبرياء في الخارج" من الفصل 46 لغاية الفصل 56 الخاصة برحلة فلسطين
205	فهرس الجداول
206	فهرس المحتويات